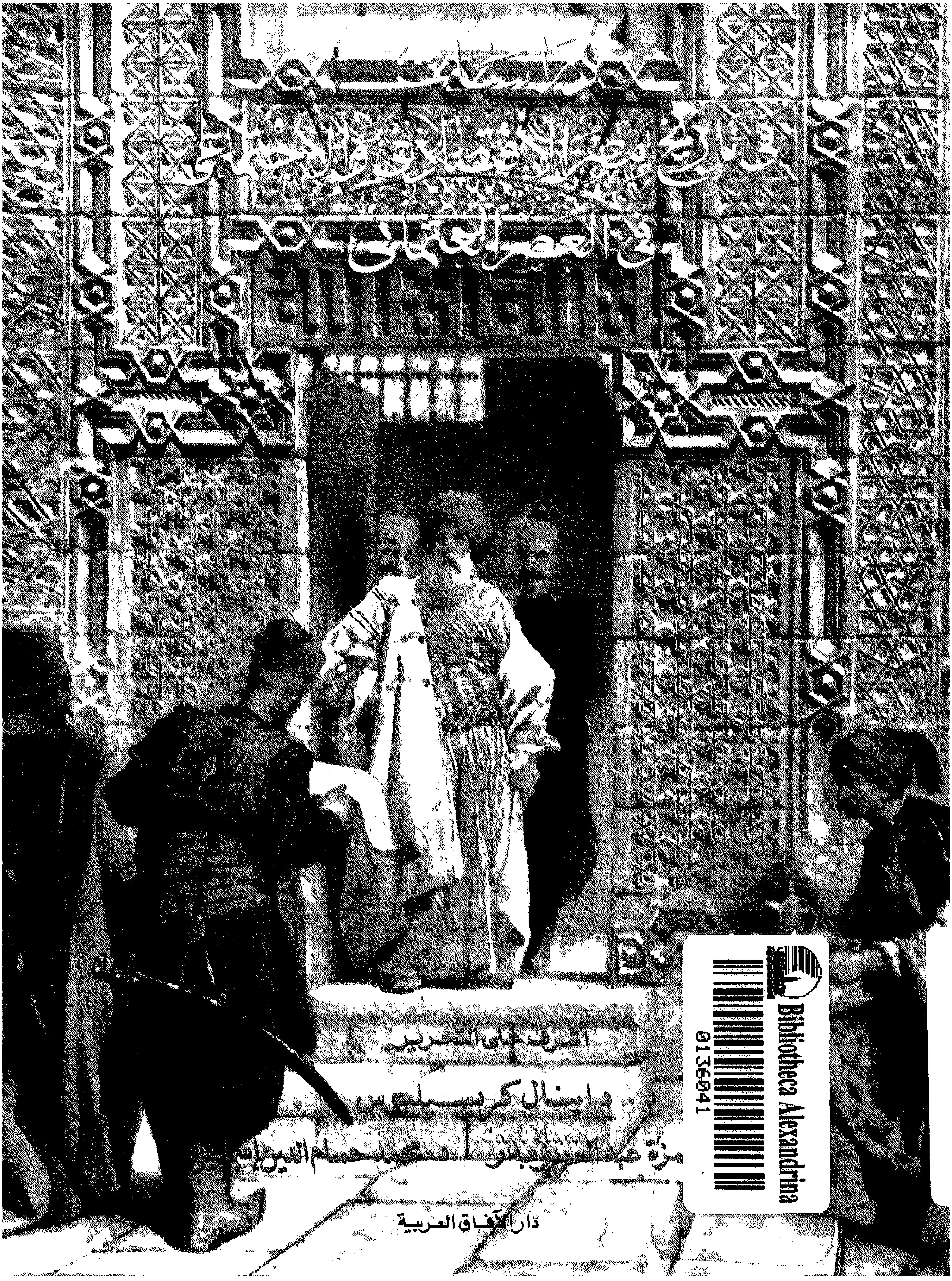

دراسات
في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي
في العصر العثماني

أشرف على التحرير

د. دانيال كريسيليوس

مزة عبد العزيز بدر - د. محمد حسام الدين إس

دار الآفاق العربية

Bibliotheca Alexandrina
0136041

دارسات

في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي

في العصر العثماني

أعمال الندوة العلمية التي أقامتها هيئة فولبرايت بالقاهرة

في الفترة من ٦-٨ ديسمبر ١٩٩٦م

إشراف

د. دانيال كريسيليوس

د. حمزة عبد العزيز بدر   د. محمد حسام الدين إسماعيل

القاهرة ١٩٩٦م

دار الآفاق العربية

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الآفاق العربية

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت: ٢٦١٠١٦٤

المحتوى

تقديم ص٥

أولاً: القسم العربي

١- د. عبد الرزاق معاذ (دمشق)

بيت الشيخ السادات في القاهرة وبيت المرادي في دمشق: الأعيان والعمارة والنفوذ في القرن الثامن عشر ص٩

٢- د. محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح

سبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين، دراسة جديدة من خلال بعض الوثائق المملوكية ص٢١

٣- د. محمد محمود علي الجهيني

الأسعار بسوق الفيوم الكبير في ضوء سجل إشهادات من القرن التاسع عشر ص٣٩

٤- خالد عزب

وثيقة الصناع، وثائق محكمة رشيد ص٦٥

٥- د. أحمد عيسى أحمد

البلاطات الخزفية العثمانية بجامع الصيني بجرجا، دراسة فنية ص٧٥

٦- أ. د. أحمد فؤاد متولي

تصرفات جان بردي الغزالي وخاير بك بعد موت السلطان سليم الأول (كما تصورها وثيقتان بالفارسية والتركية) ص٩٩

٧- أ. د. محمد محمود السروجي

علاقة قبائل أولاد علي بالسلطات العثمانية الحاكمة بمصر ص١١٧

٨- د. عبد الحميد سليمان (جامعة المنصورة)

العثمانيون في دمياط، دراسة للدورين المدني والعسكري ص١٣١

٩- أ. د. سمير طه

الحياة الثقافية في عصر إسماعيل ص١٦١

ثانياً: القسم الإنجليزي

١- أ. د. دوريس بهرانز أبو سيف

An Industrial Quarter in Ottoman Cairo: The Tanneries of Bab al-Luq ص١

٢- أ. د. دانيال كريسيليوس وأ. د. حمزة عبد العزيز بدر

An Agreement between the ‘Ulama and the Mamluk Amirs in 1795: A Test of the Accuracy of Two Contemporary Chronicles ص٩

٣- د. شرال هلدين

Evidence for Red Sea Trade in Ottoman Egypt: The Sadana Island Shipwreck ص٢٣

تقديم

يتضمن هذا المجلد أعمال ندوة علمية دولية عقدتها هيئة فولبرايت (لجنة التبادل التعليمي والثقافي بين الولايات الأمريكية وجمهورية مصر العربية)، بمقر الهيئة بالقاهرة في الفترة من ٦ إلى ٨ ديسمبر ١٩٩٦م.

والواقع أن تاريخ مصر وحضارتها في العصر العثماني قد لقي إهمالاً وتجاهلاً كبيراً من جانب الباحثين والمؤرخين لفترة طويلة، وسمت فيها تلك الحقبة من تاريخ مصر -التي قاربت على ثلاثة قرون- بالجهل والتخلف والركود في مختلف مناحي الحياة. وانساق كثير من الباحثين وراء كتابات المستشرقين الذين كانت تحركهم أحقاد دفينة متوارثة ضد تلك الدولة الإسلامية التي قهرت أوروبا لفترات طويلة، واتخذت من القسطنطينية -عاصمة الإمبراطورية البيزنطية- عاصمة لها ومركزاً لنشر العقيدة والفكر الإسلامي، وأشرقت بها شمس الإسلام من المشرق بعد أن غربت شمس الأندلس في المغرب.

ثم بدأ المؤرخون والباحثون الغربيون أنفسهم يعيدون كتابة تاريخ وحضارة الدولة العثمانية، وفي مصر تزعم المرحوم محمد شفيق غربال الدعوة إلى دراسة تاريخ مصر العثمانية دراسة علمية جادة، وتوالى ظهور الدراسات التاريخية المنصفة عن مصر وحضارتها في العصر العثماني، فاهتم الباحثون والمتخصصون في التاريخ والآثار على السواء بتلك الحقبة الهامة من تاريخنا القومي، وهي حقبة شهدت تغيرات اقتصادية وسياسية واجتماعية على درجة كبيرة من الأهمية.

ويعتبر الجيل الحالي من الباحثين أكثر حظاً من سلفهم، إذ توفرت لهم مصادر وثائقية لم تكن متاحة لمن سبقهم، فانكب عليها المؤرخون والأثريون ينهلون من ينبوعها الأصيل، فخرجت إلى حيز الوجود الكثير من الدراسات الجادة والرصينة تحوي آراء وأفكار جديدة، أو تصحح مفاهيم خاطئة، أو تضيف معلومات قيمة إلى ما

هو معروف من تاريخ تلك الحقبة معتمدة في كل ذلك إلى وثائق لا يتطرق الشك إلى صحة ما بها من معلومات، وتكفي الإشارة إلى أحد تلك المصادر الوثائقية وهو سجلات المحاكم الشرعية بما تحويه من رصد للحركة اليومية للمجتمع في ذلك الوقت على المستوى الرسمي، بما سجل بها من أوامر صادرة إلى الحاكم المحلي من الإدارة المركزية في استنبول، أو صادرة من الحاكم نفسه إلى موظفيه ورعيته، وعلى المستوى الشعبي بما تحويه من تسجيل للتعاملات والخلافات بين الأفراد والجماعات على السواء، فهي في كل ذلك كنز ومعين لا ينضب للباحثين والمؤرخين في مختلف مناحي الحياة في ذلك العصر. هذا بالإضافة إلى الأرشيفات العثمانية العديدة التي أصبحت متاحة للباحثين في المشرق والمغرب على السواء، وما بها من مادة وثائقية لم تكن متاحة من قبل.

ونشير في هذا الصدد إلى ما ذكره كل من هاملتون جب وهارولد بووين في مؤلفهما الشهير عن نظم الدولة العثمانية "المجتمع الإسلامي والغرب"، من أنهما يتوقعان أن تتغير بعض معالم مؤلفهما هذا في المستقبل القريب نتيجة السماح للباحثين بالإطلاع على ما تحويه الأرشيفات العثمانية، مما سيمكن الباحثين من دراسة نظم الإمبراطورية العثمانية معتمدة على مادة وثائقية أصلية، وذكروا صراحة أنه "من الواضح أن هذه الدراسات الجديدة ستعدل، أو ستصبح تصحيحاً تفصيلياً، وربما جذرياً كثيراً من الأحكام التي توصلنا إليها بالاستعانة بالمادة الثانوية المتاحة".

وقد صدقت نبوءتهما، فاتجه كثير من الباحثين المتخصصين في هذه الحقبة إلى اتخاذ الأرشيفات العثمانية مصدراً رئيسياً لأبحاثهم، وتغيرت كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي علقت بتاريخ مصر العثمانية، مثل مسألة نقل الصناع إلى استنبول عقب الفتح العثماني وتأثير ذلك في انتكاس الحركة الفنية والمعمارية بمصر، أو مقولة قصر مدة الوالي واتجاهه إلى فرض الضرائب وجمع الأموال، وغير ذلك من الأحكام المسبقة التي كان يوسم بها الحكم العثماني لمصر.

وفي إطار هذا الاتجاه العالمي لإعادة تناول تاريخ الدولة العثمانية في مختلف ولاياتها، وفي مختلف جوانب هذه الفترة التاريخية الخصبة -تاريخياً وحضارياً- أتت دعوة هيئة فولبرايت للباحثين في الجامعات المصرية والأمريكية والأوروبية والعربية للمشاركة في ندوة دولية تكرس لتاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، وانعكست أهمية هذه الندوة في تلك الاستجابة المشكورة من المؤرخين والباحثين، وما قدموه من موضوعات متنوعة وعلى درجة كبيرة من الأهمية، فطرحت أبحاث عن التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي والفنون والعمارة والبحرية. وشهدت الندوة إقبالاً من جمهور المتخصصين الذين أثروا جلساتها بمداخلاتهم الجادة، كما شهدت الندوة إقبالاً من الصحافة والتلفزيون المصري.

ويتوجه المشرفون على تحرير هذا المجلد بالشكر لهيئة فولبرايت وعلى رأسها السيدة "آن رضوان" على الدعوة لهذا المؤتمر والإشراف على تنظيمه واستضافته بمقر الهيئة بالقاهرة.

كما نتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور رءوف عباس وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة على تفضله برئاسة الجلسة الافتتاحية للمؤتمر. ومن واجبنا أن نتقدم بالشكر والعرفان لتلك النخبة المتميزة في هذا الميدان، الذين تفضلوا برئاسة جلسات المؤتمر وأثروا الندوة بمداخلاتهم الخصبة مع الباحثين الشبان، وخاصة أ. د. آمال العمري وأ. د. ربيع خليفة من كلية الآثار جامعة القاهرة، وأ. د. نيلي حنا من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأ. د. أحمد فؤاد متولي من جامعة عين شمس، وأ. د. محمد محمود السروجي من جامعة الإسكندرية، وأ. د. دوريس بهرانز أبو سيف من جامعة ميونخ بألمانيا.

ولما كان حجم مشاركة الباحثين كبيراً، فإن نشر جميع الأبحاث التي قدمت للمؤتمر تقصر عنه الإمكانيات المادية المتاحة، فإننا نعتذر لأصحاب البحوث المتميزة التي لم تنشر لأسباب مادية، ونأمل أن تجد سبيلها للنشر في وقت لاحق.

ولا يسعنا سوى التقدم بالشكر لهيئة فولبرايت بالقاهرة على ما قدمته مـن دعـم مادي لنشر هذه الأبحاث، كما نتقدم بالشكر للنخبة الذين تفضلوا بحضور هذه الندوة محاضرين ومناقشين ورؤساء جلسات.

المشرفون على التحرير

بيت الشيخ السادات في القاهرة وبيت المرادي في دمشق

الأعيان والعمارة والنفوذ في القرن الثامن عشر

د. عبد الرزاق معاذ – دمشق

ظهرت خلال العقدين الفائتين مجموعة هامة من الدراسات المتعلقة بالمدن العربية في العصر العثماني، وقد نالت مدينة القاهرة النصيب الأوفر من هذه الدراسات، وجاءت بعدها ولكن بمسافة بعيدة مدينة حلب، فيما ظلت مدينة دمشق تفتقر بشكل كبير لدراسات توضح دور الفترة العثمانية فيها. وقد كانت الدراسات الرائدة التي حظيت بها مدينة القاهرة نموذجاً لدراسات منتظرة تتعلق بمدن عربية أخرى مثل دمشق، فقد أغنى أندريه ريمون مجال الدراسات الحضرية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية بدراساته التي أصبحت مفتاحاً لكل من يريد دراسة القاهرة العثمانية، وقدم بنفس الوقت بدراساته هذه منهجاً وأسلوباً وأفكاراً يقتضي على الباحثين حول المدن العربية الأخرى مقارنتها بالمواد التي تحت أيديهم، ليروا إلى أي مدى يمكن أن تنطبق هذه النظريات على مدن عربية أخرى[1].

لقد بين أندريه ريمون التوسع العمراني الكبير الذي شهدته مدينة القاهرة خلال العهد العثماني، وربطه بأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية. كذلك فقد قدمت نللي حنا دراسات نموذجية حول مدينة القاهرة، وأصبح كتابها عن بيوت القاهرة مثالاً يدعو الباحثين حول هذا الموضوع في المدن العربية الأخرى إلى المقارنة به، وإلى النظر إلى مدى تقارب المعلومات والأفكار التي تطرحها بالنسبة للمدن التي

---

[1] André Raymond, Grandes villes arabes à l'époque ottomanee, Paris, 1985; Le Caire, Paris, 1993; Le – Caire des Janissaires, Paris 1995.

يدرسونها[١]. لقد أفادتني دراسات أندريه ريمون حول مدينة القاهرة في دراستي لتوسع مدينة دمشق في العهد العثماني، وبروز حي صاروجا بدمشق كحي لعلية القوم في ذلك العهد، كذلك فقد قدم إلي كتاب نللي حنا عن بيوت القاهرة أمثلة وجدتها تتكرر في بيوت دمشق كما تذكرها سجلات المحاكم الشرعية.

من ناحية أخرى، نالت ظاهرة بروز الأعيان في المدن العربية ابتداءً من القرن ١٧م وخصوصاً في القرن ١٨م اهتماماً كبيراً خلال السنوات العشر الماضية من قبل الباحثين، وتناول بعضهم تأثير هذه الظاهرة السياسية والاجتماعية على بنية المدينة وتوسعها كما فعل أندريه ريمون، ودرس آخرون مثل نللي حنا تأثيرات هذه الظاهرة على بيوت الأعيان وما طرأ عليها من تغيرات ووظائف جديدة تتناسب مع الوضع الجديد وتعكس النفوذ والثروة التي تمتع بها هؤلاء في تلك الفترة[٢]. لقد أثارت في دراسات كلا الباحثين تساؤلات عديدة عن وجود تشابه بين ما يطرحونه وبين أمثلة مشابهة في مدينة دمشق، ودفعتني لعقد مقارنات بين المدينتين.

كذلك فقد أبرز دانيال كريسيليوس وعفاف لطفي السيد الدور الهام الذي لعبه العلماء في القاهرة خلال القرن ١٨م[٣]. ورأت عفاف لطفي السيد أن أهم ميزات القرن ١٨م تتجلى في تعاظم النفوذ السياسي والاقتصادي للعلماء[٤].

---

١ - Nelly Hanna, Habiter au Caire, aux XVIIe et XVIIIe siècles, Cairo, IFAO, 1991

٢ - نللي حنا: التغير في الهيكل السياسي في القرن الثامن عشر وأثره على وظائف قصور الأمراء في القاهرة، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، عدد خاص ٥٧، أبحاث ندوة تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨)، المنعقدة في الفترة ١-٣ سبتمبر ١٩٩٢، إشراف: رءوف عباس ودانيال كريسيليوس، ص٨٣-٩٢.

٣ - Daniel Crecelius, The Emergence of the Shaykh al-Azhar as the Pre-eminent Religious Leader in Egypt, Colloque imternational sur l'histoire du Caire, DDR,1969, pp.109-123; Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, The Political and Economic Functions of the 'Ulama' in the 18th Century, JESHO, 16, 1973, pp. 154-173.

٤ - Marsot, Political, p. 151.

يهدف هذا البحث بشكل أساسي إلى عقد مقارنة لظاهرة تعاظم نفوذ الأعيان بين القاهرة ودمشق، وبالذات بالنسبة لفئة العلماء، وقد انعكس هذا النفوذ في جوانب مختلفة من الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وعمرانية، فالدارس للتركات مثلاً يرى الثروة التي استطاع بعض الأعيان استحواذها[١]، وكذلك فإن دراسة الوقفيات تبرز الأملاك الواسعة التي سيطر عليها هؤلاء ومدى تنوعها[٢]. ومن جهة أخرى فإن الدارس للعمارة يلاحظ أيضاً تعدد الوظائف التي يمكن أن تحتويها بيوتهم من أماكن عامة يقصدهم الناس فيها، ويلاحظ أيضاً مدى البذخ والغنى الذي ظهر سواءاً في عمارة بيوتهم أو في الأبنية العامة الملحقة بها.

وقد اخترنا بالنسبة لهذا البحث المختصر أن نسلط الأضواء بشكل أساسي على شخصيتين بالتحديد، الأولى من القاهرة، الشيخ أبو الأنوار السادات شيخ الطريقة الوفائية، والثانية من دمشق، أسرة المرادي، التي برز منها عدة شخصيات هامة شغل بعضها منصب المفتي ومناصب أخرى هامة، وكان محمد مراد المرادي الذي قدم من بخارى في نهاية القرن ١٧م شيخاً للطريقة النقشبندية. وقد اختار كلاهما السكنى خارج المدينة حيث أقام الشيخ محمد مراد في حي سويقة صاروجا، شمال غرب المدينة القديمة، واختار الشيخ السادات أن يقيم بجوار بركة الفيل، إلى الجهة الجنوبية من المدينة القديمة. ولقد عكس قصرا هذين الشيخين، بما احتوياه من وظائف وما صرف في عمارتيهما وزخرفتيهما من مال مدى النفوذ والغنى اللذين تمتع بها كلاهما.

لقد حقق عدد من العلماء في تلك الفترة في دمشق والقاهرة ثروات كبيرة، وكان يمكن للشيوخ الحصول على نصيب من الرفاهية، بمجرد أن يتتلمذ على يديهم

---

١ - André Raymond, Artisans et commerçants au Caire au XVIII^e siècle, Damascus, IFEAD, 1974, II, pp. 373-380.

٢ - حول أوقاف الشيخ السادات أنظر: Marsot, Political, pp. 152-3.
وبشكل عام أنظر: محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، القاهرة، ١٩٩١، ص٢١٧-٢٣٧.

طلاب من عائلات ثرية. ومن أبرز الشيوخ الذين أثروا خلال هذه الفترة الشيخ عبد الله الشرقاوي (المتوفى سنة ١٨١٨م) الذي كان فقيراً في شبابه واستفاد من كرم جماعة من التجار الشوام لتحسين أحواله. وبرز كزعيم قوي للطريقة الخلوتية ومنحه مريدوه وأتباعه منزلاً. وقد وصل هذا العالم إلى منصب شيخ الأزهر، ونمت ثروته بالتدريج حتى أصبح ثرياً، وكان لهذا الثراء علاقة بالأراضي التي منحه إياها أمراء المماليك في إقليم الشرقية[١].

ويعد الشيخ السادات برأينا من أهم الأمثلة على الثروة والنفوذ التي استحوذها بعض العلماء في ذلك الوقت، "وإذا كان الشيخ السادات ليس أغنى رجل في عصره لكنه كان أحد أكبر ذوي النفوذ"[٢]. لقد كان أبو الأنوار السادات شيخ الطريقة السادتية الوفائية على علاقات اجتماعية متناسقة مع مختلف الفئات الاجتماعية، مما عاد عليه بالمزايا المادية في كل الظروف وتلقت طريقته المساعدات من مصر ومن خارجها. وقد ملك أبو الأنوار شخصياً سبعة بيوت وسبعة دكاكين وثلاث وكالات وقهوة وعدة بساتين، واستفاد من موارد متعددة تدر عليه أموالاً طائلة أهمها الوقف لأملاك وأراضٍ زراعية ومحلات تجارية كالثلاث وكالات في بولاق وغيرها[٣]. ويربط أندريه ريمون بين كون السادات أبناً لأحد التجار على العلاقة التي ربطت بين عالم التجار وعالم العلماء في ذلك الوقت[٤]. ولكن رغم أن والد هذا الشيخ كان تاجراً إلا أنه لم يكن ثرياً، وكان لثراء أبو الأنوار علاقة كبيرة بشخصيته وارتباط مريديه به، ولعل أهم ما تميزت به طريقته الصوفية التبجيل الكبير الذي يكنه له مريدوه واعتباره،

---

١ - بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، القاهرة ١٩٩٢، ص٥١ ؛ Raymond, Artisans, II, p. 428

٢ Marsot, Political, p. 147. -

٣ - جران: الجذور، ص٨٣ ؛ Marsot, Political, p. 149; Raymond, *Artisans*, II, p. 428

٤ Raymond, Artisans, II, p. 428. -

لكونه من آل البيت، امتداداً للحقيقة المحمدية، وقد شغل السادات منصب نقيب الأشراف حتى وفاته[١].

من ناحية أخرى، لقد كانت علاقة الشيخ السادات بالعثمانيين جيدة حتى أنه عندما طلب أموالاً من رئيس الكتاب العثمانيين لترميم زاويته صرفت له اعتمادات كبيرة. وقد وسع أبو الأنوار نفوذه أيضاً بين المماليك وحصل منهم على تقدير كبير بتعيينه ناظراً لأوقاف مساجد هامة، ونال منهم ألقاباً ورواتب كبيرة[٢].

لقد كانت الطرق الصوفية الظاهرة الدينية البارزة في ذلك القرن، ولعب شيوخ الطرق كجزء من العلماء دوراً هاماً في القاهرة وفي دمشق، فقد كان للشيخ البكري وللشيخ السادات دور هام في الحياة الدينية والعامة لكون كل منهما شيخاً لطريقة الأول البكرية والثاني الوفائية[٣]. كذلك فقد تولى آل المرادي مشيخة الطريقة النقشبندية في دمشق ونقابة الأشراف وحصلوا على مناصب هامة وعلا شأنهم كثيراً في القرن ١٨م[٤].

أما بالنسبة لأصل ثروة أسرة المرادي، فتعود بالأصل إلى منح السلطان العثماني مصطفى للشيخ محمد مراد المرادي عدداً من القرى في أطراف دمشق كملكانة (أرض إقطاعية) وكان على هذه الأسرة أن تدفع لخزينة الدولة مقابل ذلك. كذلك فقد ملكت عائلة المرادي ثلاثة خانات داخل دمشق. وكان لهم بيتين الأول داخل المدينة

---

١ - حران: الجذور، ص٥٢، ص٨٣-٨٦.

٢ - نفسه، ص٥٢، ص٨٤-٨٥.

٣ - حران: الجذور، ص١٠٢؛ Marsot, Political, p. 147 ; Raymond, Artisans, II, p. 428-9.

٤ - Karl Barbir, All in the Family: The Muradis of Damascus, III rd Congress on the Social and Economic History of Turkey, Princeton University, 24-26 August 1983, Proceedings edited by H. Lowry and R. Hattox, Istanbul, 1990, pp. 160-165; Linda S. Schilcher, Families in Politics, Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries, Stuttgart, 1985, pp. 160-165.

والآخر خارجها، ومدرستين الأولى داخل المدينة والثانية إلى جوار بيتهم في حي صاروجا وكانتا للطريقة النقشبندية[١].

ومن شيوخ الطرق الذين استطاعوا أن يستحوذوا على أملاك عديدة في دمشق، الشيخ علي بن عبد القادر السعدي الجباوي شيخ الطريقة السعدية الجباوية والذي ملك ستة عشر داراً[٢]. وتبرز أهمية هؤلاء الشيوخ وثرواتهم عندما نعلم أن فئة العساكر قد استطاعوا احتكار النصيب الأعظم من الثروة والبيوت الفخمة في المدينة. فمن خلال دراسة حديثة أجريت على سجلات التركات في دمشق في القرن ١٨م، نلاحظ أن القيمة المتوسطة للتركة العائدة للعساكر تفوق بأربعة مرات تلك التي تعود للمدنيين[٣]. لذلك فإن امتلاك بعض العلماء لبيوت هي أقرب للقصور، تشكل اختراقاً أو على الأقل استثناءً هاماً، خاصة عندما نعلم أن فئة الأمراء في القاهرة قد سيطروا على السوق العقارية للبيوت الأغلى ثمناً، وبلغت نسبة تملكهم للبيوت الأكثر فخامة ٨٠٪[٤].

ومن الأدلة التي تبرز مقدار ثروة الشيخ محمد مراد المرادي، أنه أقرض مصطفى بيك الكوردي أغا طائفة الإنكشارية بدمشق مبلغاً قدره ٣٢٠٠ قرشاً، وهو مبلغ يتجاوز سعر كل البيوت التي بيعت ذلك الوقت[٥]. وقد قام الشيخ مراد بشراء دار مصطفى بيك هذا، الكائنة في سويقة صاروجا بعد وفاة الأخير من وكيل أيتامه،

---

[١] – المرادي، محمد خليل، ت سنة ١٧٩١م: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، بيروت ١٩٨٨، ص١٢٩-١٣٠.

[٢] – Colette Establet and Jean-Paul Pascual, Familles et fortunes à Damas, 450 foyers Damascains in 1700, Damascus, IFEAD, 1994, p. p.. 133, 142.

[٣] – Brigitte Marino, Le faubourg du Midan à Damas à l'époque ottomanee: espace urbain, société et habitat, (1742-1830), Thèse de doctorat, Université d'Aix-Marseille I, 1994, pp. 195-6.

[٤] – N. Hanna, Habiter, p. 48.

[٥] – سجل المحكمة الشرعية بدمشق، رقم ٢٣، ص١٧٣، رقم ٣٦٤، تاريخ ١١١١هـ/١٦٩٩م.

واشترى منه أيضاً بستاناً في إحدى قرى دمشق وكميات من الحنطة ومجموعة من الأبقار بلغ ثمن كل هذا ٢٩٧١ قرشاً[١]. في هذا المثال دليل على أن هذا الشيخ قد بلغ شأواً بعيداً في الغنى نافس فيه كبار العساكر الذين ملكوا أكبر الثروات.

وقد كان لعائلة المرادي بيتين أحدهما داخل المدينة والآخر في سويقة صاروجا وهو مدار حديثنا. كذلك فقد بنى محمد سعيد المرادي (المتوفى سنة ١١٨٠هـ) بيتاً داخل المدينة القديمة "وصرف عليها من المال الكثير وزينها أنواع النقوش وأحجار الرخام وأتقن صنعها" وقد بيعت بعد وفاته[٢].

وإن دراسة أسعار المواد التي استخدمت في بناء مسجد السادات ١١٩١هـ/١٧٧٧م إلى جوار داره، يظهر الثمن الباهظ الذي دفع لشراء الخشب والرخام بالمقارنة بتكاليف البناء نفسه. فثلث مجموع المبلغ الذي صرف على بناء هذا المسجد، صرف على إشادة البناء، وثلثا المبلغ الكلي صرفت على الزخرفة. والأعمال الخشبية والرخامية كلفت أكثر من نصف تكاليف الزخرفة[٣].

أما بالنسبة لعدد الغرف والعناصر المكونة لمخطط هذا البيت، فقد بقي منها اليوم فقط ٢٧ عنصراً ما بين غرف وقاعات ومناظر وأواوين[٤]. فإذا كان هذا القسم المتبقي اليوم من هذا البيت لا يشكل إلا قسماً صغيراً من البناء الأصلي فإنه من الصعب تخيل مدى السعة والفخامة التي اتسم بها ذاك البيت في أوج مجده أثناء القرن ١٨م. وفي القسم الجنوبي من هذا البيت مازال يوجد هناك حتى اليوم قاعة فيها

---

١ - السجل السابق، ص١٧٤، رقم ٣٦٥.

٢ - المرادي: سلك الدرر، ج١، ص١٤٦.

٣ - N. Hanna, Habiter, p. 50; Constructions Work in Ottomane Cairo (1517-1798), Cairo, IFAO, 1984, pp. 36-7.

٤ - J. Revault, L'Architecture domestique au Caire à l'époque ottomanee (XVI^e-XVIII^e siècles), in Palais et maisons du Caire, II- Epoque ottomanee, Paris, 1983, pp. 259-267.

مجموعة من الأعمال الخشبية الهامة والمشربيات، هذه القاعة المشيدة سنة ١١٦٨هـ/ ١٧٥٥م تمثل نموذجاً هاماً لفن الزخرفة الخشبية في القرن ١٨م[١].

أما بالنسبة لبيت المرادي فقد كان يحتوي على حمام ومدفن خاص وألحقت به أيضاً مدرسة ومسجد ودار إفتاء ومكتبة وبلغت المساحة التي احتلها ٢٥٠٠م[٢]، وقد كانت فيه قاعات مزخرفة بالخشب المدهون والرخام.

إن التنوع في الوظائف في بيت المرادي يحدونا إلى تذكر بحث نلي حنا الذي وصفت فيه كيف انعكس التغير السياسي وبروز الأعيان في القرن ١٨م على تغير بنية القصور ودخول وظائف جديدة إليها، وكيف أن الأعيان قد فتحوا بيوتهم للناس لحل مشكلاتهم[٢]. فقد قصد الناس شيوخ أسرة المرادي في دار الإفتاء الملحقة ببيتهم لاستفتائهم في أمورهم وقضاياهم.

كما استقطب قصر المرادي وسمحت الإمكانات المتاحة فيه باستضافة شخصيات هامة وعلماء بارزين لفترات طويلة، مما عزز مركز هذه الأسرة على الصعيد المحلي والإسلامي بشكل عام. فقد أمضى الشيخ اليمني السيد عبد الرحمن العيدروسي فترة في دمشق بقي فيها نزيلاً في قصر المرادي، "وأقبلت عليه الأفاضل والعلماء والسادات .. وحصلت المطارحات والمساجلات البديعة"[٣]. كذلك فقد أمضى الشيخ المغربي محمد التفلاتي مدةً في دمشق نزيلاً في دار المرادي بعد أن أقام فترة في القدس[٤].

---

١ - B. Maury, Palais et maisons du Caire du XIV^{e} au XVIII^{e} siècle, IV, Cairo, IFAO, 1983, pp. 67-98.

٢ - نللي حنا: التغير، ص٨٦-٨٧.

٣ - المرادي: سلك الدرر، ج١، ص٢٢٣.

٤ - نفسه، ج١، ص٢٢٦.

وقد انعقدت الكثير من أسباب القوة والنفوذ لبعض أعضاء أسرة المرادي مثل الشيخ حسين المرادي (المتوفى سنة ١٧٥٠م) الذي كان مفتي الحنفية بدمشق، "وانعقدت عليه رياسة دمشق وكان هو المرجع والمقصد في أمورها وتنظيم قراها وبلادها وسياسة رعاياها". وقد أرسل له السلطان ألف دينار تقديراً لدوره ومركزه السياسي الهام[١].

ولعل من أهم الدوافع التي حدت بالسادات والمرادي أن يقيما خارج المدينة، الخضرة والماء والأراضي الواسعة، التي تسمح ببناء قصور فسيحة متعددة الوظائف تمكن من استضافة جمع غفير من الناس في المناسبات الخاصة كالمولد مثلاً، فقد ذكر مؤرخ العائلة محمد خليل المرادي كيف أنه كان يقام المولد في كل سنة في هذه الدار وكيف يجتمع عندهم في هذه المناسبة حاكم دمشق والقاضي وجميع الأعيان والعلماء وجمع غفير من الناس[٢]. ومن جهة أخرى، دفعت المدينة باكتظاظها وتزايد الفعاليات الاقتصادية فيها هؤلاء الأعيان إلى اعتزال السكنى مع العامة والاصطفاء عنهم. فمثلاً كان طاهر بن عبد الله المرادي "لا يخرج من دار الحرم إلا قليلاً مشتغلاً بحاله عن غيره"[٣]. كذلك فإن الاكتفاء الذاتي في القصور والاصطفاء عن الناس رواها الجبرتي عن الشيخ السادات الذي ذكر أن سبب سكنه عند بركة الفيل يعود لعدم رغبته في الاختلاط مع العامة[٤].

---

١ - نفسه، ج٢، ص٧٠.

٢ - نفسه، ج١، ص٢٢٦.

٣ - نفسه، ج١، ص٢١٨.

٤ - الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، بدون تاريخ، ج٣، ص٤٢٧؛ نللي حنا: التغير، ص٨٥.

إن توضع بيوت الأعيان في سويقة صاروجا بدمشق وعند بركة الفيل في القاهرة، يخالف ما هو متعارف عليه من أن بيوت الأعيان تقع داخل المدينة قرب جامعها الكبير. وقد لاحظ أندريه ريمون بالنسبة للقاهرة أنه خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٦٥٠-١٧٥٥م تراجع عدد البيوت الغنية الواقعة ضمن المدينة القديمة، وذلك لحساب بركة الفيل التي أصبحت خلال هذه الفترة المنطقة المفضلة للطبقة الغنية، وقد بنى معظم سناجق القاهرة بيوتهم فيها. وقد ظلت بركة الفيل مكاناً خاصاً لسكنى الأعيان حتى أواخر القرن ١٨م، حيث بدأت بركة الأزبكية تنافسها بشدة[١]. ويمكن أن يفسر التغير الجغرافي لسكنى الأعيان واتجاههم نحو بركة الفيل وبركة الأزبكية، بالتغيرات السياسية التي طرأت خلال هذه الفترة وضعف سلطة الباشا وبروز الأعيان[٢].

لقد ساهم قصر المرادي وقصر السادات في تطور وتغير البنية العمرانية لسويقة صاروجا بدمشق وبركة الفيل في القاهرة، نظراً للمساحة الواسعة التي شغلاها من جهة، ولإسهامهما في تغيير البنية التحتية للمنطقتين، وشكلتا عملية تخطيط عمراني[٣]. فقد أخذ الزقاق المؤدي لبيت المرادي اسم زقاق بني المرادي أو اسم حارة المفتي، وفي القاهرة ما زالت الحارة التي يُدخل منها إلى منزل السادات تحمل هذا الاسم.

* * *

لقد كان القرن ١٨م قرن سيطرة الأعيان في المدينة، ورغم أن الفئة العسكرية قد احتكرت النصيب الأعظم من الثروة والأملاك والنفوذ، إلا أن فئة العلماء

---

١ - A. Raymond, Essai de géographie des quartiers de résidences aristocratiques au Caire au XVIII^e siècle, JESHO, 6, 1963, pp. 72-73, 83,.90.

٢ - A. Raymond, op. cit, p.85 ;

عبد الرزاق معاذ: سويقة صاروجا والأزبكية: مقارنة بين حيين غنيين في دمشق والقاهرة خلال العهد العثماني (ق١٦م – ق١٨م) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج٥٧، ص١٢٥.

٣ - Abd al-Razzaq Moaz, The Urban Fabric of an Extra-mural Quarter of Damascus during the 19th Century, Syrian Land (Bilad al-Sham) in the 18th and 19th Century, organized by Thomas Philip, Erlagen, July 1995, published in 1997.

استطاعت أن تصنع لنفسها مكاناً هاماً في المجتمع ذلك الوقت، وبلغ أشخاص مثل الشيخ السادات وشيوخ من آل المرادي مبلغاً عظيماً من النفوذ في المدينة وأصبحوا أحد أهم رجالاتها، وعزز مكانتهم كونهم من الأشراف، وشيوخاً لطرق صوفية بارزة كالنقشبندية والوفائية.

كذلك فقد عكست القصور والمجموعات المعمارية التي أنشأها هؤلاء العلماء، مدى الثروة التي ملكوها ومدى الدور الذي لعبوه في المدينة من خلال الوظائف المتعددة التي حوتها قصورهم. كذلك فقد ساهمت هذه القصور في عملية التخطيط العمراني لمناطق معينة، وساهموا بدورهم في طرح بدعة السكنى في تلك المناطق كسويقة صاروجا وبركة الفيل، مما دفع نظرائهم والأقل منهم للحاق بهم والسكنى بقربهم.

لقد كان للعلماء دور كبير في التاريخ الإسلامي فاق في بعض الأحيان دور الحكام في تأثيره على الناس، وإذا كان مؤرخ أسرة المرادي محمد خليل قد خلّد دور أفراد عائلته في تراجمه، فإن كتب الأدب والتصوف لم تغفل ذكر الشيخ السادات بل بالغت في تمجيده، وتفاخر من خلفه وتبعه بهذا الشرف.

وهكذا نرى كيف ساهمت الوثائق التاريخية المكتوبة والآثار المعمارية المرئية معاً في تقديم صورة لعالمين جسّدا بأهميتهما بروز الأعيان والعلماء في دمشق والقاهرة خلال القرن ١٨م.

سبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين

دراسة جديدة من خلال بعض الوثائق المملوكية

د. محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح
جامعة الإسكندرية

كان لاستبدال السلطان الظاهر بيبرس[١] لمباني الفاطميين بمدينة القاهرة لصالح بيت المال سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م[٢] أكبر الأثر في إعادة بناء مدينة القاهرة وسرعة الحركة العمرانية في القرنين ٧ و٨هـ/١٣ و١٤م، فقد وجدنا السلطان المنصور قلاوون[٣] يبني مجموعته المعمارية المكونة من مدرسة وقبة وبيمارستان ومكتب لتعليم الأيتام (أثر رقم ٤٣) ويبني مبان أخرى أوقفت للصرف على تلك المجموعة من حمامات ووكالات وقياسر[٤]، ومنها القيسارية التي نحن بصددها، كما كان لنظام الوقف واستبدال الأوقاف خلال العصرين المملوكي والعثماني أكبر الأثر في إعادة بناء المباني الموقوفة وغيرها حتى وصلت إلينا مباني ترجع إلى عصور مختلفة نتيجة لتداولها

---

١ - حكم من سنة ٦٦٠-٦٧٧هـ/٦٠-١٢٧٧م.

٢ - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، بولاق ١٨٥٤م، ج١، ص٣٨٤-٣٨٥ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: إدارة الأوقاف في العصر المملوكي، تحت النشر.

٣ - حكم من سنة ٦٧٧-٦٩٠هـ/٧٩-١٢٩٠م.

٤ - ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م: تاريخ ابن الفرات، مج٧، حققه وضبط نصه قسطنطين زريق، بيروت ١٩٤٢م، ص٢٧٨ ؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت سنة ٧٣٣هـ/١٣٣١م: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، تحقيق الباز العريني، مراجعة عبد العزيز الأهواني، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٠٥-١١٣ ؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١-٢ (٦ أقسام) تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧-١٩٧٢م ؛ ج٣-٤ (٦أقسام) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠-١٩٧٢م، ج١، ق٣، ص٩٩٨.

بين الواقفين في عصور مختلفة[١]. ونتناول في هذا البحث قيسارية للسلطان قلاوون ترجع إلى القرن ٧هـ/١٣م، ثم أعيد بنائها على يد السلطان برسباي في القرن ٩هـ/١٥م، ثم أخذها عبد الرحمن كتخدا القازدغلي وأعاد استخدامها في القرن ١٢هـ/١٨م[٢].

أولاً: المبنى في عصر السلطان المنصور قلاوون

بنى السلطان المنصور قلاوون قيسارية بشارع بين القصرين[٣] (المعز لدين الله حالياً)، وقد ذكر المقريزي أنها "سوقاً يعرف أخيراً بالوزازين والدجاجين، يباع فيه الأوز والدجاج والعصافير وغير ذلك من الطيور، وأدركناه عامراً سوقاً كبيراً، ومن جملته دكان لا يباع فيها غير العصافير فيشتريها الصغار للعب بها، وفي هذا السوق يمنة السالك قيسارية يعلوها ربع، كانت مدة سوقاً يباع فيه الكتب، ثم صارت لعمل الجلود، وكانت من جملة أوقاف المارستان المنصوري، فهدمها بعض من كان يتحدث

---

١ – أنظر عن الوقف في العصر العثماني: قانون نامه مصر، ترجمه وقدم له وعلق عليه أحمد فؤاد متولي، القاهرة سنة ١٩٨٦، ص٧-١٠، ٩٠-٩١، حسين أفندي الروزنامجي: ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، تحقيق محمد شفيق غربال، تحت أسم "مصر عند مفترق الطرق، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج٤، ج١، مايو ١٩٣٦م، ص٥٨-٥٩ ؛ محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر، القاهرة ١٩٩١م، ص٢٥-٣٠، ١٤٣-١٥٠ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: أهمية الوقفيات العثمانية لدراسة الآثار المملوكية، المؤتمر الدولي الثامن للفن التركي، القاهرة ١٩٨٧م، ص٤٨.

٢ – لمحصص هذا البحث عن مكان سبيل عبد الرحمن كتخدا عبر العصور، وعن السبيل نفسه أنظر:
Andre Raymond, Les Constructions De Le 'Emir' Abd Al-Rahman Kathuda Au Caire, Annales Islamologiques, Tome XI, Du Caire, 1972, p.p.237 ; Andre Raymond, Les Fontaines Publiques (Sabil) Du Caire (1517-1798) Annales Islamologiques, Tome. XV, Du Caire 1979, p.p. 271.
محمود حامد الحسيني: الأسبلة العثمانية الباقية بمدينة القاهرة، القاهرة ١٩٨٨م، ص٢٢٠-٢٢٧ ؛
Doris Behrens-Abouseif, The Abd AL-Rahman Katkhuda Style in 18th Century Cairo, Annales Islamologiques, Tome 26, 1992. pp. 117-126 ; Andre Raymond, Le Caire Des Janissaires, L'apogee de la ville ottomane sous Abd al-Rahman Katkhuda, Paris 1995.

٣ – خط بين القصرين كان في العصر الفاطمي عبارة عن فضاء واسع يقف فيه ما يقرب من ١٠ آلاف جندي من الفرسان والمشاة، ثم صار في العصر الأيوبي سوقاً للمأكولات. المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٨-٢٩.

في نظره عن الأمير أيتمش في سنة إحدى وثمانمائة وعمرها على ما هي عليه الآن"[١]. ثم قال عنها عند حديثه عن سوق الدجاجين "وكان بهذا السوق قيسارية عملت مرة سوقاً للكتبيين، ولها باب من وسط سوق الدجاجين وباب من الشارع الذي يسلك فيه من بين القصرين إلى الركن المخلق، فاتفق أن ولي النظر في المارستان المنصوري عن الأمير الكبير أيتمش النحاسي [البجاسي] الظاهري أمير يعرف بالأمير خضر ابن التنكزية فهدم هذا السوق والقيسارية وما يعلوها، وأنشأ هذه الحوانيت والرباع التي فوقها تجاه ربع الكامل الذي يعلو ما بين درب الخضيري وقبو الخرشتف، فلما كمل أسكن في الحوانيت عدة من الزياتين وغيرهم، وبقي من الدجاجين بهذا السوق بقية قليلة"[٢].

عثرنا بعد ذلك على وصف لهذه القيسارية في وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون[٣]، حيث جاء فيها:

"(س١٥٨) ومن ذلك جميع القيسارية التي بالقاهرة/ المحروسة بين القصرين التي سفلها حوانيت وعلوها مسترقات[٤] وهى على يمنة الطالب/ إلى المدرسة الكاملية[٥] والمدرسة

١
– المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٥. وقد ذكر هذا النص في مسودة الخطط كالآتي "سوق بياعي الأوز والدجاجين الآن، وكان قديماً يعرف بالقماحين والتبانين، فيجد على يسرته ربعاً كبيراً هو جار في أوقاف المارستان المنصوري، وكان مكانه قيسارية يعلوها ربع، وكانت هذه القيسارية هى سوق الكتب في وقتٍ". المقريزي: مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، حققها وكتب مقدمتها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد، لندن سنة ١٩٩٥م، ص٣٤١-٣٤٢.

٢
– المقريزي: الخطط، ج٢، ص٩٦.

٣
– وثيقة رقم ١٠١٠-أوقاف، بتاريخ ١٢ صفر سنة ٦٨٥هـ/٩ إبريل ١٢٨٦م.

٤
– **مسترقة** عبارة عن خزانة بين أدوار المبنى، وتسمى الآن بالدور المسروق، وتوجد في الغالب فوق الحوانيت أو المخازن. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص١٠٥-١٠٦.

٥
– **المدرسة الكاملية** هى دار الحديث التي بناها السلطان الكامل محمد بن العادل سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م أثر رقم ٤٢٨، المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٧٥.

المنصورية[١] والظاهرية[٢] والصالحية[٣] وفنادق/ الطواشي شمس الخواص مسرور[٤] رحمه الله وغير ذلك من الطرق والأماكن/ وعلى يسرة السالك من هذه الأماكن المذكورة طالباً رحبة باب العيد[٥]/ والخانقاة[٦] وباب النصر[٧] والطرق المتفرقة وغير ذلك وتشتمل على خمسة أبواب/ منها أربعة يتوصل من كل منها إلى باطن القيسارية المذكورة تشتمل على حوانيت[٨]/ فيها في الحد القبلي منها سبع عشرة حانوتاً يغلق [على] كل منها

---

١ – **المدرسة المنصورية** بناها السلطان المنصور قلاوون سنة ٨٣-٦٨٤هـ/٨٤-١٢٨٥م وألحق بها بيمارستان وقبة، أثر رقم ٤٣. النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٠٥-١١٣ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٩٧-٩٩٨ ؛ الخطط، ج٢، ص٣٧٩-٣٨٠.

٢ – **المدرسة الظاهرية** بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٠-٦٦٢هـ/٦٢-١٢٦٣م وألحق بها سبيلاً وكتاباً، أزيل معظمها عند فتح شارع بيت القاضي في القرن الماضي، أثر رقم ٣٧. ابن عبد الظاهر، القاضي محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان السعدي المصري، ت سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض-بيروت ١٩٧٦م، ص٩٠ ؛ الدواداري، لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك، ت بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ المسمى "الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية"، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص١٠٣؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٧٨.

٣ – **المدرسة الصالحية** أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٠م، أثر رقم ٣٨. المقريزي: الخطط، ج، ٢، ص٣٧٤.

٤ – **فندق (خان) مسرور** كان الفندق الكبير بشارع المعز لدين الله أمام جامع الشيخ مطهر، أما الصغير فمكانه الآن وكالة بلوية بنت شاهين بحارة خان الخليلي (أثر رقم ٦١٥). المقريزي: الخطط، ج٢، ص٩١، ٣٧٨.

٥ – **رحبة باب العيد** موقعها بشارع الجمالية عند مدرسة جمال الدين الاستادار (أثر رقم٣٥) ووكالة ذو الفقار بيك (أثر رقم١٧، ١٩). المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٧ ؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، ٢٠ جزء، طبعة أولى، بولاق ١٣٠٤-١٣٠٦هـ، ج٢، ص١٥ ؛

Mohammed Husam EL-Din Ismail Abd EL-Fatah & Suhayr Salih ,A Wikala Of Sultan Muayyid, Wikalat Uda Pasha, Annals Islamic, Volume 28, French Scientific Institute for Oriental Antiquities in Cairo, Cairo year 1994, p.p. 72, 74.

٦ – يقصد هنا خانقاة سعيد السعداء.

٧ – أثر رقم ٧.

٨ – **حوانيت** توجد الحوانيت غالباً أسفل المباني، وقد تكون مبنى قائم بذاته، وتستخدم لخزن وعرض وبيع مختلف السلع والبضائع، وتشتمل عادة على مسطبة وداخل ودراريب، وترتفع أرضية الحانوت عن مستوى أرضية الشارع بمقدار متر تقريباً، وتمتد مسطبة الحانوت خارج إغلاق الحانوت نفسه، وتستخدم لعرض البضائع. محمد محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٩٠م، ص٣٢.

دراريب[١] تعلوها شرفة[٢]/ ومنبل[٣] وبينها باب من أبواب القيسارية المذكورة وفي الحد البحري منها/ ثمان عشرة حانوتاً كل منها بدراريب وشرفة ومنبل وبينهما باب من أبواب القيسارية/ ومقعد[٤] وفي الحد الشرقي منها أربع حوانيت يغلق على كل منها/ باب [وبينهم باب] من أبواب القيسارية المذكورة والباب الخامس المتوصل منه إلى/ أعالي هذه القيسارية وفي الحد الغربي منها حانوتان بينهما باب من أبواب القيسارية/ المذكورة وبباطن هذه القيسارية المذكورة حوانيت عدتها ستة وثلاثون حانوتاً كل/ منها بمنبل وشرفة وزوج أبواب والباذاهنجات[٥] علو القيسارية/ المذكورة ويحيط بذلك ويحصره حدود أربعة الحد القبلي ينتهي إلى الطريق/ العظمى الفاصلة بين هذه القيسارية وبين الربع المظفري[٦] الوقف/ والحد البحري ينتهي إلى الطريق الفاصلة بينها

---

[١] – **دراريب** جمع درابة، وهى أحد مصراعي الباب الذي ينطبق أحدهما على الآخر، وهو نوع من الأبواب الخشبية التي تستخدم كتندة أيضاً وتغلق على الحوانيت. عبد اللطيف إبراهيم: سلسلة الدراسات الوثائقية، (١) الوثائق في خدمة الآثار "العصر المملوكي"، دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٩م، ص٤٠٧.

[٢] – **شرفة** جمعها شرفات وشراريف، وهى نهاية الشيء أو حفته، وتكون من الحجر أو الخشب أو المعدن. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار، ص٤٦٢.

[٣] – **منبل** جمعها "منابل"، ويقصد بها الكتلة من الرخام التي تستعمل كعتب سفلي للشباك في الأسبلة بالذات. ويقصد بها هنا الحلق الخشبي الدائر حول الأبواب أو الشبابيك أو القمريات، وهو من مصطلحات الصناع في العصر المملوكي. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار، ص٤٦٦ ؛ محمد أمين وليلى علي إبراهيم: المصطلحات، ص١١٦-١١٧.

[٤] – **مقعد** هو مكان الجلوس، ويستخدم اللفظ في الوثائق للدلالة على وحدة معمارية تخصص لجلوس الرجال، ويكون المقعد غالباً داخل المبنى بأول دور يصعد إليه، وله قناطر مفتوحة، ويطل على حوش أو جنينة. محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات، ص١١٢. هذا التفسير بالنسبة لهذه الوحدة في المباني السكنية، أما في المباني التجارية فتطلق على الحوانيت صغيرة الحجم التي تتخلل الواجهات -سواء للمباني التجارية أو غيرها- أو تكون بصحن القيسارية كما في مجموعة السلطان قلاوون بين القصرين وغيرها من مبانيه. أنظر: محمد حسام الدين إسماعيل خان الخليلي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، تحت الطبع، الملاحق.

[٥] – **باذاهنج** كلمة فارسية تعني منفذ التهوية. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار، ص٤٠٤-٤٠٥.

[٦] – **الربع المظفري** يبدو أنه قد حل محله فيما بعد قصر الأمير سلار. أنظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٥.

وبين الربع الكاملي[١] الوقف/ على المدرسة الكاملية والحد الشرقي ينتهي إلى الطريق الفاصلة/ بينها وبين الدهيشة[٢] والمسجد الأرضي[٣] الذي هناك والحد الغربي ينتهي إلى/ فضاء بين القصرين ..".

أي أن هذه القيسارية كانت عبارة عن شكل مستطيل، الضلعين الشرقي (القبلي) والغربي (البحري) أطول من الضلعين الشمالي (الشرقي) والجنوبي (الغربي)، وانه كان لها أربعة أبواب رئيسية يتوصل منها إلى الحوش الداخلي المغطى بسقف يتخلله ملاقف، كما كان لها باب أخر في الضلع الشمالي يتوصل منه إلى الأدوار العليا التي بها الربع، والتي لم يحددها كاتب الوثيقة بل أطلق عليها لفظ "مسترقات"، إشارة إلى أنها غرف صغيرة وليست "طباق" بالمعنى المتعارف عليه. ثم يذكر الحوانيت الخارجية بالواجهات أنها ١٧ في الجهة الشرقية، و١٨ ومقعد بالجهة الغربية، و٤ في الجهة الشمالية، و٢ في الجهة الجنوبية، كما ذكرت الوثيقة انه كان بداخلها ٣٦ حانوت.

ثانياً: المبنى في عصر السلطان الأشرف برسباي

جاء بعد ذلك السلطان الأشرف برسباي[٤] ووجد هذا المبنى -"ربع الحلزون تجاه قبو الخرنفش" كما كان يسمى في عصره- موقوفاً على "فكاك الأسرى ببلاد

---

١ - **الربع الكاملي** هو الربع الذي وقفه الملك الكامل على دار الحديث التي بناها بشارع المعز وسمي وقتها بالربع الجديد. ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حققه وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٦م، ص٨٦ ؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٥.

٢ - **الدهيشة** كانت عبارة عن ربع موقوف على المارستان المنصوري إلى الشمال من هذه القيسارية، جدده الأمير أيتمش البجاسي في أواخر القرن ٨هـ/١٤م. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٢م، ج٢، ص٩٦.

٣ - **المسجد الأرضي** يبدو أنه المسجد المستخدم لصلاة القاطنين في الأسواق والرباع في هذه المنطقة، و لم يرد عنه اي ذكر في كتب الخطط. ولا زال هناك مسجد يطلق عليه نفس الاسم بالإسكندرية بمنطقة سوق الفضة.

٤ - حكم من سنة ٢٥-٨٤٢هـ/٢١-١٤٣٨م.

الفرنج" وعلى "الحرمين"، وقد تشعث على مر السنين فجدده، وأخذه عن طريق الاستبدال[١] .

جاء هذا المكان كذلك في وثيقة وقف السلطان الأشرف برسباي[٢] كالآتي:

"(ص٩٩ س٥) وجميع المكان الكائن بالخط المذكور على يسرة/ من سلك طالباً الركن المخلق[٣] الكامل أرضاً وبناء المشتمل/ على ثلاث واجهات كلها مبنية بالحجر الفص النحيت[٤]/ فالأولى بها سبعة أبواب من الجهة القبلية شارعة/ بالشارع المذكور منها ستة مربعة يدخل من كل منها/ إلى حانوت بمرافق وحقوق ومسطبة ودراريب/ والسابع عليه فردة باب يدخل منه إلى مجاز[٥] (ص١٠٠) مسقف نقياً بصدره سلم معقود بالبلاط يصعد/ من عليه إلى طبقة[٦] صغرى مطلة على الباب المذكور/ برسم

---

١ - المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ق٢، ص٦٦٥.

٢ - وثيقة رقم ١٧٣-دار الوثائق، بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ٨٤٦هـ/٢٦ يناير ١٤٤٣م.

٣ - **الركن المخلق** سمي بذلك لظهور حجر في ذي الحجة سنة ٦٦٠هـ/أكتوبر ١٢٦٢م مكتوب عليه "هذا مسجد موسى عليه السلام" فدُهن بالزعفران وسمي بالركن المخلق. العيني، بدر الدين محمود، ت سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة سنة م، ص٣٣٣.

٤ - **حجر فص نحيت** هو أجود الحجر بعد تسوية جوانبه، والمقصود أن الحجر من النوع الجيد، وأن الحجار قام بتهذيبه وتنظيفه ونحته نحتاً منتظماً حتى جعله أملساً مصقولاً كفصوص الجواهر. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٣٣، ٨٦.

٥ - **المجاز** الطريق إذا قطع من أحد جانبيه إلى الآخر. ويقصد به في العمارة ممر يسلك منه من مكان إلى مكان، وقد يكون مسقفاً أو كشفاً. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٩٩.

٦ - **طبقة** الطبق الحال، والمطابقة والتطابق الاتفاق، وطباق الأرض بأعلاها طبقات الناس مراتبهم، وتسمي العوام بمصر البناء المرتفع طبقة. وهي تتكون غالباً من حجرة أو خزانة أو حجرتين للنوم، توجد بها طاقات للتهوية والإضاءة، وقد يعلو الخزانة مسترقة (مسروقة)، وبالطبقة عادة دهليز به بيت أزار (مزيرة) ومرحاض، وغالباً ما كانت تنكس بالبياض وتسقف نقياً. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة سنة ١٩٥٦م، ج٢، ص١٥ ؛ عبد اللطيف إبراهيم: سلسلة الوثائق التاريخية، مجموعة الوثائق المملوكية، (١) وثيقة الأمير آخور قراقجا الحسني، دراسة ونشر وتحقيق، مجلة كلية الآداب، مج ١٨، ج٢، ديسمبر سنة ١٩٥٦م، ص٢٢٩ ؛ محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٧٥.

الربعية ثم يتوصل من بقية السلم المذكور/ إلى دور أول به خمسة أبواب مربعة يغلق على/ كل منها فردة باب يدخل من اثنين منها إلى طبقتين/ مطلتين على الشارع المسلوك منه إلى باب/ الخرشتف[١] من الجهة البحرية ويدخل من اثنين منها/ إلى طبقتين مطلتين على القفاصين[٢] ويدخل من/ الباب الخامس إلى أغاني[٣] علو حانوت الفقاعي[٤] الآتي/ ذكره فيه ثم يتوصل من بقية السلم المذكور/ إلى دور ثاني به خمسة أبواب يدخل من اثنين (ص١٠١) من اثنين منهما إلى طبقتين على الشارع المتوصل/ منه إلى الخرشتف ويتوصل من اثنين منها إلى طبقتين/ مطاتين على القفاصين ويدخل من الخامس إلى رواق[٥]/ علو الأغاني المذكور كل ذلك بمنافع وحقوق/ والواجهة الثانية بها ستة حوانيت متجاورة/ من الجهة البحرية يشتمل كل منها على مصطبة مفروشة/ بالبلاط وداخل ودراريب ومنافع وحقوق/ والواجهة الثالثة بها حانوت الفقاعي

---

١ – **الخرشتف** كلمة تعني ما يتحجر من الوقود الذي يستخدم في الحمامات، والمقصود هنا خط الخرشتف الذي يبدأ من شارع المعز ويمتد إلى شارع خان أبو طاقية وحارة اليهود. أنظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٧.

٢ – **القفاصين** هو سوق القفاصين الذي كان يبدأ من شارع المعز في اتجاه شارع التمبكشية. أنظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٦.

٣ – **أغاني** عبارة عن ممرات علوية ذات مقاعد خلف نوع من المشربيات الخشب الخرط تحجب الجالس خلفها، وتطل على القاعات، كما كانت تطل على الشوارع (كما نرى في هذا المبنى) أو الحدائق، وقد تشتمل على حجرات ملحق بها مرحاض. عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسني، ص٢٣٢.

٤ – **الفقاعي** هو شراب حب الرمان مع العسل، وماء الشعير، وماء الزبيب. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، ٦٤٨هـ/١٢٥٠م – ٧٢٩هـ/١٣٢٩م: كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، القاهرة ١٩٧٦م، ص١٩٧-١٩٨ ؛ البكري، محمد بن أبي السرور الصديق الشافعي، ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق السيد إبراهيم سالم، راجعه وقدم له إبراهيم الإبياري، القاهرة ١٩٦٢م، ص١٠٠.

٥ – **رواق** روق البيت، ورواقه مقدمه، وقيل الشقة التي دون العليا، وقد يطلق الرواق على البيت نفسه، ويختلف معنى الرواق في المسجد عن الرواق في الدار، ففي المساجد يطلق لفظ رواق وأروقة على المسطحات المسقفة التي بين الأعمدة، وفي الدور يعني الرواق وحدة سكنية أو جزء من الوحدة السكنية، وهو أهم جزء في عمارة البيت الإسلامي، ويتكون من إيوان أو إيوانين بينهما دورقاعة – مسقفة غالباً وقد تكون سماوية- وما يلحق بذلك من منافع ومرافق، كالخزانات النومية وخزانة الكسوة والمطبخ والمرحاض، وكان الرواق يسقف بالخشب النقي المدهون، ويفرش بالبلاط أو بالرخام الملون، وتسبل جدره بالملاط. عبد اللطيف إبراهيم: وثائق من عصر الغوري، ص١٤ ؛ عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير قراقجا الحسني، ص٢٣١ ؛ محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٥٧.

الموعود/ بذكره يشتمل على مسطبة مفروشة الأرض بالرخام/ الملون بها صحن مرخم بفوار ماء يجاوره شادروان[١] / يكتنفه عمودان رخاماً زرزورياً[٢] يعلوه طـرة[٣] (ص١٠٢) مرخمة يعلوها رفرف مرخم وإلى جانب هذا الشادروان/ من الجهة الشـرقية شـادروان ثاني مرخم به فوار/ يعلوا ذلك كله سقف مدهون بسطاً[٤] مذهب محمول/ مـن الجهـة البحرية على عمود رخام وعلى الواجهة/ القبليـة المبـدأ بذكرهـا وبالمسـطبة المذكـورة من/ الجهة الشرقية باب مربـع مبـني بـالحجر الفـص النحيـت يغلـق/ عليـة فـردة بـاب مدهون موشق[٥] يدخل منه إلى الحانوت/ المذكور به سلم مبني بالحجر الفـص النحيت يصعد من/ عليه إلى ثخانة[٦] بها شباك نحاساً أصفر مطل على/ المسطبة المذكورة ويحيط بذلك حدود أربعة/ الحد القبلي ينتهـي إلى شـارع القفـاصين (ص١٠٣) وفيـه أبـواب الحوانيت الأول وباب الربع والحد/ البحري ينتهي إلى الشارع المتوصل منـه إلى خـط/

---

[١] - **شادروان** فارسية الأصل تعني السلسبيل، وهو لوح من الرخام يوضع مائل على الحائط بين عامودين من الرخام، ويعلوه جزء آخر من الخشب مزخرف بأشكال المقرنصات، وأسفله في المعتاد حوض من الرخام. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمـة التـاريخ والآثـار، ص٤٠١ ؛ محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات، ص٦٨-٦٩.

[٢] - **رخام زرزوري** الرخام حجر أبيض رخو، ويرى اللغويون أن ما كان منه غير أبيض فهو من أصنـاف الحجـارة وليـس مـن الرخـام، وقد أطلق الصناع عدة صفات وأسماء للرخام تتعلق باللون أو المصدر الآتي منه أو بالاستخدام نفسـه، فمـن الصفـات الدالـة علـى ألـوان الرخام "الزرزوري" تشبيهاً بلون ريش طائر الزرزور أو العصفور، واتخذت منه الأعمدة، ويوجد بالقرب من البلدرشين. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٥٣.

[٣] - **طرة** يقصد بها المدماك البارز من الحجر المنحوت بدوران فوق قبة المحراب، وتعرف الطرة أيضاً باسـم جنزير عقـد "سلسـلة" عنـد المهندسين والمعماريين. عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة قراقجا الحسني، ص٢٢٥-٢٢٦.

[٤] - **سقف مدهون بسط** هو السقف المسطح أو الدمس في مصطلح أرباب التجارة، وتسقف به الايوانات الضيقـة والحجـرات الصغيرة المربعة أو المستطيلة عادة، ويكون من ألواح الخشب المدهون بالألوان، وقـد يوجـد تحتـه إزار صغير ضيـق بـدون قرنصة. عبـد اللطيـف إبراهيم: وثائق من عصر الغوري، ج٢، ص٢٩.

[٥] - **باب مدهون موشق** وشق الشيء في الشيء أي نشبه فيه، ويبدو أن الكاتب يقصد هنا الباب المكون من حشوات خشـبية معشـقة. أنظر: محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص١١٨.

[٦] - **ثخانة** تعني الغلظة والصلابة، وتطلق على الحوائط المقواة أو غليظة البناء التي يوجد بها في الغـالب قصبـات أو مواسـير الميـاه. محمـد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٢٦-٢٧.

الخرشتف وفيه أبواب الحوانيت الثانية والحد/ الشرقي ينتهي إلى الربع المعروف بالدهيشة/ والحد الغربي ينتهي إلى الشارع المسلوك/ وفيه باب حانوت الفقاعي المذكور ..".

نجد هنا أن الوثيقة تحدد أن هذه القيسارية بنيت من الحجر، وإنها كانت عبارة عن نفس الشكل المستطيل السابق، وانه لم يحدث بها أبواب رئيسية، أي أنها ليس لها صحن داخلي، وانه بنى باب واحد في الضلع الشرقي يتوصل منه إلى الأدوار العليا التي بها الربع، والتي تتكون من دور مسروق به طبقة، يعلوه طابقين، يتكون الطابق الأول من طبقتين تطل على شارع التمبكشية وطبقتين تطل على شارع المعز لدين الله، وأغاني في الجهة الجنوبية تطل على شارع المعز، والطابق الثاني بنفس تقسيم الطابق الأول ويعلو الأغاني رواق يمكن أن يكون مستقل لعدم تحديد الوثيقة لذلك. ثم يذكر الحوانيت التي بالواجهات أنها ٦ في الجهة الشرقية، و٦ بالجهة الغربية، وحانوت الفقاعي في الجهة الجنوبية، وهى مفروشة بالرخام وبها شازروانين وحوائطه مكسوة بالرخام، ويفتح بابه بالواجهة الجنوبية.

ومن الوصف الذي نجده هنا لحانوت الفقاعي الذي له مصدر ماء -من المؤكد انه كان صهريج أسفله- لم تحدده الوثيقة، والذي له باب بكامل الواجهة الجنوبية، كما كان يعلوه في نفس الواجهة أغاني، أي واجهة مغشاة بخشب الخرط، مما يسر على الأمير عبد الرحمن كتخدا -الذي تولى تجديد كتاب وقف المارستان المنصوري[1]، وهذا المبنى منها- أخذ هذا الحانوت وما يعلوه لتحويله إلى سبيله وكتابه كما سنرى.

---

[1] - الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق حسن محمد جوهر، عبد الفتاح السرنجاوي، السيد إبراهيم سالم، عمر الدسوقي، ٧ أجزاء، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٧م، ج٣ ، ص١٣٢.

ثالثاً: المبنى في عصر الأمير عبد الرحمن كتخدا

تصف لنا وثيقة وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلي هذا المكان، المؤرخة في غرة رجب سنة ١١٥٩هـ/٢٠ يوليو ١٧٤٦م كالآتي[١]:

(ص٣٦ س٣).. وهو جميع/ الصهريج[٢] المبني تحت تخوم الأرض المعد/ لخزن الماء العذب من النيل المبارك وتسبيله/ على المارين من خلق الله أجمعين الكاين/ ذلك بمصر المحروسة بخط بين القصرين/ برأس قطيا وقطية وسوق الآدمية[٣]/ والدجاجين[٤] فيما بين الثلاث مفارق/ تجاه درب بن خاصبك المعروف الآن/ بدرب قرمز[٥] وتجاه حمام البيسري[٦] المعروف (ص٣٧) ذلك بإنشاء وتجديد مولانا الواقف المشار/ إليه أعلاه ويشتمل ذلك

---

١ – وثيقة رقم ٩٤١-أوقاف.

٢ – **الصهريج** هو المصنع المبني تحت تخوم الأرض لخزن المياه فيه، فكلما فرغ ماء السبيل يملأ منه حتى ينفذ ماؤه على ميعاد ملئه. والصهريج بكسر الصاد، وقيل أن الصهريج سمي صهريجاً نسبة إلى الصاروج، وهى المادة العازلة التي كان يصرج بها أي يطلى بها من الداخل، والصهريج خزان للمياه يبنى بالآجر والخافقي في تخوم الأرض لحفظ المياه، ويغطى عادة بقباب ضحلة غير عميقة، وتغطى فوهة الصهريج بخرزة من الرخام أو الحجر الصلد. علي مبارك: الخطط، ج٦، ص٥٨ ؛ عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير قراقجا الحسني، ص٢٣٤ ؛ محمد أمين وليلى على إبراهيم: المصطلحات، ص٧٣.

٣ – **سوق الآدمية** كان بشارع التمبكشية خلف الجامع الأقمر. أنظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٦.

٤ – **سوق الدجاجين** كان بشارع المعز بين هذا المبنى والربع الكاملي. أنظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٥.

٥ – **درب ابن خاصبك = درب قرمز** وصفه المقريزي دون أسم، ثم ذكره تحت اسم "خط قصر أمير سلاح"، ونسب إلى فاطمة الخاصبكية ابنة علي بن خاص بك زوجة السلطان قايتباي ثم العادل طومان باي، وكانت تملك عدة مباني في منطقة الغورية وخان الخليلي ودرب الحماميز وباب اللوق والحسينية وباب الشعرية وبولاق والحمالية ومصر القديمة، وأطلق عليه هذا الاسم فيما يبدو في نهاية العصر المملوكي وبداية العثماني لوجود أملاك لخوند فاطمة وأبيها علي بن خاص بك. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٧٥، ج٢، ص٣٢ ؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٦٤-٦٥ ؛ البكري: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧ جغرافيا، ورقة ١١٣ أ ؛ عوض عوض الإمام: الأصول الوثائقية للوثيقة الجامعة لأوقاف السلطان الغوري والمحفوظة بوزارة الأوقاف، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم الآثار الإسلامية كلية آداب سوهاج جامعة جنوب الوادي، ص٤٦، ٨٩-٩٧، ١٥٢-١٥٨، ١٦٢-١٦٤، ١٨١، ١٨٦-١٨٨، ١٩٢-١٩٨، ٢١٢-٢١٤، ٢٩٦، ٣٨٤-٣٨٩، ٤٢٩، حيث نشر وثائق ملكيتها لبعض الأماكن بمدينة القاهرة.

٦ – **حمام البيسري** هو حمام دار الأمير ركن الدين بيسري الشمسي الصالحي النجمي التي بدأ في بنائها سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، ثم أصبح حماماً عاماً مستقلاً. المقريزي: الخطط، ج٢، ص٦٩.

مفصلاً بمكتوب/ الإنشاء الصحيح الشرعي الورق الأوصال/ الملصق المسطر من الباب العالي بمصر/ المؤرخ في عاشر شهر شعبان المكرم سنة/ سبع وخمسين ومائة وألف[١] وإجمالاً/ بالإملاء والمشاهدة على ثلاث واجهات/ أحدهم قبلية برأس سوق الآدميين على/ يسرة السالك طالباً للركن المخلق وغيره/ والواجهة الثانية وهى البحرية برأس سوق/ الدجاجين على يمنة السالك طالباً (ص٣٨) للخرشتف وغيره والواجهة الثالثة وهى/ الغربية بوسط الشارع فيما بين الثلاث/ مفارق تشتمل كل واجهة منهم على سلم/ ثلاث درج مبني بالحجر الأحمر وتبليطة[٢]/ من الحجر الأحمر وبالوعة[٣] تحت تخوم الأرض/ يعلو ذلك ثلاث حرمدانات صغار/ من الرخام الأبيض مركب عليه مكسلة[٤]/ كبرى من الرخام الأبيض برسم وضع طاسات/ تسبيل الماء على المارين يعلوها شباك/ كبير من النحاس الأصفر يعلوه قنطرتان/ من الرخام الأبيض والأسود مصنوع (ص٣٩) دالة في قلب دالة فيما بين القنطرتين وزرة/ ملمع وسطها بالذهب الأحمر وباقيها بالرخام/ الدقي الملون يعلو ذلك واجهة من الحجر/ بمدلات مقرنص مركبين الثلاث واجهات/ المذكورين على عشرة أعمدة شششخانة[٥] بقواعدها/ من الرخام

---

١ – ١٨ سبتمبر سنة ١٧٤٤م.

٢ – تبليطة يقصد هنا البسطة التي بين جزئي السلم التي يقف عليها المترددين للشرب.

٣ – بالوعة هى فتحة صغيرة تكون بوسط المكان (صحن، ميضأة .. الخ) لصرف المياه. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٢٣.

٤ – مكسلة وردت في الوثائق المملوكية باسم "مسطبة"، ثم عبر عنها في (ق ١١-١٢هـ/١٧-١٨م) باسم مكسلة، وعلل ذلك بأنه يتلكو الكسالى عليه، وقد ارتبطت بعمق المدخل، فتصل في المداخل العميقة إلى ٥,٠٠ متر، وتصل في بعضها إلى ٠,٥٠ متر، هذا و لم يزد ارتفاعها في معظم الأحيان عن ١,٠٠ متر، وعرضها غالباً ٠,٥٠ متر. حسن عبد الوهاب: المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، مجلة " المجلة "، عدد ٢٧، مارس سنة ١٩٥٩م، ص٣٣ ؛ محمد سيف النصر أبو الفتوح: مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية، من سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م-٧٨٤هـ/١٣٨٢م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص٥٥.

٥ – أعمدة شششخانة شيش في التركية تعني "محور"، والمقصود هنا الأعمدة الرخام ذات الزخارف الحلزونية التي بالواجهة. طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٢ ؛ محمود الحسيني: الأسبلة العثمانية، ص٣٤٧-٣٤٨.

الأبيض أربعة منهم كبار/ بأربعة أركان الصهريج المذكور وستة/ باقيها وسطاً بداخلهم فيما بين العمدان/ المذكورين أكتاف من الحجر الأحمر ومزملة[١] / بها ثلاث حيضان من الرخام الأبيض/ مفروش أرضها بالرخام الملون مسقفة (ص٤٠) مدهونة حريرياً ملمع سقفها بالذهب الأحمر/ مسبل حيطانها الأربع بألواح القاشاني/ يتوصل إلى المزملة المذكورة من الباب/ الذي بالواجهة القبلية بسوق الآدمية/ مشتمل على باب مربع[٢] بمكسلتين من/ الحجر سفله عتبة من الصوان الأزرق/ يعلوه سكفة[٣] من الرخام الأبيض مكتوب/ عليها تاريخ بالذهب الأحمر يعلو ذلك/ واجهة من الرخام الأبيض والأسود/ ملمع بالذهب الأحمر بجانبها عامودين/ صغيرين من الرخام الشمخانة الأبيض (ص٤١) يعلو ذلك قنطرة بدلات من الحجر المقرنص/ المدهونة والملمعة بالذهب الأحمر يغلق/ على الباب المرقوم فردة باب من الخشب/ الجوز المصفح بصفايح النحاس الأصفر/ يدخل منه إلى فسحة صغيرة مسقفة رومياً[٤]/ مدهونة حريرياً بها ثلاثة أبواب يدخل/ من أحدهم يمنة إلى بيارة الصهريج المرقوم/ مركب على فوهته خرزة[٥] من الرخام الأبيض/ يعلو ذلك حاصل مبني بالخافقي[٦] برسم/ وضع

---

١ - مزملة المزملة جرة يبرد بها الماء، ثم أصبح اللفظ يطلق على الموضع الذي توضع به الجرار أو القدور -أي الأزيار- ليبرد بها ماء الشرب، وقد أطلقت هنا على حجرة التسبيل. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص١٠٤.

٢ - باب مربع هو الباب ذو العتب المستقيم ولا ينتهي بعقد. عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة قراقجا الحسني، ص٢٢٤.

٣ - سكفة من أسكفة، وهي عتبة الباب التي توطأ، وقيل العتبة العليا. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٨٠.

٤ - مسقف رومياً المقصود هنا أن زخارف السقف عن طريق قطع رقيقة تكون أشكال هندسية، ثم زخرفت بزخارف نباتية عن طريق الألوان.

٥ - خرزة هي من فصوص من حجارة، ويقصد بها قطعة مستديرة مجوفة من الرخام غالباً أو من الحجر، توضع على فوهة البئر أو فتحة صهريج المياه المبني في جوف الأرض، وقد يوضع فوقها غطاء من الخشب، وقد تصنع هذه الخرزات خصيصاً للآبار والصهاريج، أو تستخدم بدلاً منها تيجان الأعمدة المفرغة التي تنزع من المباني القديمة. عبد اللطيف إبراهيم: وثائق من عصر الغوري، ج٢، ص١٤ ؛ محمد أمين وليلى علي إبراهيم: المصطلحات، ص٤٠.

الماء به وجريانه في المجاري الرصاص/ يقابل ذلك شباك في العلو برسم النور (ص٤٢) والهوى ويدخل من الباب يسرة إلى مزملة/ السبيل المذكور وجميع المكتب[١] الذي/ علو الصهريج المرقوم المعد لتأديب أطفال/ أيتام المسلمين وتعليمهم كتاب الله المبين/ ابتغاء لوجه الله الكريم المتوصل إليه من/ الباب الثالث الذي بالفسحة المذكورة/ به سلم مركب عليه درابزي من الخشب/ من السفل إلى العلو يصعد من عليه إلى/ بسطة بها باب مربع يغلق عليه فردة/ باب خشباً نقياً[٢] يدخل منه إلى فسحة مسقفة/ نقياً ومزيرة[٣] وكرسي راحة[٤] وباب من الخشب (ص٤٣) يتوصل من باقي السلم إلى بسطة بها باب/ مربع يغلق عليه فردة باب خشب عربي[٥]/ يدخل منه إلى المكتب المذكور يحوي إيواناً/ واحداً وسدلاة دايرة مركب بدوايره/ سبعة أعمدة شششخانة بقواعدها من/ الرخام الأبيض يعلو العمدان المذكورين/ ستة قناطر معقودات بالحجر ورفرفين[٦]/ أحدهما وهو العلوي مركب على القناطر المرقومة/ والرفرف الثاني وهو السفلي

---

٦ - **الخافقي** نوع من المونة مركبة من جير وحمرة وقصرمل، تخلط وتعجن -أي تضرب- وتترك لتخمر، ثم تكسى بها الأسطح وأحواض المياه لأنها عازلة له للرطوبة. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٣٩.

١ - **المكتب** هو الموضع الذي يُعلم فيه الكتابة، روعيت فيه الحاجات التربوية من حيث التهوية والإضاءة وعزلته عن المبنى الملحق به، وكان في الغالب يعلو الأسبلة وله نفس واجهاتها. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة التاريخ الآثار، ص٤٣٩-٤٤١ ؛ محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص١١٥.

٢ - **خشب نقي** أي من الخشب المستورد الجيد. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٦٤.

٣ - **مزيرة** هي المزملة، وهي حجرة يبرد بها الماء، ثم أصبح اللفظ يطلق على الموضع الذي توضع به الجرار أو القدور، أي الأزيار ليبرد بها ماء الشرب. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص١٠٤.

٤ - **كرسي راحة** هي جلسة المرحاض. محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات، ص٩٤-٩٥.

٥ - **فردة باب خشب عربي** يقصد الباب المصنوع من الحشوات الخشبية المجمعة.

٦ - **الرفرف** عبارة عن سقف خشبي خارجي مائل يحمل على كباش أو كرابيل خشبية مثبتة في الحوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام، ويعرف في بعض الأحيان بالمظلة، وهو أحد الحليات المعمارية التي يحمي من إشاعة الشمس والمطر. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة التاريخ الآثار، ص٤١٨-٤١٩.

مركب على خمسة/ عشر قنطرة بعواميد من الخشب ومركب/ بدايره درابزي من الخشب الخرط بطاقات (ص٤٤) مطلات على الثلاث واجهات المذكورة/ مسقف ذلك رومياً مدهون حريرياً/ مفروش أرضه بالبلاط الكدان مكمل/ بالدواليب والرفوف وجميع المطلع/ المتضمن لسكنين أحدهما سفلي والثاني/ علوي الكاين ذلك بالواجهة المرقومة/ التي بسوق الآدمية المذكور المشتمل/ ذلك على سلم درجتين يصعد من عليهما/ إلى باب المطلع المذكور يغلق عليه فردة/ باب خشباً نقياً يدخل منه إلى سلم يصعد/ من عليه إلى فسحة بها باب يتوصل منه (ص٤٥) إلى السكن السفلي يشتمل على باب يدخل منه/ إلى فسحة وكرسي راحة ومطبخ ورواق مطل/ على سوق الآدمية وخزنة نومية[1] يتوصل/ لها من سلم منابري[2] ومنافع ومرافق وحقوق/ ويصعد من باقي السلم المرقوم إلى فسحة بها/ باب يدخل منه إلى السكن العلوي المذكور/ يشتمل على فسحة وكرسي راحة ومطبخ وكلار[3]/ ورواق به خزنة نومية مطلة على سوق/ الآدمية وسلم يصعد من عليه إلى فسحة/ بها أودتين وإلى السطح العالي على ذلك/ مسقف ذلك جميعه نقياً مفروش أرض ذلك (ص٤٦) جميعه بالبلاط الكدان مكمل ذلك بالشبابيك/ والطاقات والرفوف والبخاريات والمشربيات/ مسبل جدر ذلك بالبياض وجميع/ الستة حوانيت التي اثنان منهم بسوق الآدمية/ فيما بين باب الصهريج والمكتب وفيما بين/ مطلع السكنين المذكورين يجاورهما سبيل/ حجر

---

١ - خزنة نومية أي حجرة معدة للنوم، ومنها الشترية قليلة النوافذ. عبد اللطيف إبراهيم: وثائق من عصر الغوري، ج٢، ص٧.

٢ - سلم منابري هو سلم صغير مبني على عقد. عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة قراقجا الحسني، ص٢٣١.

٣ - كلار في التركية "كيلار" من أصل يوناني بمعنى غرفة تخزن فيها حوائج البيت من المواد الغذائية. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٧٩م، ص١٨٠.

مركب به مصاصة من النحاس[١] يتوصل/ له الماء من الصهريج المرقوم والأربعة حوانيت/ الباقية بسوق الدجاجين متلاصقين/ لبعضهم بعضاً مجاورين لأحد واجهات/ الصهريج المرقوم يشتمل كل حانوت منهم (ص٤٧) على مسطبة مبنية بالحجر الفص النحيت الأحمر/ وداخل ورفرف ومنافع وحقوق وما لذلك/ جميعه من المنافع والمرافق والتوابع واللواحق/ والحقوق ويحيط بكامل الصهريج والمكتب/ والستة حوانيت والسكنين ويحصره حدود/ أربعة بالدلالة المذكورة الحد القبلي ينتهي/ إلى سوق الآدمية المذكور وفيه باب الصهريج/ والمكتب والحجر المصاصة وباب مطلع/ السكنين بالواجهة القبلية والحانوتين/ المذكور ذلك بأعاليه والحد البحري ينتهي/ بتمامه إلى سوق الدجاجين تجاه العمارة الآتي (ص٤٨) ذكرها فيه وفيه واجهة المزملة والمكتب/ البحرية والأربعة حوانيت المذكورين أعلاه/ والحد الشرقي ينتهي للربع المعروف قديماً/ بوقف المرحوم السلطان قلاوون على البيمارستان/ المنصوري والآن يعرف بالمصونة هاني/ زوجة الحاج غيطاس الشرايبي والحد/ الغربي ينتهي للشارع الأعظم المعروف/ بين القصرين بوسط الثلاث مفارق/ وفيه واجهة الصهريج والمكتب الغربية/ المذكورة ..".

من خلال وثيقة وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا نجد إن هذا المبنى تحول إلى منشأة اجتماعية –في الأساس، رغم إضافة ٤ حوانيت على الواجهتين الشرقية والغربية يعلوهم طبقتين– بعد إن كان نفس المبنى منشأة تجارية على مدار ستة قرون.

يتضح لنا كذلك ومن وصف حانوت الفقاعي في وثيقة وقف السلطان برسباي، الذي كان من المؤكد إن له صهريج أسفله لإمداده بالمياه، والذي له باب بكامل الواجهة الجنوبية، كما كان يعلوه في نفس الواجهة أغاني، أي واجهة مغشاة

---

[١] – **السبيل المصاصة** من الإضافات التي لحقت بالسبيل العثماني، وهو عبارة عن لوح من الحجر أو الرخام يحتوي على بزبوز أو بزبوزين من النحاس، ومثبت في الواجهة الخارجية للسبيل، وقد أخذ أشكالاً معمارية مختلفة، فنجده قد استقل بأحد واجهات السبيل، كما أخذ مكاناً مجاوراً لشباك التسبيل. محمود الحسيني: الأسبلة العثمانية، ص٧١-٧٥.

بخشب الخرط، أن الأمير عبد الرحمن كتخدا قد أخذ هذا الحانوت وما يعلوه وحوله إلى سبيله وكتابه، وخاصة أن هذا السبيل كان أول منشآته[١]، ويؤكد لنا هذا الرأي إن هذا الأمير جدد مجموعة معمارية كبيرة في هذه المنطقة في وقت قياسي[٢]، كما أن وثيقة عبد الرحمن كتخدا تذكر وقفه للمبنى ولم تتحدث عن بنائه أو تجديده. كما أن موقع هذا المبنى الفريد بتوسطه لقصبة القاهرة وطريق المواكب الرسمية، كان له الأثر الكبير في اختيار عبد الرحمن كتخدا له لتجديده أو إعادة بنائه.

ومع ذلك لا ينفي هذا الترجيح أن سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا الذي نحن بصدده أخذ شكل الطراز العثماني عموماً وطراز عمائر الأمير عبد الرحمن كتخدا على وجه التحديد.

---

١ – نفسه، ج٣، ص١٣٠-١٣١.

٢ – عن مباني الأمير عبد الرحمن كتخدا في هذا المنطقة أنظر: محمد حسام الدين إسماعيل: وثائق حسان الليلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، تحت الطبع.

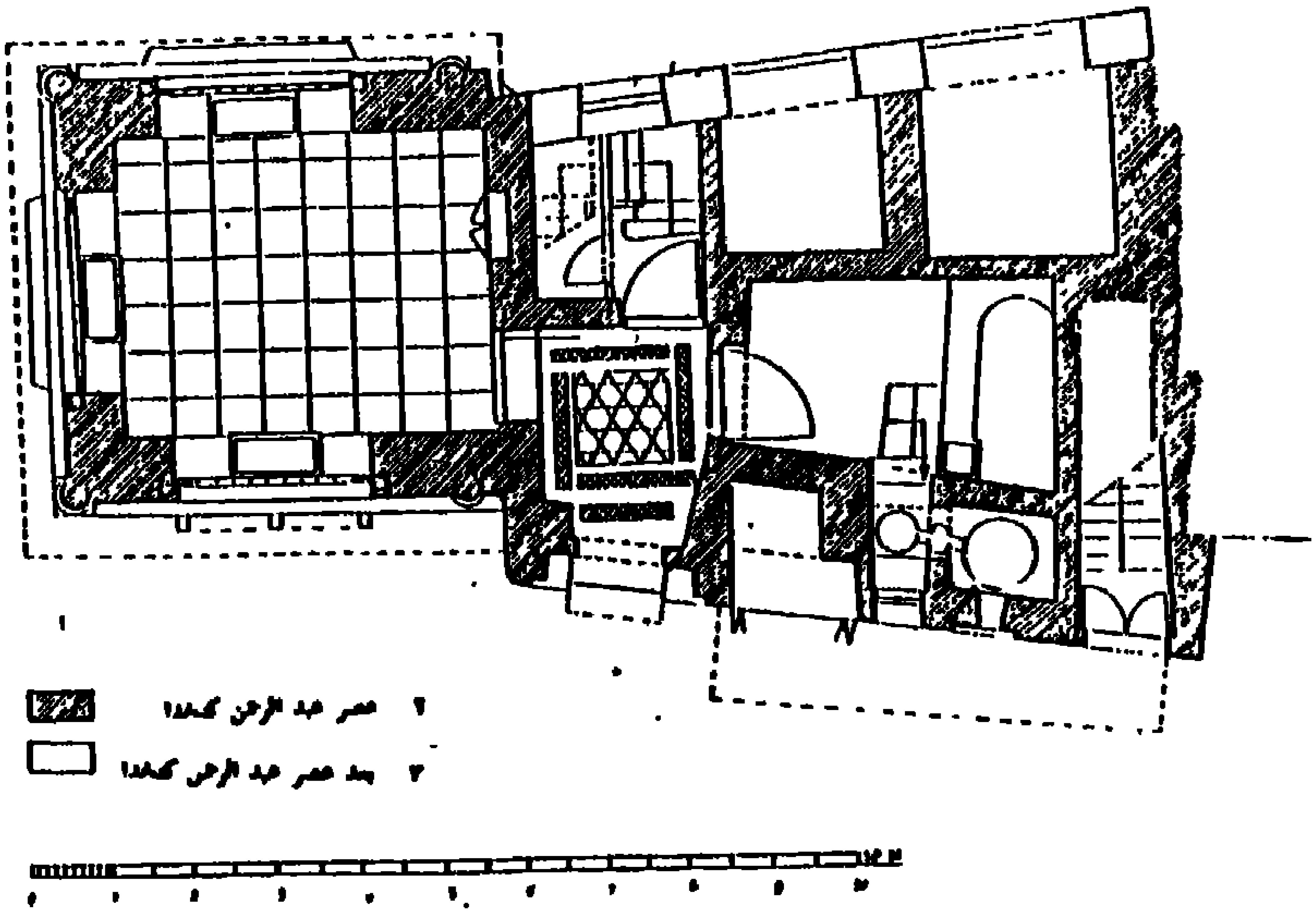

مسقط أفقي لسبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا

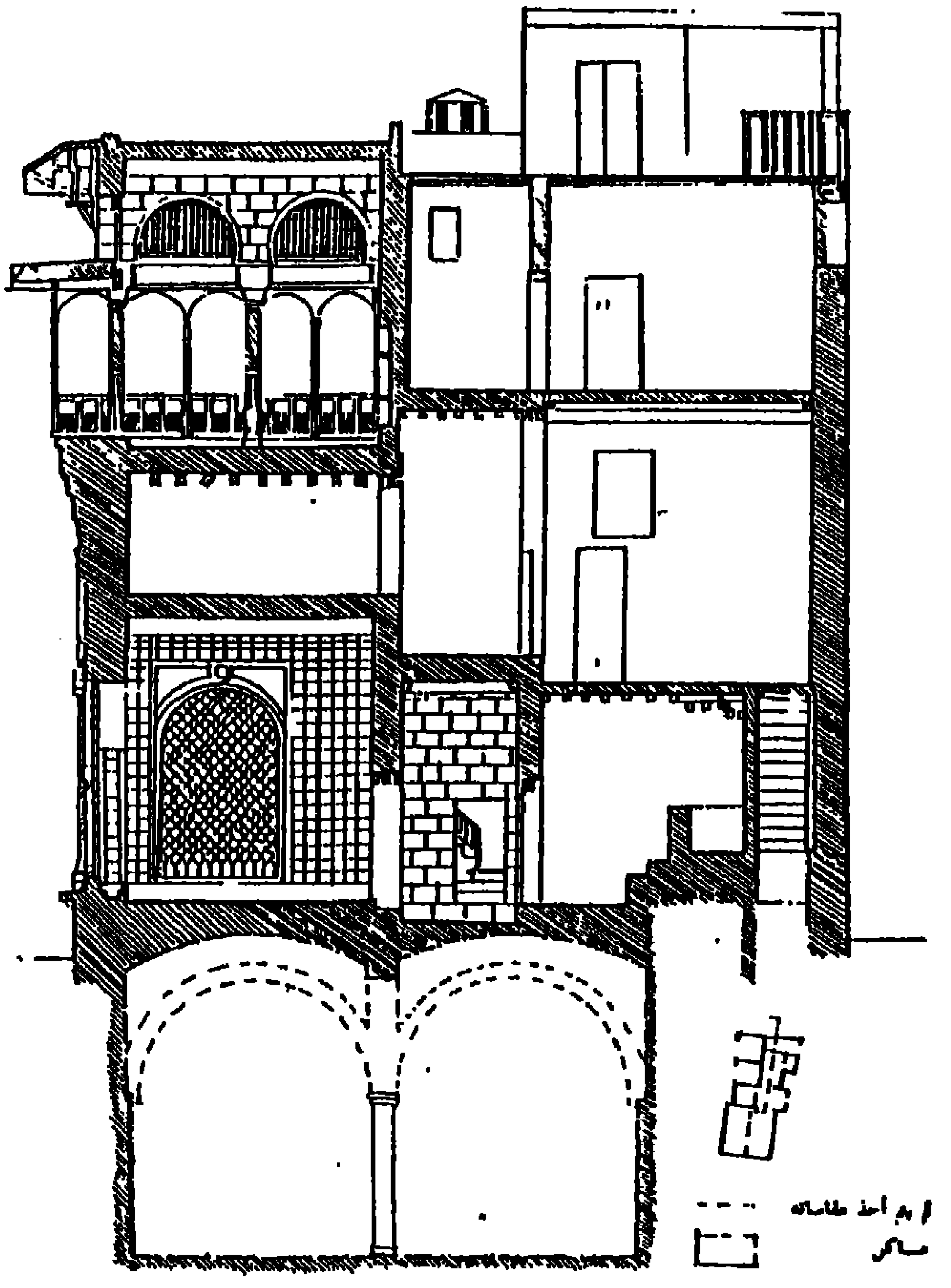

قطاع طولي لسبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا

الأسعار بسوق الفيوم الكبير

في ضوء سجل اشهادات من القرن التاسع عشر

د. محمد محمود على الجهيني

لم تنل دراسة الأسعار داخل أسواق المدن المصرية خلال العصرين المملوكي والعثماني القدر الكاف من اهتمام الباحثين! وربما يرجع ذلك لقلة ما ورد عنها في المصادر المعاصرة[١]، غير انه في عصر الدولة العثمانية بالقاهرة وأقاليمها قد ورد عن التجارة والحرف الكثير من المعلومات دون ذكر للأسعار[٢]، وقد استطعت بتوفيق من الله أن أقف على عدد من سجلات محكمة الفيوم الشرعية خلال القرن ١٩م، تسجل موادها النشاط التجاري والاجتماعي لأهل هذه المدينة في تلك الفترة، وقد وردت بسجل اشهادات صادر عن هذه المحكمة مؤرخ بعامي ١٢٧١-١٢٧٣هـ/ ١٨٥٣-١٨٥٦م[٣] أسعار الكثير من السلع مقترنة باسلوب بيعها وهذا أمراً هاماً في معالجته وتسجيله لتوضيح مجريات الأمور في سوق هامة من أسواق مدننا المصرية خلال القرن ١٩م في ظل حكم سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣م) الذي نشطت التجارة الداخلية في عهده بإزاحة ما كان يعتريها من عقبات متمثلة في ضريبة الدخولية التي كانت سائدة في أيام محمد علي باشا وكان لإلغائها ما ساعد على توسيع مجال المبادلات وزيادة المعاملات، فضلاً عن إلغائه منع تصدير الحبوب من مصر الذي كان

---

[١] – لم يظهر حتى الآن سوى بحث واحد تناول الأسعار الخاصة بالسلع الغذائية مقارنة بالرواتب في عصر دولة المماليك الجراكسة، وقد غطى هذا البحث دراسة عصر هام من عصور مصر المتلاحقة، تبين من خلاله القوة الشرائية للرواتب، والأسباب التي أدت الى ارتفاع أسعار السلع، وهى أمور اقتصادية واجتماعية هامة؛ ترضح القيمة الشرائية للنقود ومسمياتها؛ فضلاً عن نشاط السوق المصرية في ابتياع السلع وكمياتها. لمزيد من التفاصيل أنظر: رأفت النبراوي: الجوامك والأسعار في عصر المماليك الجراكسة، مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود العدد ١٧ سنة ١٩٩٢.

[٢] Andre Raymond; Artisansa et commercents ou Cuire, XVIII Siele, Damas 1973.

[٣] – دار الوثائق القومية سجل اشهادات محكمة الفيوم الشرعية ١٢٧١-١٢٧٣هـ/١٨٥٤-١٨٥٦م.

قد أصدره عباس باشا ١٨٥٢م مما نشط الحركة التجارية في الأسواق الداخلية وانتقلت الأسواق من الركود الذي شهدته زمن الاحتكار إلى النشاط التجاري الحر، و منذ عهد سعيد باشا انتقلت التجارة إلى أيدي الوطنيين لفترة قصيرة استطاعوا أن يحلوا محل التجار الأجانب الذين كانوا قد بدأوا يتوغلون داخل البلاد[١]، فكان هذا الموضوع "الأسعار بسوق الفيوم الكبير"، والواقع أن هذه السوق كانت تحتل قسماً كبيراً من مدينة الفيوم عاصمة ولاية الفيوم[٢]، حيث أشار كتاب وصف مصر إلى انعقادها بهذه المدينة فضلاً عن وصفه لها بأنها سوق هائلة[٣] امتدت على جانبي بحر يوسف الذي يقسم المدينة إلى قسمين حيث كان في كل قسم مجموعة من الحوانيت منذ العصر الأيوبي، ظلت تنمو وتزداد إلى أن سجل حالتها كتاب وصف مصر، وفي القرن ١٩م أشارت وثائق السجل المدون بها أسعار السلع بهذه السوق إلى نشاطها الاقتصادي والاجتماعي الكبير مما يشير إلى استمراريتها منذ العصر الأيوبي وحتى النصف الثاني من القرن ١٩م، وواقع الأمر أن هذه السوق كانت محاطة بعدة قرى وقع عليها إمدادها باحتياجاتها من السلع الريفية، فضلاً عن إمداد الأسواق الريفية التي كانت تعقد أسبوعية بها بما تحتاجه من سلع لا تتوفر داخل القرية والتي كانت ترد إلى داخل هذه السوق عن طريق التجارة الخارجية المتبادلة بين المدينة ومدينة القاهرة التي كانت ترد إليها هذه السلع عن طريق موانيها من البلاد الخارجية.

---

[١] - أحمد الشربيني: تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصاديه ١٨٤٠- ١٩١٤م ، القاهرة ١٩٩٥م، ص٤٨-٤٩، ٦٨-٦٩

[٢] - هى من المدن المصرية القديمة اسمها الديني Per Sebekومعناها دار التمساح لانه كان معبود أهل الفيوم وسماها القبط Piom ومعناها قاعدة بلاد البحيرة، ثم حرف الاسم الى فيوم واضيف اليها اداة التعريف فصارت الفيوم وهو اسمها الحالي. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، قسمان في خمسة أجزاء، القاهرة ١٩٦٠م، ق٢، ج٣، ص٩٦ ؛
Wallis (E.A), The Nile Dates for Arabellers in Egypt 8th E ditions Londoan , 1902 , p 325 ;
جيرار (ب.س): موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ج١ ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٨م ص٢٣٩.

[٣] - جيرار: المرجع نفسه، ص٢٢٩

ومن هذه القرى في الشمال طامية[١] وسنورس[٢]، وجنوباً اطسا[٣]، وفي الشمال الشرقي سنهور[٤].

والسوق الكبير بالفيوم كانت عبارة عن مجموعة من الحوانيت مختلفة الأحجام خصصت لبيع أنواعاً عدة من السلع، حيث أشارت وثائق السجل إلى ذلك والتي يمكن إجمالها في الآتي: غلات زراعية، وسلع غذائية، وسلع استهلاكية، ومواد لازمة للصناعة.

ومن خلال هذه السلع التي كانت تباع داخل هذه السوق يمكن أن تقول أن التكوين العام لها كان عبارة عن حوانيت ومساحات تتقدمها لعرض البضائع خاصة الغلات الزراعية التي كان بيعها يتم عن طريق كيلها أمام الحانوت، فضلاً عن وجود سلع أخرى عديدة لابد أن يكون بيعها داخل الحوانيت مثل اللحوم والمسلى والورق والبرشام والأقمشة والزيت، وكذا قيام بعض الصناعات داخل مكان خاص بها ضمن هذه السوق مثل صناعة تبيض النحاس.

وعلى ذلك فالسوق الكبير بالفيوم قد تشابه في تكوينه مع أسواق المدن الكبرى كالقاهرة التي كانت تتكون أسواقها من حوانيت متراصة على الجانبين[٥] يتعدى عددها الستين حانوتاً في بعض الأسواق على حد وصف المقريزي[٦]. غير أن هذه السوق

---

[١] – من القرى القديمة، كانت تسمى منية البطس، وتغير اسمها الى طمية عام ١٩٣٣م. محمد رمزي: المرجع السابق، ق٢، ج٣، ص١١٣.

[٢] – بلدة كبيرة من عرائس الفيوم، وهي قاعدة مركز سنورس منذ عام ١٨٧١م. محمد رمزي: المرجع السابق، ق٢، ج٣، ص١١٢.

[٣] – بلده صغيرة جنوب الفيوم، وصفها الصفدي بانها ذات نخيل متفرق ودويرات يسيره، أهلها عرب من بني عامر. الصفدي، ابن عثمان النابلسي: تاريخ الفيوم و بلاده، القاهرة ١٨٩٨م، ص٤٣.

[٤] – بلدة قديمة من مركز سنورس، كانت مخصصة لعبادة الإله حنومو، كان بها سوق ودكاكين بزازين، وعرفت باسمها الحالي منذ سنة ١٢٣٠هـ. محمد رمزي: المرجع السابق، ق٢، ج٣، ص١١٢-١١٣.

[٥] – انظر عن انظمة الاسواق والقياسر والخانات:

Sims (E) ,Markets and Caravanserais An Article in Architecture of the Islamic world Thames' and Hudson , 1984 , p.p. 97 - 111

[٦] المقريزي، تقى الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، موسسة الحلبى للنشر، ج٢، ص٩٤.

تختلف عن أسواق القاهرة في عدم تخصصها في سلعة واحدة، إذ أنها اشتملت على الكثير من السلع المتنوعة بجوار بعضها مما سهل على روادها شراء احتياجاتهم بسهولة، سواء أكانت كميات كبيرة مثل الغلات الزراعية، أو كميات صغيرة للاستهلاك اليومي مثل اللحوم والخضروات وغيرها، وذلك طيلة أيام الأسبوع إذ أنها لم تكن سوقاً أسبوعية، حيث وردت بوثائق السجل أسعار السلع اليومية داخل هذه السوق وعلى مدى أشهر مكتمل[١] مما يشير إلى وجود نظام تسعيري صادر عن أجهزة الإدارة بالإقليم يكفل عدم مغالاة التجار في بيع سلعهم، كما يشير إلى أن هذه السوق قد وقع عليها مهمة إمداد روادها باحتياجاتهم اليومية من السلع بالإضافة إلى شرائهم بعض السلع من الأسواق الريفية في موعد انعقاد سوقها الأسبوعي تجزئة[٢]، ومن خلال الوثائق التي تتضمنها سجل الاشهادات المشار إليه أمكن تقسيم السلع المتداول بيعها داخل السوق إلى الأقسام الأربعة السابقة تتناول أسعار كل قسم على حدة ودلالات هذه الأسعار من الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالاضافه إلى توضيح أوزان هذه السلع ومعاييرها مقارنة بأسعارها:

أولاً: الغلات الزراعية

تعدت أنواع الغلات الزراعية داخل سوق الفيوم الكبير، كما تباينت أسعارها وهى القمح والشعير والفول والعدس والبرسيم والحلبة والذرة البلدي والذرة الشامي، وهذه الغلات يتناولها البحث من حيث موقف الفيوم من زراعتها وكيفيه وصولها إلى هذه السوق وأسعار بيعها اليومية وكيفية بيعها.

---

[١] - محكمة الفيوم الشرعية، سجل اشهادات سنة ١٢٧١-١٢٧٣هـ، وثائق ٨٦٠، ٩٦٤، ١٠٠٦.

[٢] أحمد الشربيني: المرجع السابق، ص٥٥.

١- القمح:

يزرع القمح في كل أنحاء مصر ابتداء من أدفو إلى الدلتا وتجود زراعته في الأقصر وجرجا وأسيوط والمنيا والمنوفية والمنصورة وكذلك يزرع في الفيوم ولكن تمتاز سيقان القمح في مصر السفلى (الفيوم-بني سويف) بارتفاعها عن سيقان قمح الصعيد مما يسمح بحصدها بواسطة المنجل وكان محصول الفدان الواحد يتراوح بين أربعة أرادب وسبعة وفي حالات كثيرة يصل إلى ثمانية أرادب[١]، وكانت الفيوم من المدن التي تصدر القمح إلى القاهرة وذلك عن طريق بيعه داخل هذه السوق إلى التجار الذين يأتوا ليأخذونه عبر الطريق الصحراوي الذي يربط ما بين الفيوم والجيزة ومنه يدخل أسواق القاهرة للتداول أو عن طريق تحميله براً حتى بني سويف ثم ينقل عن طريق النيل حتى يصل إلى ميناء بولاق ومنه إلى داخل أسواق القاهرة[٢]، وقد أشارت الوثائق إلى أسعار القمح مقدراً بالإردب[٣]، وسعر الإردب من القمح في ضوء الوثائق كان على النحو التالي[٤]:

الشهور	السنة	السلعة	١-١٠	١١-٢٠	٢١-٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	قمح	٩٦	٩٦	٩٦	قرشاً

---

[١] - عن زراعة القمح انظر: أحمد أحمد الحته: تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد على الكبير، القاهرة ١٩٥٠م ؛ جيرار: المرجع السابق، ج١، ص٤٣.

[٢] - جيرار: المرجع نفسه، ص١٧٧.

[٣] - الارادب مكيال مصرى انتج خصيصاً للقمح وكان يتألف الاردب في القرن ١٩م من ٩٦ قدحاً صغيراً كل قدح ٦/٧ ٤٤٢٠ درهم، أي ما يساوي ١٣٢,٨٥٦ كيلوجرام، وفي بعض المراجع يزن القدح ٥/٧ ٤٤٥ درهما اى ما يوازى ١٣٣,٧ كيلو جرام. فالترهنتس: المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة كامل العسيلى، الاردن ط٢ عمان ١٩٧٠، ص٨٧ ؛ ابليا المطران: مقالة في المكاييل والموازين، مخطوط بدار الكتب، رقم ٣٤١ رياضة تيمور، ص٤.

[٤] - دار الوثائق سجل اشهادات ١٢٧١-١٢٧٣هـ، وثيقة ٤٧٥، ص٥٠ ؛ وثيقة ٥٧٣، ص٦٠ ؛ وثيقة ٨٦٠، ص٨٦ ؛ وثيقة ٩٦٤، ص٩٦؛ وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩،٤ ؛ وثيقة ١٠٦٥، ص١٠٤ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨ ؛ وثيقة ١٢٤٤، ص١٢٣،١ ؛ وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧ ؛ وثيقة ١٣٢٣، ص١٣١ ؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٣؛ وثيقة ١٤٠٤ ص ١٤٠، وثيقة ١٤٤٣ ص١٤٢.

بابه	١٨٥٦م	قمح	٩٩	١٠٢	١٠٨	قرشاً
هاتور	١٨٥٦م		١٠٨	----	-----	قرشاً
كهيك						
طوبه						
أمشير						
برمهات						
برمودة						
بشنس						
بؤنه	١٨٥٥م	قمح	١٠٢	٩٦	-----	قرشاً
أبيب	١٨٥٥م	قمح	٨٤	٩٠	٩٦	قرشاً
مسري[٥]	١٨٥٥م	قمح	٩٦	٩٣	٩٦	قرشاً

ومما يجب الإشارة إليه أن القمح كان يزرع في شهر بابه القبطي ويحصد في ١٥ برمودة[١]، وفي ضوء ذلك نلاحظ أن القمح المتداول بيعه في الشهور القبطية السابقة على شهر الزراعة كان يتذبذب سعره بين الارتفاع والانخفاض فتارة يباع ب ١٠٢ قرش للإردب ومرة يباع بـ ٨٤ قرش للأرادب ثم يعاود ارتفاعه، ولكن في شهر الزراعة ذاته يستمر بيع إردب القمح بسعر تصاعدي وذلك لزيادة الطلب عليه سواء للتخزين أو للزراعة الجديدة، أما إذا نظرنا إلى سعره أيام أن كان محتكراً في عهد محمد علي لوجدنا أن الإردب كان يشتريه من الفلاح بسعر ٣٦ قرشاً و يبيعه في الداخل

[٥] - درج استعمال الشهور القبطية فى الزراعة لان هذا التقويم يتمشى مع سنة مصر الزراعية والحصاد والفيضان.رياض سوريال: المجتمع القبطي في مصر فيق ١٩، القاهرة ١٩٨٤م، ص٢٣٢ ؛ محمد عبد الحافظ معوض: معالم التقويم ومفتاح النتيجة السنوية، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٠.

[١] - أحمد الحته: المرجع السابق، ص٢٣٧.

ب ٧١ قرشاً و في الخارج ب ٨٥ قرشاً[١]، و بمقارنة زمن الاحتكار بزمن الحرية الاقتصادية يتبين لنا ما كان يتمتع به التاجر من حرية في بيع سلعته، نضف إلى ذلك أن تدهور قيمة القرش لانعدام ضبط عياره على الرغم من أن محمد علي كان قد اصدر أمراً سنة ١٨٣٤م يجعل الريال وحدة النقد المصرية بدلاً من البارة أو القرش اللذين كانت قيمتهما من التدهور بحيث أصبحا لا يصلحان للعمليات التجارية الواسعة[٢] مما أدى إلى تسعير الغلات الزراعية.

٢- الذرة البلدية والشامية.

كانت الذرة ولا تزال أساس غذاء الفلاحين، وكانت الذرة نوعين رئيسين الذرة البلدية والذرة الشامية، وتزرع الأولى بأقاليم الصعيد والثانية في أقاليم الوجه البحري[٣]. وقد كانت الذرة البلدية تزرع بالفيوم وبني سويف والجيزة مع بداية شهر يوليه/أبيب القبطي أو شهر أغسطس/مسرى، وتظل في الأرض لمدة أربعة شهور في حين أنها تزرع في باقي الأقاليم الجنوبية في منتصف مايو/بشنس، ومرة أخرى في نهاية أغسطس/مسري[٤]، وقد كان إنتاج الفيوم من الذرة البلدية يعرض بسوقها الكبير للبيع، في حين أن الذرة الشامية كانت تجلب من أسواق الوجه البحري. وقد سجلت لنا وثائق هذا السجل أسعار بيع الإردب من كلا النوعين بأسعار متفاوتة تزيد فيها الذرة البلدية عن الذرة الشامية بقرش صاغ، حيث كان سعر إردب الذرة الشامية ٧٠ قرشاً، في حين كان سعر الذرة البلدية على النحو التالي[٥]:

---

[١] - أحمد محمد حسن الدماصي: الاقتصاد المصري في القرن التاسع عشر (١٨٠٠-١٨٤٠م)، القاهرة ١٩٩٤م، ج١، ص١٩١.

[٢] - ينقسم الريال الى عشرين قرشاً . أحمد الشربيني: المرجع السابق، ص٨٢

[٣] - أحمد الحته: المرجع السابق، ص٢٣٨.

[٤] - جيرار: المرجع السابق، ص٤٧.

[٥] - انظر: وثيقة ٤٧٥، ص٥٠ ؛ وثيقة ٥٧٣، ص٦٠.؛ وثيقة ١٠٦٥، ص١٠٤ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨ ؛ وثيقة ١٢٤٤، ص١٢٣ ؛ وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥.؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧.؛ وثيقة ١٣٢٣، ص١٣١ ؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٢ ؛ وثيقة ١٤٠٤، ص١٤٠ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢.

الشهور	السنة	السلعة	١-١٠	١١-٢٠	٢١-٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	ذره بلدي	٨٤	٨٧	٨٤	قرشاً
بابه			٩٠	٩٠	٩٠	قرشاً
هاتور			٩٦	٩٦	٩٦	قرشاً
كهيك						
طوبه						
أمشير						
برمهات	١٨٥٥م	ذرة بلدي	٩٠	٩٠	----	قرشاً
برمودة						
بشنس						
بؤونه	١٨٥٥م	ذره بلدي	٩٠	٩٠	----	قرشاً
أبيب			٩٠	٩٠	٩٠	قرشاً
مسري			٩٦	٩٦	----	قرشاً

بمقارنة هذه الأسعار الواردة بالجدول بالسعر الذي كانت تباع به الذرة زمن الاحتكار وهو ٣٦ قرشاً للإردب داخل القاهرة و٧٣ قرشاً خارجها، وسعر شرائه من الفلاح ٢٠ قرشاً تتضح لنا المكاسب الفلاح من جراء تحرير تجارته

٣ - الفول

كان الفول يزرع في مساحات شاسعة من أرض مصر وذلك لاتخاذه طعاماً أساسياً للمصريين فضلاً عن اتخاذه طعاماً للماشية كالبقر والجمال والحمير، وقد زاد محمد علي في زراعة هذا المحصول بعد أن أصبح مادة من مواد التجارة مع أوربا[١]، وقد كان يزرع في بداية شهر نوفمبر/هاتور القبطي ويبقى لمدة ثلاثة شهور ونصف، ثم

---

[١] - أحمد الحته: المرجع السابق، ص٢٤٧.

يحصد عند منتصف فبراير/أمشير القبطي وتقطع سيقانه ثم تدرس تحت النورج وفي الفيوم وضواحيها يحصد باقتلاع السيقان عندما يبدأ النبات في الجفاف وتجفف حبوبه ثم تعبأ في أجولة وتباع داخل السوق وذلك بالأسعار التالية[1] :

الشهور	السنة	السلعة	١-١٠	١١-٢٠	٢١-٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	فول	٧٨	٨٤	٨٧	قرشاً
بابه			٨٧	٨٧	٩٠	قرشاً
هاتور			٩٠	٩٠	٩٠	قرشاً
كيهك						
طوبة						
أمشير						
برمهات	١٨٥٥م	فول	٧٢	٧٢	٧٢	قرشاً
برمودة						
بشنس			٦٠	٦٠	٦٠	قرشاً
بؤونة						
أبيب			٦٦	٧٢	٧٨	قرشاً
مسري			٧٨	٧٨	٧٨	قرشاً

ومما تجدر ملاحظته على أسعار محصول الفول أنها أسعار تصاعدية خلال عامين هبط فيها السعر مرة واحدة خلال شوال ١٢٧٢هـ/بؤونة ١٥٧١ قبطي ١.٢ قرشاً، ثم زاد بعدها السعر خلال شهور هذا العام والعام التالي ليصل إلى ٩٠ قرشاً في

[1] - انظر: وثيقة ٤٤٥، ص٥٠.؛ وثيقة ٥٧٣، ص٦٠ ؛ وثيقة ٨٦٠، ص٨٦ ؛ وثيقة ٩٦٤، ص٩٦ ؛ وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩.؛ وثيقة ١٠٦٥، ص ١٠٤ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨ ؛ وثيقة ١٢٤٤ ؛ وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧.؛ وثيقة ١٣٢٣، ص١٣١ ؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٣.؛ وثيقة ١٤٠٤، ص١٤٠ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢.

صفر ١٢٧٣هـ مما يفسر الإقبال الشديد على شرائه سواء لعلف الماشية أو تسويته في حوانيت الطعام وإعادة تقديمه مطهياً.

٤ – البرسيم

كان البرسيم ولا يزال من أعظم الغلات الزراعية أهمية واتساعاً في مصر[١] نظراً لأنه العليق المفضل للحيوانات[٢]، وقد اتسعت مساحته في عهد محمد علي تبعاً لازدياد عدد الحيوانات، وقد ادخل محمد علي في مصر زراعة أنواع أجنبية منه أهمها البرسيم الحجازي ومحصوله أوفر من البرسيم المعتاد وكان البرسيم يزرع في الوجه البحري والقبلي في شهر بابه القبطي[٣]، وكان يتم جمع حبوبه بعد عدة حشات منه لتصبح تقاوي لزراعته في المرات القادمة إذ كان يتم بيعه داخل هذه السوق وفقاً للأسعار التالية[٤]:

الشهور	السنة	السلعة	١-١٠	١١-٢٠	٢١-٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	برسيم	٢١٦	٢١٦	٢١٦	قرشاً
بابه			٢٤٠	٢٤٠	٢٤٠	
هاتور			٢٤٠	٢٤٠	٢٤٠	
كيهك						
طوبه						
أمشير						

---

[١] – أحمد الحتة: المرجع السابق، ص٢٥٤.

[٢] – جيرار: المرجع السابق، ص٧٠.

[٣] – أحمد الحتة: المرجع السابق، ص٢٥٤.

[٤] – انظر: وثيقة ٨٦٠، ص٨٦ ؛ وثيقة ٩٦٤، ص٢٣٦ ؛ وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩.؛ وثيقة ١٠٦٥، ص١٠٤ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨.؛ وثيقة ١٢٤٤، ص١٢٣.؛ وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥ ؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧.؛ وثيقة ١٣٢٣، ص١٣١ ؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٢ ؛ وثيقة ١٤٠٤، ص١٤٠ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢.

برمهات						
برمودة						
بشنس						
بؤونه						
أبيب	١٨٥٥م		١٢٠	١٢٠	١٢٠	
مسري			١٤٤	٢٤٠	٢٤٠	

ومما تجدر ملاحظته هو زيادة سعر البرسيم عن باقي الغلات الزراعية الأخرى، وذلك لكثافة زراعته باعتباره طعاماً رئيساً للحيوانات وازدياد الإقبال على شرائه خاصة في شهر زراعته يفسر ارتفاع سعره.

٥ – العدس

أشارت وثائق السجل إلى نوعين من العدس هما: العدس الصميم[١] والعدس المجروش[٢]، والنوع الأول هو العدس المحتفظ بقشرته الخارجية والثاني هو المفصولة عنه هذه القشرة، وتنقسم حبته إلى نصفين وتكون ذات لون اصفر، وكان العدس يزرع في الوجهين القبلي والبحري، ولكن في مساحات محدودة في شهر بابه في الوجه القبلي وفي شهر هاتور إلى ١٠ كهيك في الوجه البحري[٣]، ويحصد العدس في الفيوم بحش سيقانه بعكس حصده في الأقاليم الجنوبية حيث يحصد باقتلاع سيقانه[٤]، وبعد حصده ينقل مجروشاً وصحيحاً إلى السوق لبيعه وفقاً للأسعار التالية[٥]:

---

١ – وثيقه رقم ١٤٤٣، ص١٤٢ ؛ و وثيقه ١٤٠٤، ص١٤٠

٢ – وثيقه ٦٧٣، ص٧٠.

٣ – احمد الحته: المرجع السابق، ص٢٥٠.

٤ – جيرار: المرجع السابق، ص٦٢.

٥ – انظر: وثيقة ٤٥٤، ص٤٨.؛ وثيقة ٤٧٥، ص٥٠.؛ وثيقة ٥٧٣، ص٦٠.؛ وثيقة ٥٨٠، ص٦٠.؛ وثيقة ٦٧٣، ص٧٠ ؛ وثيقة ٨٦٠، ص٨٦.؛ وثيقة ٩٦٤، ص٩٦.، وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩.؛ وثيقة ١٠٦٥، ص١٠٤؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨.؛ وثيقة ١٢٤٤،

الشهور	السنة	السلعة	١-١٠	١١-٢٠	٢١-٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	عدس صميم	٧٥	٧٥	٨٤	قرشاً
بابه		عدس بجروش	١٢٠	١٢٠	١٢٠	
هاتور		عدس بجروش	١٢٠	١٢٠	١٢٠	
كيهك						
طوبه						
أمشير						
برمهات	١٨٥٥م	عدس بجروش	٩٤-١١٤-٩٦	--	--	قرشاً
برمودة						
بشنس						
بؤونه	١٨٥٥م	عدس صميم	٧٢	٧٥	٧٥	
أبيب			٧٥	٧٥	٧٥	
مسري			٧٥	٧٥	٧٥	

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لأسعار العدس في منتصف القرن ١٩م فان مقارنة سعره في هذه الفترة بسعره في نهاية القرن ١٨م ليتضح لنا التدهور الذي كان عليه القرش المتداول في شرائه وبالقياس كل الغلات السابق ذكرها فقد بيع الإردب منه داخل القاهرة بـ ١٥٠ مديني[١]، أي ما يعادل ٤ قروش تقريباً وفقاً لقيمة القرش في النصف الثاني من القرن ١٩م.

ص١٢٣.؛ وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥.؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧.؛ وثيقة ١٢٨٨، ص١٢٧.؛ وثيقة ١٣٢٣، ص١٣١.؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٢،٨٣ ؛ وثيقة ١٤٠٤، ص١٤٠ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢,٨٤ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢.

[١] - هو نصف الدرهم المملوكي الذي أمر بسكه السلطان المويد شيخ وعرف باسم المويدي او الميدي على سبيل الاختصار، وهي كلمة استخدمت بعد ذلك في القرون التالية للاشارة الى المديني او البارة. صامويل برنار، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الموازين والنقود، ج٣، ترجمة زهير الشايب، ط ١ الخانجي ١٩٨٠، ص٧٦ ؛ جيرار: المرجع السابق، ص٦٣.

٦ – الحلبة

كانت الحلبة تزرع في الأراضي الضعيفة ويتغذى بها الأهالي فيأكلون سوقها وأوراقها وهى خضراء أما حبوبها فيتخذون منها شراباً ويصنعون منها مستنبتة نوعاً من الطعام وكذلك تتغذى الحيوانات بالحلبة الخضراء مثل البرسيم[١] ولا تتم زراعة الحلبة في الفيوم إلا بطريق الصدفة ويلجأ الناس إلى زراعتها في سنوات الجفاف أو في الأراضي التي لا تروى على نحو طيب[٢] وذلك في شهر بابه وبعد حصادها وتجفيفها تنقل إلى السوق لبيعها وفق الأسعار التالية[٣]:

الشهور	السنة	السلعة	١–١٠	١١–٢٠	٢١–٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	حلبه	١٢٠	١٢٠	١٢٠	قرشاً
بابه			١٢٠	١٢٠	١٢٠	
هاتور			١٢٠	١٢٠	١٢٠	
كيهك						
طوبه						
أمشير						
برمهات	١٨٥٥م		----	٦٠	----	قرشاً
برمودة						
بشنس						
بؤونه			٦٠	٦٠	٦٠	قرشاً
أبيب			٧٢	٨٤	٨٤	
مسري			١٠٨	١٢٠	١٢٠	

---

[١] – أحمد الحته: المرجع انسابق، ص٢٥١.

[٢] – جيرار: المرجع السابق، ص١٢٠.

[٣] – أنظر: وثيقة ٤٧٥، ص٥٠ ؛ وثيقة ٦٧٣، ص٧٠ ؛ وثيقة ٨٦٠، ص٨٦، ؛ وثيقة ٩٦٤، ص٩٦، ؛ وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩ ؛ وثيقة ١٠٦٥، ص١٠٤ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٥٨ ؛ وثيقة ١٢٤٤، ص١٢٣ ، وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥ ؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧ ؛ وثيقة ١٣٢٢، ص١٣٨ ؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٢ ؛ وثيقة ١٤٠٤، ص١٤٠ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢.

ويتضح مما سبق أن الزيادة في سعر الإردب زيادة تصاعدية حيث وصل سعر الإردب إلى الضعف قبل شهر الزراعة وفي شهر الزراعة وذلك للإقبال الكبير على شرائها بقصد الزراعة واستعمالها في الخبز.

٧ – الشعير

يعتبر الشعير من أكثر النباتات التي تشيع زراعتها في مصر وذلك لاستخدامه في تغذية الخيول[١]، وقد اتسعت زراعته بعد ١٨١٥م نظراً لتصدير كميات كبيرة منه إلى جنوة ومالطة وموانئ أسبانيا والبحر الأبيض المتوسط، وكذلك لازدياد الاستهلاك الداخلي منه تبعا لزيادة عدد الخيول في الجيش المصري[٢]، وكان يزرع هذا النبات في الوجه القبلي في شهر بابه القبطي وبعد حصده وجفاف حبوبه يأتي إلى السوق ليتم بيعه بالأسعار التالية[٣]:

الشهور	السنة	السلعة	١–١٠	١١–٢٠	٢١–٣٠	العملة
توت	١٨٥٦م	شعير	٦٠	٦٣	٦٣	قرشاً
بابه			٦٣	٦٦	٦٦	
هاتور			٦٦	٦٦	٦٦	
كيهك						
طوبه						
أمشير						
برمهات						
برمودة						
بشنس						

[١] – جيرار: المرجع السابق، ص٥٩-٦١.

[٢] – أحمد الحتة: المرجع السابق، ص٢٤٦-٢٤٧.

[٣] – أنظر: وثيقة ٥٧٣، ص٦٠ ؛ وثيقة ٦٧٣، ص٧٠ ؛ وثيقة ٨٦٠، ص٨٦ ؛ وثيقة ٩٦٤، ص٩٦ ، وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩ ؛ وثيقة ١٠٦٥، ص١٠٤ ؛ وثيقة ١٠٩٩، ص١٠٨ ؛ وثيقة ١٢٦٠، ص١٢٥ ؛ وثيقة ١٢٨٢، ص١٢٧ ؛ وثيقة ١٣٤٧، ص١٣٣ ؛ وثيقة ١٤٠٤، ص١٤٠ ؛ وثيقة ١٤٤٣، ص١٤٢.

بوونه	١٨٥٥م		٥٤	٥٤	٥٤	قرشاً
أبيب			٦٠	٦٠	٦٠	
مسري			٦٠	٦٠	٦٠	

ويتضح مما سبق أن الزيادة في سعر الإردب ترتفع قرب شهر زراعته وهو شهر بابه للإقبال على شرائه للزراعة أو لتخزينه كعلف للخيول.

وبعد استعراض أسعار الأنواع سالفة الذكر من الغلات الزراعية أشير إلى أسلوب بيعها داخل السوق، والقائم على معايرتها للمشتري. فلقد كانت هذه الغلات تعرض أمام الحانوت على هيئة أكوام كبيرة[1]، وذلك ليعاينها التاجر المشتري ويستعرض أجودها وعندما يقرر شرائها يستدعي صاحب التجارة الكيال ويكيل له الكمية التي يريدها بالإردب ووحداته، وهى الكيلة والربع والقدح، والإردب يساوى ١٢ كيلة والكيلة ربعان، فالإردب ٢٤ ربعاً والربع ملوتان فالإردب ٤٨ ملوه والملوة قدحان فالإردب ٩٦ قدحاً[2]، وكل وحدة من هذه الوحدات كان يتم صناعتها من الخشب المغلف بالزنك والمعير في دار العيار لضبط حجمها وتحمل ختماً يؤكد المعايرة، وذلك لتسهيل أعمال المحتسب أو غيره عند التفتيش على الأسواق والتأكد من التزام التجار باستخدام المكاييل الشرعية في التعامل. وعلى هذا فان المستخدم من هذه المكاييل داخل السوق كان القدح -الربع الكيلة- حيث يعادل الربع أربعة أقداح والكيلة ثمانية أقداح.

وكان الكيالون اللذين يقومون بهذا العمل ينقسمون إلى فئتي: الأولى تعرف بكيالي الميري، والثانية بكيالي البراني[3]. ومن المؤكد أن الفئة الأولى هى التي تولت العمل داخل هذه السوق سجلت لنا الوثائق اسم رئيس هذه الفئة ويسمى حسن عبد

---

[1] – جيرار: المرجع السابق، ص٢٦٢.

[2] – أحمد بن محمد، ابى العباس نجم الدين: الايضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٥ رياضة طلعت ؛ على مبارك: الميزان في الاقيسة والمكاييل والاوزان، ص٩٠ ؛ فالتر هنتس: المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.

[3] – أحمد الشربيني: المرجع السابق، ص١٣٦-١٣٧.

الجواد[١]، والذي كان له أعواناً معتمدون يساعدونه في الكيل داخل السوق، كما كان من مهامه تسجيل أسعار الغلات كل عشرة أيام في سجلات محكمة الفيوم الشرعية، وذلك ليلتزم بها التجار في العشرة أيام التالية، وفي حالة زيادة السعر يخطر السيد حسن عبد الجواد كيال السوق ليعود ويسجل هذا السعر من سجلات المحكمة عن طريق إرسال كشف يتضمن السعر المعدل مختوماً بختمه[٢]، وهذا الرجل المنوط به نقل أسعار السوق إلى الهيئة القضائية ليسهل عليها مراقبة السوق كان يشغل قبل عمله كيالاً عمل حمل بالسوق[٣]، وربما رقي إلى هذه المهنة بعد ثبات صلاحيته لهذا العمل، وربما كان يأخذ راتبه من تجار السوق إلى جانب راتبه الحكومي.

بقي أن أتشير إلى أن العملة المتداولة في شراء هذه الغلات الزراعية كانت القرش صاغ، وليست القرش الرائج الذي كان يساوي ربعه، أي عشر بارات[٤]، وهذه القروش كان يتم بها التعامل داخل السوق حيث أشارت الوثائق إلى ذلك، ولم نشر إلى استعمال الريالات التي قام بسكها محمد علي باشا بعد سنة ١٨٣٤م نتيجة تدهور القيمة الفعلية لتلك القروش، مما يشير إلى عدم تأثر التجارة الداخلية بما كان يحدث في العاصمة المركزية من تغييرات نقدية استهدفت التجارة الخارجية.

---

[١] - وثيقه ١٠٦٥، ص١٠٤.

[٢] - وثيقه ٩٦٤، ص٩٦.

[٣] - وثيقة ١٠٠٦، ص٩٩.

[٤] - من القروش الصحاح وهو يساوي ٤٠ بارة، والكلمة تركية معناها صحيح. والقروش ضربت أول ما ضربت في تركيا في عهد السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩٠)، وفي مصر ضربت في عهد علي بيك الكبير لأول مرة سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م وكانت قيمتها عشرة أنصاف، ثم أبطلها محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م واعاد سكها الفرنسيون ولكن بقيمة ٤٠ بارة، والمعروف باسم القرش التركي أو القرش صاغ، والتي استمرت في القرن ١٩م، وكانت هذه القروش تحمل طغراء السلطان والوجه الآخر أمر الضرب ومكانه وسنته. (انظر شكل ١). الأب انستاس الكرملي: النقود العربية والاسلامية وعلم النميات، القاهرة ١٩٨٧، ص١٩٥ ؛ السيد موسى الحسيني: تاريخ النقود الاسلامية، بيروت ١٩٨٨م، ص١٥٤ ؛ عبد الرحمن فهمي محمد: النقود المتداوله أيام الجبرتي، ندوة عبد الرحمن الجبرتي، دراسات وبحوث، القاهرة ١٩٧٦م، ص٥٧٤-٥٧٥.

ثانياً: السلع الغذائية

سجلت لنا وثائق هذا السجل الكثير من السلع الغذائية التي كانت تباع داخل هذه السوق مقترنة بأسعار بيعها بالإضافة إلى أوزانها ومن هذه السلع: اللحم البقر، اللحم الجاموسي، اللحم الضأني، المسلى (الشحم الدهن)، الزيت الطيب، الزيت الحار، البصل الناشف (الأحمر)، الأرز، الفول الأخضر، البصل الأخضر، القرع، البامية، الكمون، الفلفل المطحون، الملح الملوخية الناشفة[١]. وهذه السلع كان يقوم ببيعها أنواع أربعة من التجار هم: القصاب، الزيات، العلاف، الخضري، حيث اختص القصاب ببيع لحومه داخل هذه السوق سواء داخل حانوت أو في شارع السوق على حامل خشبي مثلما نرى في ريف مصر حتى اليوم.

وقد كانت أسعار القصابين يبلغها عدداً منهم إلى المحكمة لتسجيلها والالتزام بها، مما يعطى انطباعاً مؤكداً باهتمام القضاة بمراقبة الحركة البيعية داخل الأسواق كيفاً وكماً وهو العمل الذي يقوم به المحتسب في القاهرة. وقد انقسم القصابون إلى تخصصات عدة فمنهم من يذبح الضأن.ومنهم من يذبح الجاموسي، ومنهم من يذبح البقري، وكل هؤلاء يعرضون ذبائحهم بالسوق لتكون تحت نظر المشتري ليأخذ ما يروق له وفقاً للأسعار التالية: اللحم البقري والجاموسي كان يباع بسعر واحد هو قرشان وعشرة أنصاف -عمله صاغ- وذلك في ٢٦ شوال ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م[٢] لكل أقه، وهذا يعني أن الأقة وهى كيلو وربع كانت قيمتها قرشان وربع. أما اللحم الضأن فكان يباع بسعر أغلي، حيث كانت الأقة الواحدة تباع بسعر قرشان و ٣٠ نصف -عمله صاغ- أي بما يقرب من ثلاثة قروش، على الرغم من أن الفيوم هى المنطقة التي

---

[١] - وثيقة ٥٧٦، ص٦٠.؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقة ٥٧٦، ص٦٠ ؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقة ٦٣٦، ص٦٥ ؛ وثيقة ٥٥٣، ص٥٧ ؛ وثيقة ٥٤٥، ص٥٧ ؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقة٥٥٤، ص٥٧.؛ وثيقة ٥٨٠، ص٦٠ ؛ وثيقة ٥٩٣، ص٦٠ ؛ وثيقة ٦٠٢، ص٦٢ ؛ وثيقة ٦٧٣، ص٧٠- وثيقة ٨١٩، ص٨٢ ؛ وثيقة ٥٥٣، ص٥٧ ؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقة ٥٥٤، ص٥٧ ؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقة ٥٥٧، ص٦٠.

[٢] - حسن رفعت: رسالة في المقاييس القاهرة ١٩٠٢، ص١٢ ؛ حرار: المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.

يربى فيها أكبر عدد من الخراف في كل أنحاء مصر[١]، وربما كان السبب في ازدياد سعره عن الجاموسي والبقري إقبال الناس على شرائه بقدر أكبر. وعلى الرغم من أن أسعار اللحوم كانت تتزاوح بين القرشين والثلاثة نجد أن أسعار الدهون المحولة إلى شحم تبلغ خمسة قروش وعشرون نصف عملة صاغ[٢] للأقة الواحدة، أي خمسة قروش ونصف، ولعل السبب في ذلك راجع إلى استهلاك كمية كبيرة من الدهون لإنتاج أقة واحدة مسلى، وعلى ذلك كان يرتفع سعر الأقة من الدهن الشحم عن الدهن اللحم.

٢ – الزيات:

تخصص في بيع نوعين من الزيوت داخل هذه السوق هما الزيت الحار، والزيت الطيب وكان الزيت الحار ينتج من السمسم والزيت الطيب من بذر الكتان أو الخس الذي تخصصت في إنتاجه أقاليم الوجه القبلي[٣]، وقد احتكر محمد علي صناعة الزيوت منذ سنة ١٨١٦م أرتفع سعره نتيجة لهذا الاحتكار بل اختفى وجوده فترة من الزمن[٤]، حيث كان استعماله في كافة الأغراض، ويبدو أن هذه السلعة كان يجلبها التجار من معاصر الزيت لبيعها داخل حوانيت بالسوق تشتمل على براميل وأقساط معايرة بوزن الأقة التي كانت تباع من الزيت الطيب بسبعة قروش و٢٢,٥ فضة عملة صاغ، في حين كانت الأقة من الزيت الحار بخمسة قروش وخمسة أنصاف فضة عملة صاغ[٥]، ولعل الاختلاف في السعر كان نتيجة التباين في مذاق النوعين.

---

[١] – جيرار: المرجع السابق، ص ١٠٧

[٢] – وثيقة ٥٧٦، ص٦٠.

[٣] – كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، ترجمة محمد مسعود، ج٢، ص٤٥١.

[٤] – صلاح أحمد هريدي: الحرف و الصناعات في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٩٨.

[٥] – وثيقه ٤٨٣ مكرر، ص٥٠.

٣ – العلاف

وهو المختص ببيع البقول والتوابل والبصل والملوخية الناشفة والأرز، حيث كانت سلعه توضع في أجولة أو مقاطف من الخوص داخل أو خارج الحانوت وتوزن بالأقة بالسعر التالي: الأرز المبيض بسعر قرشان ونصف فضة عملة صاغ، والأقة البصل الأحمر بسعر ٢٠ فضة عملة صاغ، أي نصف قرش، والأقة الفلفل الأسود المصحون بثمانية قروش و٣٢ نصف عملة صاغ، أي ما يقرب من ٩ قروش، وهو سعر مرتفع نسبياً، نظراً لأنه من السلع الواردة والمستخدم في طحنه تكاليف مالية تضاف إلى سعره الأصلي، أما الأقة الملح الواحدة فكانت بـ ٦ فضة و٦ جدد و٢/٣ جديد عملة صاغ، والملوخية الناشفة كان يجلبها إلى حانوتيه بسعر الإردب ٣٩ قرشاً، وبعد ذلك وصل السعر في شوال ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م إلى ٤٥ قرشاً للإردب ثم بعد ذلك يقوم بعرضها في حانوتيه لتباع الأقة الكمون كانت تباع بسعر قرشان و٣٢ فضة[1]، ومن المحتمل أن التوابل المتداول بيعها داخل هذه السوق كالفلفل الأسود المصحون والكمون كانت تقسم في بيعها للأفراد إلى أواق[2]، أما المطابخ الكبرى فكانت تباع لهم الأقة ومضاعفاتها.

٤ – الخضري

وقد اختص ببيع الخضر التي أشارت الوثائق لبعضها داخل السوق مقترنة بأسعار بيعها وهى البصل الأخضر والفول الأخضر والقرع والبامية والقرع الكوسة والباذنجان (الباطنجان)، وذلك بالأقة شأنها شان سلع العلافة واللحوم والزيوت. وقد كانت تباع الأقة من البصل الأخضر في شوال ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م بـ ١٢ نصف فضة عملة صاغ، في حين كان الفول الأخضر يباع في هذا الشهر بأربعة أصناف عملة

---

[1] – وثيقه ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقه ٥٧٧، ص٦٠ ؛ وثيقه ٨١٩، ص٨٢.

[2] – تساوي الاوقية فى الاصل ١/١٢ من الرطل وكانت الاوقية الشرعية موجودة فى مكة فى صدر الاسلام بوزن يساوى ٤٠ درهما – ١٢٥، والاوقية في مصر كانت على الدوام ١٢ درهما – ٣٧,٥ جرام. فلتر هنتس: المرجع السابق، ص١٩.

صاغ[1] للأقة، مما يشير إلى علو كعب البصل عن الفول وذلك الإقبال الناس على شرائه وتجفيفه واستعماله بشكل موسع في طهي الأطعمة، أما القرع، فقد اختلفت أنواعه، إذ كان يزرع في مصر القرع الطويل والقرع الاسلامبولي والقرع المغربي، وكانت تلك الأصناف شائعة الاستعمال في طهي الأطعمة وكان يزرع في الوجهين القبلي والبحري في أوان زراعة البطيخ[2]، ويبدو أن القرع الذي أشارت إليه الوثيقة بدون تحديد كان هو القرع الكوسة، إذا اختلف سعر الأول عن سعر الثاني، حيث بيعت الأقة من القرع الطويل في سنة ١٢٧٢هـ وطيلة الشهور الاربعة القبطية طوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة من سنة ١٥٧١ قبطي/١٨٥٥م ب٣٢ نصف عمله صاغ، في حين بيعت الأقة من القرع الكوسة في بشنس ١٥٧١قبطي/ذو القعدة ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م ب٢٠ نصف فضة عملة صاغ، أي بنصف قرش أما الباذنجان فان الأقة منه قد بيعت ب٢٢ نصفاً فضة عملة صاغ، رغم اختلاف أنواعه وألوانه وبيعت الأقة من البامية ب٣٠ نصفاً عمله صاغ[3]، وهذه الخضراوات كان يأتي بها الفلاحون من حقولهم لبيعها داخل السوق[4]، ثم يعاد بيعها من قبل التجار تجزئة إلى رواد السوق، وذلك بعرضها على هيئة أكوام على الأرض أو في أقفاص على مصاطب أو عربات صغيرة.

ثالثاً: السلع الاستهلاكية

تنقسم هذه السلع إلى عدة أنواع:

أ - أقمشة ومفروشات وأدوات منزلية.

ب - أدوات كتابية.

ج - أدوية.

---

[1] - وثيقة ٥٩٣، ص٦٢ ؛ وثيقه ٥٨٠، ص٦٠.

[2] - احمد الحته: المرجع السابق، ص٢٥٨.

[3] - وثيقه ٦٠٢، ص٦٢ ؛ وثيقة ٦٧٣، ص٧٠.

[4] - جيرار: المرجع السابق، ص٢٢٩.

فالنوع الأول من هذه السلع أشارت إلى تواجده بالسوق وثائق السجل مقترنة بأسعارها ومن هذه السلع المقطع القماش الأفرع (السادة)، مقطع القماش الكتان الحصير البردي، قنديل الزجاج وبيت زجاج، الصابون، الحطب. والنوع الثاني من هذه السلع وهو الأدوات الكتابية أشارت الوثائق إلى بيعه داخل السوق مع الإشارة إلى أسعارها، وهى الفرخ الورق الأبيض (قالب واحد أو قالب ونصف)، قزازت الحبر، أما الأدوية فقد أشارت الوثائق إلى بيع علب البرشام داخل السوق، ويبدو أن كل نوع من هذه السلع قد كان له مكان خاص ببيعه داخل السوق، ومن ثم يمكن القول أن هناك حانوت لبيع الأقمشة وأخر لبيع الحصير وثالث لبيع لمبات الإضاءة، مع وجود حانوت لبيع الأدوات الكتابية (مكتبة) بالإضافة إلى وجود حانوت لبيع الأدوية (صيدلية)، ومن ثم يكون السوق قد أشتمل على حوانيت غلال وعلافة ولحوم وخضر وأدوات منزلية وكتابية وأدوية، وفيما يلي عرض لأسعار هذه السلع:

أ - الأقمشة والمفروشات والأدوات المنزلية[١]، بيع المقطع القماش السادة بقرش وثلاثة أنصاف عمله صاغ[٢]، ويبدو أن هذا النوع من الأقمشة استعمل لتفصيل القمصان الداخلية أسفل الجلابيب، أما الأقمشة الكتانية فقد بيع المقطع منها بتسعة قروش عملة صاغ[٣]، مما يشير إلى جودة ومتانة النوع الثاني بالإضافة إلى انه كان من المحاصيل الخاصة التي احتكرها محمد علي في سنة ١٨١٦م[٤]، مما أدى إلى ارتفاع سعر أقمشته لدخوله في مجال التصدير. أما المفروشات، فمنها الحصر البردي، وقد امتازت الفيوم عن غيرها بإنتاج الحصير خاصة قرية طامية بالإضافة إلى انتشارها انتشاراً واسعاً في

---

[١] - وثيقة ٤٨٣، ص٥٠.

[٢] - المقطع هنا عبارة عن عدد من الامتار تصل الى سته تكفى لصنع ثياب لرجل. السيد محمد عاشور: صناعة وتجارة الأقمشة في مصر، القاهرة ١٩٧٢، ص٧٣.

[٣] - وثيقه ٥٥٣، ص٥٧، وثيقه ٦٣٠، ص٦٥، وثيقة ٦٣٦، ص٦٥.

[٤] - هيلين ان ريفيلين: الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى، القاهرة ١٩٦٧، ص٢٣٨.

مصر ، وقد كان هناك أنواعاً تصنع من أعشاب السمار وأخرى تصنع من عيدان البردي، وقد كان سعر الأخيرة قرشين عملة صاغ[٢]، غير أن الأولى كان سعرها في نهاية القرن ١٨م ٤٥٠ نصف، أي ما يقرب من ١١ قرشاً[٣] داخل القاهرة التي كان يباع فيها الكثير من الحصر من إنتاج الفيوم، ويبدو هذا الاختلاف الكبير في السعر بين القاهرة والفيوم نتيجة أن الفيوم هى بلد الإنتاج والمعروض منه كثير، مما أدى بالتبعية إلى رخص سعر المنتج، إلى جانب الحصر وجدت من وسائل الإضاءة اللمبات الزجاجية المكونة من قنديل وبيت زجاجي والتي كانت تصنع لإضاءة المنازل وهذا النوع من وسائل الإضاءة كانت تباع الواحدة منه بسعر ٤ قروش عملة صاغ، كذلك كان يستعمل داخل المنازل الصابون للنظافة العامة وهذه السلعة كانت تباع بالأقة التي بلغ سعرها ٧ قروش و٢٠ نصف عملة صاغ، وذلك في سنة ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م .كذلك أشارت الوثائق إلى بيع وسيلة التسخين في المنازل والمطابخ والمقاهي وهى الحطب وذلك بالأقة بسعر تراوح من ٣ فضة عملة صاغ و٤ أنصاف، حيث كانت تكسر هذه الأخشاب إلى أجزاء صغيرة توضع أسفل الشيء المراد تسخينه والموضوع على قالبين (كانون) في مكان متسع بعض الشيء يستوعب تصاعداً الأرضية الناتجة عن الاشتغال، ويبدو أن هذه الوسيلة البدائية هى التي كانت سائدة في الريف المصري آنذاك وحتى اليوم في بعض القرى.

أما الأدوات الكتابية، والتي ذكرت منها الوثائق الأفرخ الورقية وزجاجات الحبر، فقد كانت تباع داخل السوق في حوانيت خاصة يمكن أن نسميها بلغة عصرنا الحالي المكتبات، والتي وجدت لتلبية متطلبات المتعلمين في المدينة وقراها. ويبدو أن استعمال الورق كان من خلال شرائه بالفرخ أو القالب بلغة أهل الفيوم والمعروفة

---

[١] – كلوت بك: المرجع السابق، ص٤٨٥.

[٢] – وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠.

[٣] – وصف مصر، لوحات الدولة الحديثة، تعريب زهير الشايب، تعليق اللوحة ٢٠.

اليوم بالورقة المزدوجة، أما نصف القالب فهو الورقة المفردة، وقد بلغ سعر القالب في ٧ شوال سنة ١٢٧٢هـ ٣ فضة عملة صاغ، وفي حوانيت أخرى في ذات التاريخ ٣ فضة و١/٣ ميدي عملة صاغ، واستمر على ذلك في ذي القعدة، أما القالب ونصف فقد بيع بسعر ٤ فضة عملة صاغ، مما يشير إلى تخفيض قدره نصف فضة إذا بيع على هذا النحو. أما زجاجات الحبر فقد كانت تباع الواحدة بقرش و ١٠ فضة عملة صاغ، وقد كانت هذه الأدوات تجلب من القاهرة كمدينة تأتي إليها التجارة العالمية، وأخيرا فان السوق قد اشتملت على حوانيت كانت تباع بها علب البرشام التي أوردتها الوثائق دون تحديد لنوعية هذه العلب وفي أي أغراض تستخدم، ولكن الشائع أنها كانت تستخدم كمسكنات شأنها في ذلك شأن الأسبرين المتداول اليوم في محلات البقالة إلى جانب الصيدليات، وهذه العلب كانت تباع الواحدة منها بـ ٣٠ فضة عملة صاغ أي ٣/٤ قرش[1]، وذلك في شوال ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م.

رابعاً: مواد صناعية:

من هذه المواد التي أشارت إليها الوثائق القصدير، والنشادر اللذان استعملا في تبيض النحاس داخل حانوت مبيض النحاس بالسوق بالإضافة إلى بيعهما لمبيض النحاس الآخرين خارج المدينة بالأسعار التالية: بيعت الأقة من القصدير بثمن قدره ١٧ قرشاً ونصف فضة، والأقة من النشادر بـ ٨ قروش و٣٠ نصف فضة في شوال سنة ١٢٧٢هـ، وزيد سعر النشادر في ذو القعدة من العام نفسه إلى ٩ قروش و٢٤ نصف فضة[2]، أي بزيادة قدرها ٣٤ نصف فضة. وقد ذكرت الوثيقة اسم النحاس الذي كان يباشر هذه الحرفة داخل السوق، وهو مبارك خلة النحاس الذي اعترف أمام محكمة الفيوم الشرعية بأسعار المواد التي يستخدمها في حرفته والتي أشرت إليها

---

[1] - وثيقة ٤٨٨، ص٥١ ؛ وثيقة٥٥٤، ص٥٧ ؛ وثيقة٥٥٤، ص٥٧؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠ ؛ وثيقة ٨١٩، ص٨٢، وثيقة ٥٥٣، ص٥٧ ؛ وثيقة ٦٣٥، ص٦٥ ؛ وثيقة ٦٣٦، ص٦٥ ؛ وثيقة ٤٨٣ مكرر، ص٥٠.

[2] - وثيقه ٤٩٧، ص٥٢ ؛ وثيقه ٨١٩، ص٨٢.

سلفاً، حيث كانت ترد إلى حانوته الأواني النحاسية المتداول استعمالها آنذاك في المنازل لتبيضها وإزالة ما علق بها من جنزرة وأوساخ، وذلك بتنظيف القطعة أولاً بالرمل لإزالة الدهون، وبعد أن تصبح الآنية نظيفة بالقدر الكافي يتم تبيضها بالقصدير[١]، بالإضافة إلى ملح النشادر الذي يعد أحد العناصر الرئيسية في الطلاء[٢]، ومن خلال ما سبق استعراضه من سلع وأسعار تخلص إلى:

أ- أن هذه السلع -غذائية، واستهلاكية، ومواد صناعية- كانت تباع جميعها بالوزن والمعايرة والوحدة المستعملة في ذلك هى الأقة، والتي تعادل قيمتها اليوم -١,٢٥٠ جرام- حيث كان هناك مكاييل بقيمة الأقة ومعايير بنفس القيمة تستعمل لوزن الزيت أو معايرته.

ب- أمدتنا هذه السلع بالعملات المتداولة في شرائها فوصلنا إلى جانب القرش، النصف فضة (١-١٩) ووحدات أقل منها مثل ٣/١ ميدي وعملات نحاسية عرفت باسم الجديد وعملات أقل منها وصلنا منها ٣/٢ جديد وهذه العملات يمكن استعراض سماتها فيما يلي:

١ - **النصف فضة** نقد تركي ضرب أولاً من الفضة بوزن قدره ١,١١ جرام، ثم انخفض وزنها إلى ربع في أوائل القرن ١٩م وقل ما فيها من فضة وفي سنة ١٨٤٤م أصبحت الفضة قطعة صغيرة من العملة النحاسية تضرب في استانبول وفي مصر على السواء، وقد أطلق الأتراك على الفضة اسم بارة الفارسية، غير أن الاسم المتداول في وثائق أسعار السلع موضوع البحث هو النصف فضة، والنصف -بدون فضة- والفضة[٣] بدون نصف، وكل هذه المسميات تنسحب على النصف فضة الذي قيمته ١/٤٠ من القرش، والذي تداوله التجار والعامة كوسيلة هامة لتحقيق مرونة العمليات

---

[١] - وصف مصر، لوحات الدولة الحديثة، لوحة ٢١.

[٢] - جيوار: المرجع السابق، ص٢١٥.

[٣] - وثيقه ٥٥٤، ص٥٧ ؛ وثيقه ٤٨٨، ص٥١ ؛ وثيقة ٥٥٣، ص٥٧.

التجارية في تلك السوق بعكس ما ورد عن ندرتها في بداية القرن ١٩م حتى أضحت نقوداً حسابية لا وجود لها في الواقع[١]، ولكن ورودها في وثائق الأسعار هذه يؤكد ظهورها مرة أخرى في النصف الثاني من القرن ١٩م، أو استمرارها في العمليات التجارية بالمدن المصرية منذ بداية القرن ١٩م. ومهما كان الأمر فان هذه النقود قد كانت تسك بحيث يشتمل وجهها على أمر الضرب ومكانه وتاريخه وعلى الظهر طغراء باسم السلطان المعاصر (شكل ٢). وقد سكت من هذه الأنصاف قطع بنصف واحد، ثم قطع ب٢٠ نصف وأخرى ب٤٠ نصف، وهى المصير عنها بالقروش، حيث أشارت وثائق الأسعار إلى ذلك بحيث كان هناك الأنصاف العددية (١-١٩) ثم قطع عشرينية، وأخرى ذات ٤٠ نصف، كما وجدت عملات أقل منها عرفت باسم ٣/١ مديني أو ٣/١ نصف الفضة المتداول حسبما أشارت إلى ذلك هذه الوثائق.

٢ - العملات النحاسية المعروفة باسم "الجدد" أشارت الوثائق إلى تداولها في عمليات البيع والشراء داخل هذه السوق فوجد منها "الجديد" و"٢/٣ جديد"، وهذه العملات النحاسية قد سكت لمواجهة ندرة العملات الفضية واتخذت اسم "جديد"، أي ما صنع حديثاً أو النقود التي صنعت مؤخراً[٢]، وهذه الأجداد -جمع جديد- توقف سكها قبل مجيء الحملة الفرنسية بزمن طويل ولكن كان فقراء الناس يستخدمونها في معاملاتهم في فترة الحملة بجانب استخدامهم قطعاً من النحاس غير مسكوكة، ويبدو أن هذه العملات النحاسية قد استمرت متداولة في الفيوم منذ إصدارها وحتى النصف الثاني من القرن ١٩م، بدليل إثباتها في وثائق أسعار السلع داخل هذه السوق (شكل ٢ أ ،ب). وقد كان يسجل على هذه العملات على الوجه مكان الضرب وتاريخه، وعلى الظهر أما زخارف هندسية أو طفراء باسم السلطان، وعلى الوجه كان يسجل تاريخ توليه السلطان وأعلى حرف الباء في كلمة ضرب تاريخ الإصدار مختصراً، كما

---

[١] - عبد الرحمن فهمي: المرجع السابق، ص٥٧٣.

[٢] - صموئيل برنار: المرجع السابق، ص٨١.

كان الحال بالنسبة للأنصاف الفضية من حيث وجود وحدات نقدية أقل وجدت كذلك بالنسبة للأجداد وحدات أقل مثل ٣/٢ جديد[١] ، وهذه كانت عملات مكملة للعملات الفضية وكان نصف الفضة يعادل ١٠ أجداد[٢] .

ج- سجلت هذه الوثائق الكثير من أسماء السلع وأسعارها المتداولة في شرائها، مما كان له أثره الواضح في تبيان ما كانت تحويه السوق من حوانيت تجارية متعددة أثبت شمولية العملية التجارية داخلها، إلى جانب هذه العمليات التجارية فان دراسة هذا النشاط التجاري يكشف عن جانب اجتماعي هام يتضح في الوظائف الحرفية والزراعية التي كان يشغلها أهل الفيوم في تلك الفترة، فوجد إلى جانب تجارة الغلال، وتجار الخضر والفلاحين، والقصابين، تجار في الأقمشة، وتجار في الحصر وصناع في تبيض النحاس، وتجار في الخضر، إلى جانب تجار في الأدوات الكتابية، والزياته ..الخ.

د- أوضحت الدراسة المكاييل والموازين المتداولة في بيع هذه السلع، فوجد الإردب، والكيلة والربع والقدح، والأقة ومعاييرها، مما يكشف عن أسلوب بيع هذه السلع في تلك الفترة.

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت في عرضي للنشاط الاقتصادي والاجتماعي داخل سوق كبير من أسواق مدننا المصرية.في القرن ١٩م.

---

١ - وثيقة ٥٥٤، ص٥٧

٢ - جبرييل برنار: المرجع السابق، ص٨٢.

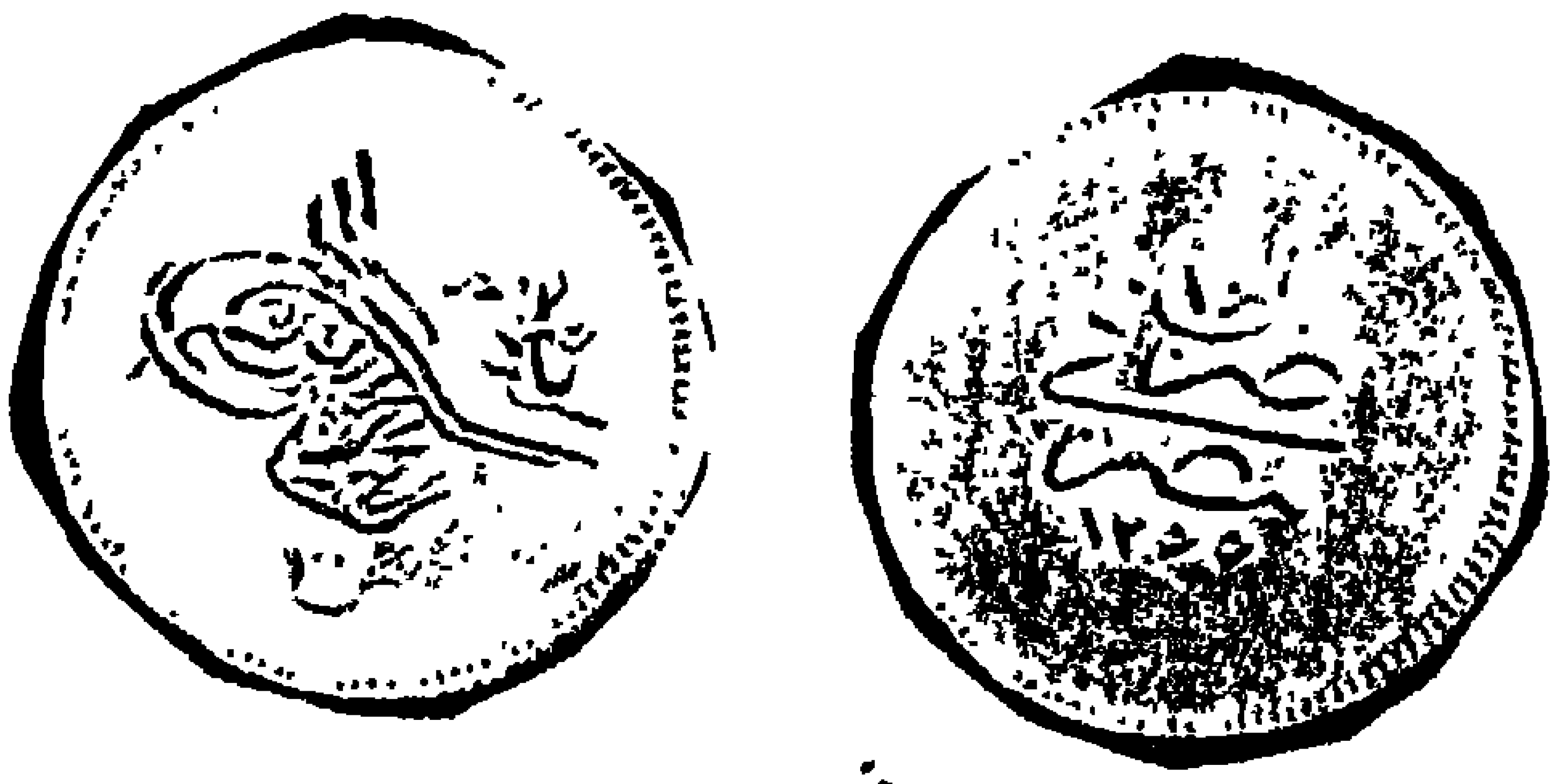

ش (١)

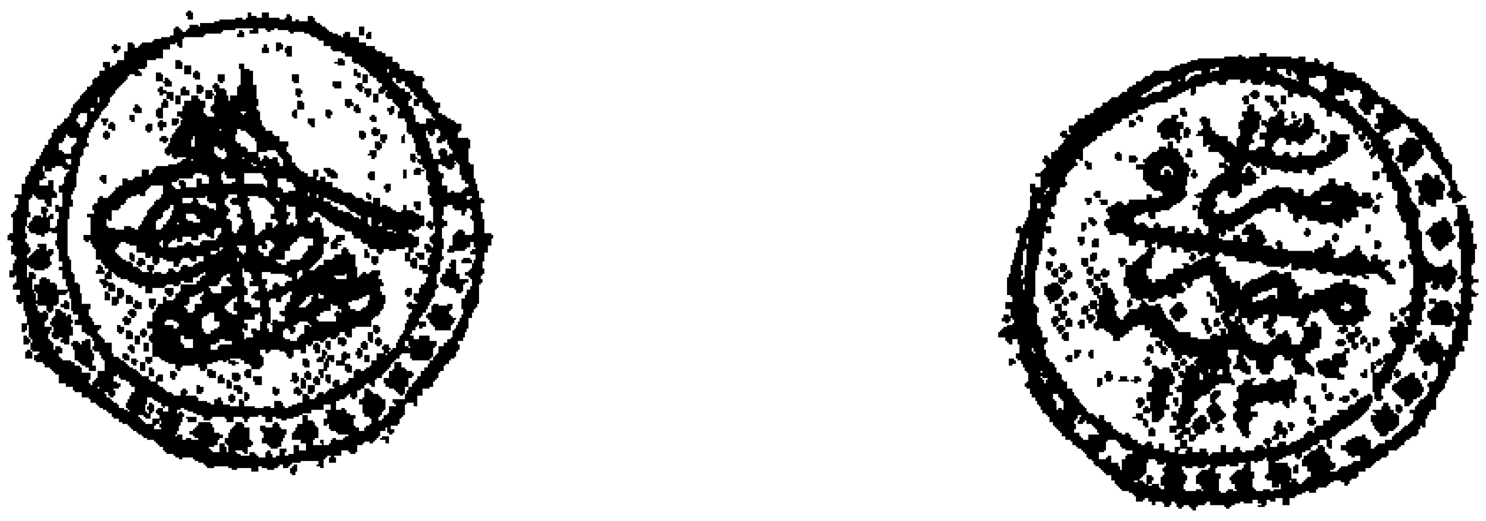

ش (٢)

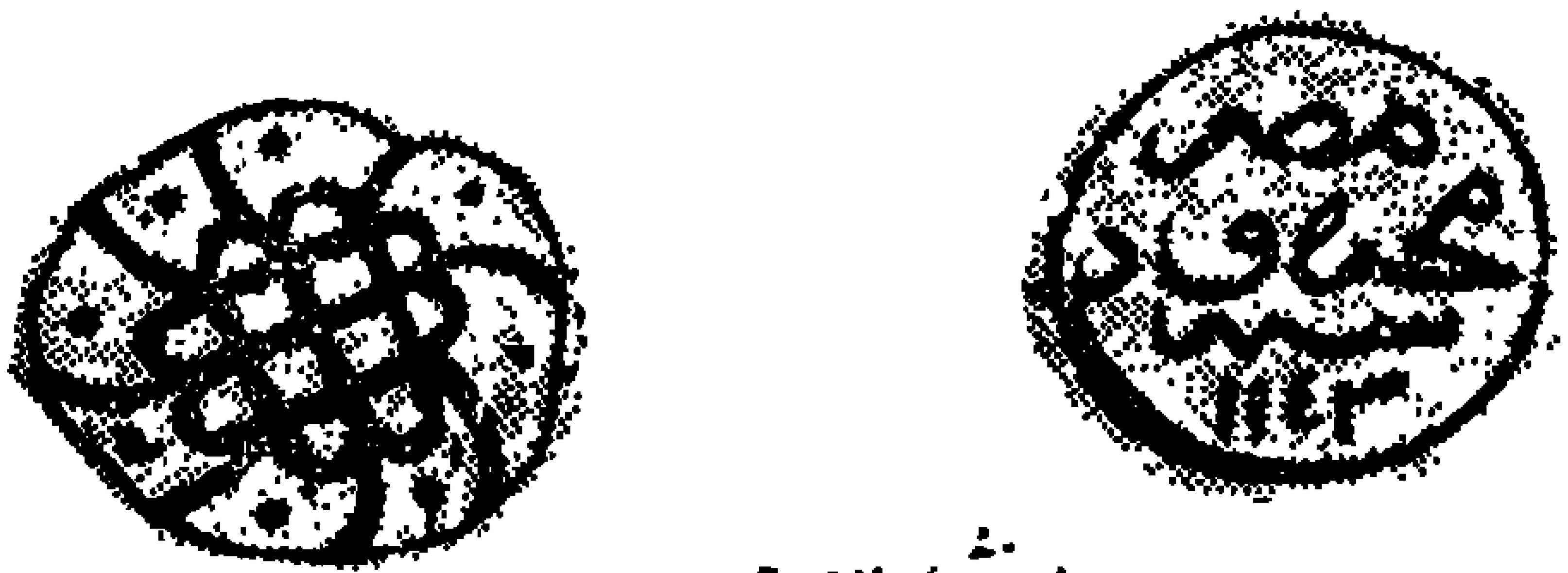

ش ٣ أ

ش ٣ ب

شكل (١)، (٢) أنصاف فضة (عن كتاب وصف مصر)٠

شكل (٣) أ، ب جدد نحاسيه (عن كتاب وصف مصر)٠

من وثائق المحكمة الشرعية برشيد

وثيقة استدعاء الصناع

خالد عزب

المجلس الأعلى للآثار

شهدت منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي خلال القرن ١٠هـ/١٦م صراعاً حاداً بين الدولة العثمانية والبرتغاليين، كان هذا الصراع امتداداً لما شهدته المنطقة في العصر المملوكي.

فقد تمكن البرتغاليون بعد كشف فاسكو دي جاما لطريق رأس الرجاء الصالح، ووصوله إلى الهند سنة ١٤٩٧-١٤٩٩م من التمركز على الشواطئ الغربية للهند، وشرقي أفريقية، وعملوا على شن حرب ضد المراكب والتجارة الإسلامية في المحيط الهندي، وسعوا للسيطرة على المفاتيح الإستراتيجية لطرق التجارة الإسلامية، واستطاعوا أن يستولوا على "غوئا" في غرب الهند سنة ١٥١٠م، وجعلوا منها مركزاً عسكرياً لهجماتهم، وعلى مالاقا سنة ١٥١١م، ونزلوا في جزيرة هرمز سنة ١٥٠٧م، واستولوا على مسقط سنة ١٥٠٨م، وغدت لهم السيادة في الخليج العربي سنة ١٥١٥م عندما استولوا على هرمز[١].

حاولوا أيضاً -ولكن دون جدوى- أن يكون لهم قاعدة مهيمنة في البحر الأحمر، إلا انهم لم يفلحوا في تحقيق مشروعاتهم وعمل المماليك في عهد السلطان قانصوه الغوري للرد على تلك الهجمات، فأرسل الغوري الأمير حسين الكردي إلى جدة فحصنها، وفي سنة ١٥٠٨م بعث معه أسطولاً قوياً لمساعدة السلطان محمود

---

١ F. R. C. Bagley, Egypt and The Eastern Arab Countries in The First Three Centuries of The Ottoman Turks – in: The Muslim World, part III, Leiden-Brill, 1969, pp. 57-58 ;
البكري، محمد بن أبي السرور، ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: المنح الربانية في الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دمشق ١٩٩٥م، ص١٤٦.

سلطان كجرات في الهند، وانتصر في بادئ الأمر في "شاول" جنوب بومباي، إلا أن المماليك هزموا في "ديو" سنة ١٥٠٩م، وكان من أهم نتائج هذه المعركة أنها شجعت البرتغاليين على التقدم جنوب البحر الأحمر ومهاجمة عدن لجعلها قاعدة لهم يدخلون منها إلى البحر الأحمر.

أما حسين الكردي فقد فر بما بقى من الأسطول المملوكي إلى جدة، وأخذ في ترميم أسوارها، وإزاء ذلك بدأ الغوري في عقد تحالفات جديدة مع ملوك الهند، وأرسل إلى السلطان العثماني بايزيد يطلب منه الإمدادات والخبرات العثمانية لإعادة بناء الأسطول لدحر البرتغاليين، فوصلت أثر ذلك عدة سفن عثمانية في شوال سنة ٩١٦هـ/١٥١١م تحمل إمدادات، وكان هذا بداية الوجود العثماني في البحر الأحمر، أعقب ذلك وصول كمال رئيس لتنظيم الأسطول المملوكي ومعه ثماني سفن حربية وثلاثمائة مدفع والعديد من الإمدادات، ثم أعقب ذلك وصول إمدادات عثمانية إضافية مع القائد البحري حامد رئيس .

أرسل السلطان الغوري بعد ذلك في سنة ١٥١٥م أسطولاً مملوكياً عثمانياً مشتركاً لمهاجمة البرتغاليين، حيث قاد الأمير المملوكي حسين الكردي والقائد البحري العثماني سليمان رئيس لمهاجمة البرتغاليين في المحيط الهندي، ونجح في احتلال عدن سنة ١٥١٦م وعاد إلى جدة.

ومع ضم مصر والشام والحجاز إلى الدولة العثمانية بدأت مرحلة جديدة في الصراع الإسلامي البرتغالي، في تلك الأثناء دخل الأسطول البرتغالي بقيادة لويو سواريز سنة ١٥١٧م البحر الأحمر ليقضي على الأسطول المصري العثماني، وبعد أن اقترب من جدة -التي وجدها حصينة جداً- غادرها واحتل جزر كمران التي لم يلبث أن غادرها أيضاً، ونهب زيلع واقترب ثانية من عدن، ولكنه اضطر للانسحاب.ونزل

- عبد الحميد سليمان: تاريخ الموانى المصرية في العصر العثماني، القاهرة ١٩٩٤م، ص٤٥-٤٦.

أسطول في مصوع حاملاً بعثة إلى الحبشة. ودخلت الدولة العثمانية منذ تلك الأثناء دائرة الصراع الدائر في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي للسيطرة على طرق التجارة مع الشرق وإعادتها ليد المسلمين.

هكذا قامت الحملة البحرية الأولى بقيادة سليمان رئيس واتجهت نحو اليمن وعدن، واستولت في طريقها على سواكن سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م، وفي سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م طلب راجا كاليكوت وسلطان كجرات العون من السلطان سلميان ضد البرتغاليين، وفي سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م قام سليمان باشا الخادم والي مصر بتكليف من السلطان سليمان بحملته الأولى التي لم تحقق نجاحاً ما، إذ توقفت في عدن، إلا أن السلطان طلب إليه الإعداد لحملة ثانية وبناء ثمانين سفينة في السويس، قدم له أخشابها وكل ما تحتاجه من أمور. وفي سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م -أثناء الولاية الثانية لسليمان باشا الخادم- خرج أسطول عثماني من السويس وجدة إلى كجرات واستولى في طريقه على عدن[١]، وحاصر ديو ثلاثة أشهر، ولكنهم اضطروا للارتداد خائبين في سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م، عندما اتفق الكجراتيون مع البرتغاليين.

خرجت بعد ذلك أخر الحملات البرتغالية إلى البحر الأحمر من غوئا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م بقيادة استيفاو داجاما ابن فاسكو داجاما، فأبحر أولاً إلى مصوع حيث أنزل ٤٠٠ جندي بقيادة أخيه كريستوفاو -وقد لعب هؤلاء دوراً في حياة الحبشة، حيث ساعدوها ضد الإمام أحمد غران الذي اكتسح أرضها- ثم تهيأ استيفاو داجاما لمهاجمة جدة، إلا أنه انسحب من الحصار بعد مقاومة المدينة له، وقد أبحر حتى

---

١ - السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٩م، ص١٤٥، ١٤٦.

الطور في مدخل خليج السويس بأمل ملاقاة الأسطول العثماني، إلا أنه لم يجازف أبعد من ذلك[١].

تلا ذلك محاولة من بيري رئيس لإنهاء الوجود البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي، وبالرغم من نجاحه الذي حققه في تحرير عدن سنة ١٥٥١م ثم فتحه مسقط في حملة بحرية أخرى في نفس العام، إلا أنه أخطأ وشتت أسطوله في الخليج العربي، وتركه بعد ذلك هرباً إلى مصر، ليقضي البرتغاليين على هذا الأسطول، مما استدعى الحكم على بيري رئيس بالإعدام سنة ١٥٥٢م[٢].

أصبحت السويس في القرن ١٠هـ/١٦م ذات أهمية اقتصادية وتجارية وحربية بالنسبة للدولة العثمانية، إذ كانت هى قاعدة الأسطول العثماني في البحر الأحمر وأكبر ثغوره التجارية. ومن أبرز القواد الذين تولوا قيادة أسطول الدولة العثمانية في البحر الأحمر في القرن ١٠هـ/١٦م ، سليمان رئيس ٩٢٣هـ/١٥١٧م، سليمان باشا الخادم ٩٤٥هـ/١٥٣٨م[٣] فرهاد بك[٤]، بيرى رئيس ٩٥٤هـ/١٥٤٧م، مراد رئيس ٩٥٩هـ/١٥٥٢م[٥] على رئيس ٩٦٠هـ/١٥٥٣م، خضر رئيس بن الكردي ٩٦٧هـ/

---

١ - ليلى الصباغ: الغزو البرتغالي للبلاد العربية وموقف الدولة العثمانية منه في القرن ١٠هـ/١٦م، ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي، العين ١٩٩٠م، ص٤٩-١٠٩.

٢ - خالد عزب: المسلمون واكتشاف الأمريكتين، القاهرة ، ١٩٩٣م، ص٢٩، ٤٤.

٣ - أحمد فؤاد متولي: البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن ١٠هـ/١٦م، على ضوء الوثائق التركية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الامام محمد بن سعود العدد الرابع، ١٩٨٠م، ص٣٨٤، ٣٨٦.

٤ - لم أتوصل إلى تاريخ بدء قيادته للأسطول، ولكنه تولى هذه القيادة.

٥ - خالد عزب: المرجع السابق، ص٣٢، ٤٤.

١٥٥٩م[١]. وهؤلاء القادة عملوا من خلال توليهم قيادة الأسطول بالسويس على مواجهة النفوذ البرتغالي، وهو ما تطلب إجراء صيانة سنوية لهذا الأسطول.

موضوع الوثيقة

استدعى قبودان السويس حسن بك عن طريق الديوان عددًا من الصناع من ثغر رشيد[٢] ومدنية فوه[٣] ومحلة أبي علي[٤] وثغر البرلس[٥] إلى السويس لإجراء الصيانة السنوية للأسطول العثماني، وهو ما يعني أن غالبيتهم سبق وإن شاركوا في مثل هذا النشاط، وأرسلت من الديوان رسالة إلى كل جهة من الجهات المذكورة سلمت لقاضيها، والرسالة تطلب من القاضي أن يرافق الصناع المندوب المرسل، والوثيقة تعكس طبيعة العلاقات الإدارية بين أجهزة السلطات العثمانية في مصر، وهي تعد صدى للعصر الذي كتبت فيه، إذ شهد البحر الأحمر نشطاً حربياً عثمانياً في مواجهة البرتغاليين، إنطلاقاً من السويس إلى جنوب البحر الأحمر فالخليج العربي وشواطئ الهند

---

١ - أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق، ص٣٩٢.

٢ - **ثغر رشيد** ثغر مصري يقع إلى الجنوب من مصب فرع دلتا النيل الغربى بحوالى ٥ كيلومتر، كان له أهمية خاصة في العصر العثمانى من الناحية التجارية والحربية، ومازال باقياً به عدد كبير من الآثار المعمارية العثمانية التى تتنوع بين مساجد ومنازل ووكالات وأسبلة ملحقة بالمنازل. لمزيد من التفاصيل أنظر: طاهر الصادق وآخرون: مدن مصر ذات التبادل الحضاري، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٩٤م، كلية التخطيط الاقليمي والعمراني جامعة القاهرة والمعهد الفرنسى لأبحاث التنمية والتعاون.

٣ - **فوة** مدينة مصرية تقع إلى الجنوب من رشيد بحوالى ١٩ كيلومتر على الضفة الشرقية لفرع دلتا النيل الغربى، كانت ثغراً تجارياً هاماً في العصر المملوكي وتضاءلت أهميتها في العصر العثماني. خالد عرب: فوة مدينة المساجد، القاهرة ١٩٨٩م، ص١١-١٨.

٤ - **محلة أبو علي** قرية تقع على الساحل الشرقي للفرع الغربي لدلتا النيل، وتتبع حالياً مركز بمحافظة كفر الشيخ.

٥ - **البرلس** ثغر مصرى يقع على ساحل البحر المتوسط بين رشيد ودمياط، ويربطها بثغر رشيد قناة تخرج من بحيرة البرلس إلى فرع رشيد، وكان هذا الثغر يستقبل القادمين من المغرب العربي من الحجاج والطلبة والتجار خلال العصر العثماني. عبد الحميد سليمان: المرجع السابق، ص٢١، ٢١٤، ٢٩٢.

حتى إندونيسيا وماليزيا[١]، والوثيقة تعطي لنا صورة عن الحرف والحرفيين في الجهات المستدعى منها الصناع، وبالتالي فهى ذات طابع حربي واجتماعي واقتصادي.

وقد عُثر بسجلات المحكمة الشرعية بدمياط على وثيقة مماثلة، غير أن وثيقة دمياط موجزة، وهى مؤرخة بعام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م، تبرز التراتيب الإدارية المتخذة بهذا الشأن[٢].

مصدر الوثيقة

الشهر العقاري بدمنهور، سجلات المحكمة الشرعية برشيد، سجل ١٢، مادة ٩٢٠، ص٢٤٣.

نص الوثيقة

١-صدر هذا المرسوم الكريم إلى كل واقف عليه من قضاة الإسلام نفع الله بوجودهم الأنام والحكام والمتكلمين وولاة أمور المسلمين

٢-فيما يذكر فيه يتضمن إعلامهم أن قدوة الأمراء عمدة الكبراء الفخار ذوي القدر والاحترام صاحب القدر والاحتشام المختص

٣-بمزيد عناية الملك العلام أمير اللواء الشريف قبودان بندر السويس[٣] حسن بك دام إقباله عرفنا أن الحاجة دعت إلى إحفطار [إحضار]

---

[١] - محمود السيد الدغيم: موجز تاريخ البحرية العثمانية، بحث القي في مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب في نوفمبر ١٩٩٣م، ص١١، ١٢، ١٥، ١٦.

[٢] - عبد الحميد سليمان: المرجع السابق، ص٤٢٧، ٤٢٨.

[٣] - **قبودان** لقب قادة البحرية العثمانية بالسويس ويطلق عليه أيضاً "أمير اللواء الشريف السلطاني"، وقد كانت لقبودان السويس مكانة خاصة، نظراً للمسئوليات الحربية الملقاة على عاتقه، فقد تولى قيادة الأسطول العثماني في البحر الأحمر والتصدي للخطر البرتغالي، وتأمين عمليات نقل الحبوب المرسلة إلى الحرمين الشريفين، وكذلك تأمين السفن التي تحمل المسافرين من ميناء السويس إلى ميناء جدة وميناء ينبع. وإضافة إلى ذلك كان مسئولاً عن فرض الأمن والاشراف عليه في الموانى وعلى القائمين عليه، كما كان عليه ضبط الأمن داخل أرصفة الميناء ومداخله ومخارجه بحيث لا تخرج سفينة منه ولا تدخل إلا بإذنه. أما بالنسبة لنفقات صيانة سفن الأسطول بالسويس فقد كانت تتم على حساب الخزينة السلطانية على أن يحاسب عليها الباشا خصماً من جملة المستحق عليه للسلطان، وقد نقلت لنا وثائق

٤-جماعة الجلافطة[1] والحدادين من ثغر رشيد والبرلس ومدينة فوه ومحلة أبي علي بسبب إلى الديار المصرية عماير مراكب

٥-السلطنة الشريفة كما هو العادة في ذلك فما هو من ثغر رشيد من الجلافطة أنفار عدة سبعة وأربعين هم شحاته بن محمد وسالم

٦-الرفيتي وغالي بن شقير وحميد بن يوسف وعبد المهيمن وعلي بن عيسى وإسماعيل وشرابي وعيسى بن علي وعبد الرحمان وعلي شباط

٧-وسليمان بن خالد وابن إبراهيم ورمضان الشويمي ونور الدين وسالم الفار وعبد الخالق ومنصور بن عبد الخالق وعلي المحلاوي

٨-ومحمد بن خطاب وعيادة المغربي وعلي الزغبي وحسن حطيبه وحجازي بن عبد الكريم وعبد الجليل البيسي ومنصور حطيبه ومجدي منصور

٩-وعياد الأسود وأحمد درع وشعبان بن قحه وأحمد الفار وسليمان بن سليمان وشهاب الدين بن سمم ومحمد اليسي ومحمد فوله وعلي اليسي وعلي

١٠-عجوة وعزيز بن فليفل وحجازي بن أبي بكر وعلي ريسه وسالم شكشوك وجابر بن محمد وحسن الصعيدي وأحمد الصعيدي ومحمد

١١-بن عثمان وعلي الفار ومحمد الكوسه وأحمد جلاجل ومن جماعة الحدادين بالثغر المذكور شهاب الدين والمعلم ياسين جبر

الديوان العالي الخاصة بمحاسبة سليمان باشا ١١٥٣هـ/١٧٤٠م بعد عزله أن من جملة ما خصم من المستحق عليه ما أنفقه في صيانة هذه السفن، وما خص ثغر السويس في حساب هذا الباشا بعد عزله فهو "تعمير وترميم سفاين ميري در بندر سويس". علي محمد فهمي: البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية، جامعة الاسكندرية.١٩٧٣م، ص ٣٧٥ ؛ عبد الحميد سليمان: المرجع السابق، ص٧٠، ٧١، ٧٢.

[1] - **الجلافطة** طائفة من الحرفيين كانوا يقومون بقلفطة ألواح السفن بخيط القطن والشمع، ويستعمل القلافطة برشيد الكتان في قلفطة الأجزاء التي بين ألواح المراكب حتى لاتتسرب منها المياه. وذكرت سجلات المحكمة الشرعية برشيد العديد من أسمائهم في قضايا تتعلق بصيانه المراكب الراسية بالمدينة. علي فهمي: البحرية الإسلامية، ص ٣٧٥ ؛ صلاح هريدي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة رشيد في العصر العثماني، المجلة التاريخية، العدد ٣٠، ٣١ سنة ١٩٨٤م.

١٢-والمعلم عبد العزيز بن خضر والمعلم منصور الضبع والمعلم أحمد أبو قمع والمعلم شهاب الدين وعدتهم ستة أنفار وما هو بناحية

١٣-فوه من الجلافطة ستة أنفار محمد بن عوض وسالم بن عوض وعلاء الدين بن عوض وعبد الرحمان بصيلة وعلي بن يونس وما هو بثغر البرلس

١٤-هم أربعة عشر نفر هم علي الحمامي ومحمد الحماشي وشرف الدين بن الهندي والسيد يعلي ويوسف بن عبد القادر ومنصور بن عبد القادر

١٥-وعلى حلبه وشهاب الدين حلبة والمنشاوي وعبد السلام ومحمد وأبو أحميد ومنصور أبو أحميد وعلي بن الأزرق وما هو بناحية محلة أبو علي

١٦-ثلاثة أنفار هم شهاب الدين ومحمد المهير وعلي المهير وعدة المطلوب من النواحي المذكورة تسعة وستين نفراً وقد رسمنا

١٧-بأن يتقدموا ساعة وصوله إليهم بجمع المذكورين من الجلافطة والحدادين بعينهم من النواحي المذكورة وتجهزيهم للديار

١٨-المصرية باالسرعه والعجلة صحبة المعين في هذا الخصوص ليقوموا بما عليهم من خدمة السلطنة الشريفة على العادة من

١٩-غير تأخير ولا تقصير كل يجهز ما هو داخل في تكا .. لا يتأخر وفي سوى مسافة الطريق ونأكد في ذلك غاية التأكيد

٢٠-قولاً واحداً لازماً وأمراً جازماً فإن المهمات السلطانية لا رخصة فيها ولا تهاون ولا عذر مقبول فاليبادرو

٢١-إلى ما رسمناه به من غير عذر واليعتمدوه تحريراً في أواخر شهر جمادى الأولى سنة تسعين وتسعماية

٢٢-على يد فخر أقرانه

٢٣-مصلح الدين[1]

٢٤-من ريس العمارة

٢٥-الشريفة ببندر السويس

التعليق على الوثيقة

١-أضافت لنا هذه الوثيقة اسماً جديداً لأحد قبودانات السويس و هو حسن بك.

٢-تدل أرقام الحرفيين الذين تم استدعاؤهم على إزدهـا ونمو مدينـة رشـيد في العصـر العثماني عن غيرها من الثغـور الأخـرى، فقـد تم اسـتدعاء ٤٧ مـن الجلافطـة و٦ حدادين من رشيد، بينما تم استدعاء ١٤ حرفي من السـبرلس و٦ جلافطـة مـن فـوه و٣ حرفيـين مـن محلـة أبـو علـي، والمقارنـة الرقميـة تكشـف عـن حجـم النشـاط الاقتصادي في هذه الثغور.

٣-من الملاحظ أن عدد الجلافطة الوارد أسماؤهـم بالوثيقة ٤٨ بينما كاتب الوثيقة ذكر أن عدد من سيتم استدعاؤهم ٤٧ جلفاط.

٤-ذكر كـاتب الوثيقـة أن عـدد الحرفيـين المسـتدعين مـن فـوه سـتة، بينمـا المذكـور أسماؤهم خمسة.

٥-لم يحدد كاتب الوثيقة إن كان الحرفيـين المسـتدعين مـن الـبرلس مـن الجلافطـة أو الحدادين.

٦-من الملاحظ من أسماء الحرفيين وجود عائلات تخصصت إما في الجلفطة أو الحدادة.

٧-ذكرت الوثيقة إن عدد الحرفيين المستدعين ٦٩ حرفي، بينما يبلغ الحرفيين المذكـور أسماؤهم بها ٧٦ حرفي. ويبدو أن الكاتب لم يكن دقيقاً في نسـخ الرسـالة المسـلمة لقاضي رشيد.

---

[1] – هو كاتب الوثيقة أو ناسخها، وكان يشترط في الكتاب في المحاكم الشرعية معرفتهم بمدلولات الألفاظ العربيـة واللغويـة وسـهولة العبارة. عبد الحميد سليمان: المرجع السابق، ص١٠١.

البلاطات الخزفية العثمانية بجامع الصيني بمدينة جرجا

د. أحمد عيسى أحمد

جامعة جنوب الوادي

استعملت مصر الإسلامية الجص إلى جانب الحجر و الرخام، أما البلاطات الخزفية فلم تعرفها إلا في عصر المماليك[١] حيث عرفت صناعة البلاطات لكسوة الجدران في نهاية عصر المماليك لكن هذه الصناعة لم تبلغ ما بلغته في إيران و تركيا وبلاد المغرب والأندلس.

وقد استعملت البلاطات لكسوة القمة المضلعة في منارة خانقاه بيبرس الجاشنكير ٧٠٩هـ/١٣١٠م، ثم في قمة مئذنة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م وفي قمة مئذنة الغوري ٩٠٩هـ/١٥٠٤م، كما استعمل في تكسية رقاب القباب مثل قبة طشتمر[٢]. كذلك استخدمت البلاطات في تكسية القباب كلها من الخارج كما في قبة الإمام الشافعي من عمل السلطان قايتباي، حيث كانت مكسوة ببلاطات خضراء اللون، وفي قبة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة التي جددها السلطان قايتباي أيضاً في ق٩هـ/١٥م[٣]. كذلك زخرفت المحاريب وأنفسة العقود العاتقة في العصر المملوكي بالبلاطات وهو الأسلوب الذي استمر في العصر العثماني[٤].

---

١ - محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة سنة ١٩٨٧م، هامش ص٨٢.

٢ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام، القاهرة سنة ١٩٤٨م، ص٣٢٦-٣٢٧.

٣ - حسن عبد الوهاب: التأثيرات العثمانية على العمارة الإسلامية في مصر، مجلة المجلة، العدد٣٣ السنة، سبتمبر ١٩٥٩م، ص٤٣- ٤٤

٤ - طه عبد القادر عمارة: العناصر الزخرفية المستخدمة في مساجد القاهرة العثمانية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٨٨م، ص٢٧-٣٦.

هذا و قد استخدمت في مصر الفسيفساء الخزفية في عصر المماليك البحرية، حيث كسيت بها رقبة قبة أصلم البهائي ٧٤٦هـ/١٣٤٥م وفي رقبة قبة ضريح خوند طوغان زوجة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ويعد هذا الأسلوب ذا أصل إيراني وفد إلى مصر في عهد المماليك البحرية[١].

البلاطات الخزفية العثمانية

عندما تصدعت فسيفساء قبة الصخرة في القرن ١٦م أخذ السلطان سليمان القانوني على عاتقه تجديد زخارف جدران القبة باستخدام البلاطات الخزفية نراه يستقدم من تبريز بعض الخزافين الذين تركوا توقيعاتهم على كثير من البلاطات، وقد أصدر السلطان أوامره بالعناية بإنتاج البلاطات الخزفية في مدينة أزنيك[٢] لكي يسهم خزافوا هذه المدينة مع خزافي تبريز في عملية تجديد القبة المذكورة، وظهر في هذه البلاطات اللون الأحمر الطماطمي كما في مسجد رستم باشا ٩٦٩هـ/١٥٦١م[٣]، ويعد هذا المسجد أول مثل تكسو كل جدرانه البلاطات الخزفية من صناعة أزنيك[٤]، ويعتبر تعدد الألوان هو أول ابتكار قدمه العثمانيون لفن الخزف[٥].

وكان الخزافون في مدينة ازنيك يعملون وفق أوامر الحكام لإنتاج البلاطات لمباني الولايات، حيث استخدم في تنفيذ هذه البلاطات نماذج جهزها فنانوا البلاط في استنبول على الورق ثم تم نقلها على البلاطات الخزفية في ازنيك[٦].

---

١ – طه عبد القادر عمارة: المرجع السابق، ص٣٣.

٢ – مدينة ازنيك هي مدينة نيقيه البيزنطية الشهيرة والتي تبعد حوالي ٩٠ ميلًا جنوب استنبول.

Rice, D.T, Islamic art, Thames and Hudson, London, 1975 , p 193 ; Lame, A, Later Islamic pottery, Persia , Syria ,Egypt, Turkey, Faber And Faber, London, P144

٣ – محمد عبد العزيز مرزوق: المرجع السابق، ص٧٩.

٤ – طه عمارة: المرجع السابق، ص٧٢.

٥ – آصلان آپا، أوقطاي: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى ، استنبول ١٩٨٧م، ص٢٥٥.

٦ - Hayward Gallery , 8 April - 4 July 1976, The arts of Islam,The arts council of Great Britain, 1976, p 270.

وفي مصر استمرت مصانع الخزف المملوكية في إنتاجها من الخزف حتى منتصف القرن ١٦م وفقاً للأساليب و الزخارف المملوكية سواء في إنتاج بلاطات ذات لون واحد هو الأخضر في أغلب الأحيان[١]، ومن أهم نماذج هذه البلاطات تلك التي تكسو قباب أروقة مسجد سليمان باشا بالقلعة ٩٣٥هـ/١٥٢٨م، وكذا القبة الكبيرة بنفس المسجد[٢] وقبة الشيخ سعود ٩٤١هـ/١٥٣٤م[٣]، وكذا قباب مدرسة سليمان باشا والي مصر و تمت بعد وفاته ٩٥٠هـ/١٥٤٣م[٤].

وقد اعتمدت مصر في مطلع القرن ١٧م و النصف الأول من القرن ١٨م على البلاطات المستوردة من الدولة العثمانية من صناعة مدينة أزنيك أو كوتاهيه أو استنبول[٥]، حيث وجدت في العمائر الدينية والمدنية على حد سواء ففي العمائر الدينية استخدمت البلاطات الخزفية في المحاريب حيث يعتبر محراب مسجد الملكة صفية ١٠١٩هـ/١٦١٠م أقدم المحاريب في مصر العثمانية المزينة بالبلاطات الخزفية، كذلك استخدمت البلاطات الخزفية في كسوة مناطق دائريه تعلو المحاريب، وأول مثال لها في مسجد آق سنقر الفرقاني ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م[٦]، كذلك استخدمت البلاطات في تكسية جدران بأكملها، وتعتبر بلاطات مسجد إبراهيم أغا مستحفظان (آق سنقر) ٦٠-١٠٦٢هـ/٥١-١٦٥٢م من أهم مجموعات البلاطات التي عملت خصيصاً للمسجد والمدفن فأكسبته شهرة بين الزوار الأجانب وأطلقوا عليه اسم المسجد

---

[١] - حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص٤٣.

[٢] - ربيع حامد خليفة: فنون القاهرة في العصر العثماني، القاهرة سنة ١٩٨٥م، ص٢٩.

[٣] - تقع هذه القبة في من شارع سوق السلاح بالقاهرة. ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٣٢.

[٤] - حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص٤٤.

[٥] - ربيع حامد خليفة: المرجع السابق، ص٣٠-٣١

[٦] - ربيع حامد خليفة: المرجع السابق، ص٣٦-٣٧

الأزرق[١]، وتعد مجموعة بلاطات مسجد مصطفى جوربجي ميرزا ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م أكبر مجموعة من البلاطات في مساجد القاهرة في العصر العثماني بعد مجموعة مسجد إبراهيم أغا[٢]

هذا ولم تكن مصر العليا بمعزل عن الحركة الفنية التي تجري في القاهرة في العصر العثماني، حيث تأثرت المدن الكبرى في مصر العليا بالأساليب المعمارية والفنية في القاهرة، وعلى رأس هذه المدن جرجا عاصمة ولاية الصعيد في العصر العثماني لفترة طويلة، وان كان هذا التأثر مرتبط إلى حد كبير بالحالة الاقتصادية للمنشئ وطبيعة البيئة المحيطة.

كذلك نجد في مصر العليا كثيراً من العناصر المعمارية والفنية التي جاءت من تركيا، مثال ذلك المساجد ذات الأعمدة الخشبية التي نجد نماذجها في مسجد الأمير حسن باخميم ومسجد سيدي جلال بجرجا ومسجد الصيني بجرجا[٣] وغيرها والتي عرفت في تركيا في عصر السلاجقة، ومن أهمها مسجد أشرف أوغلو في بيشهر ٦٩٦هـ/١٢٩٧م[٤]، كذلك عرف استخدام البلاطات الخزفية في مساجد مصر العليا في العصر العثماني في عمائر قليلة حيث وجدت في نفيس المدخل الشرقي لجامع الأمير محمد (السوق) بأخميم قبل ١١١٦هـ/١٧٠٤م[٥]، وفي الجامع الصيني بمدينة جرجا موضوع الدراسة.

---

[١] - حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص٤٩

[٢] - طه عمارة: المرجع السابق، ص٢٢٠-٢٢١

[٣] - أنظر وصف مساجد الأمير حسن وسيدي جلال والصيني في: جمال عبد الرؤوف: مساجد مصر العليا الباقية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر العثماني، رسالة ماجستير غير منشوره، كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م، ص١٣٧، ٢٠٨، ٢٢٦.

[٤] - أصلان آبا: المرجع السابق، ص٩٣-٩٤

[٥] - جمال عبد الرؤوف: المرجع السابق، ص٤٠٥

الجامع الصيني

يقع الجامع الصيني في الجزء الشرقي من مدينة جرجا في منطقة القيسارية على مقربة من النيل، أنشأ المسجد الحالي الشيخ عبد المنعم أبو بكري[١] في مكان المحكمة الشرعية في سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م[٢]، وبالمسجد من الداخل أربعة أعمدة خشبية ذات قواعد وتيجان خشبية تحمل السقف الخشبي المسطح مباشرة تتوسطه شخشيخة كبيرة، وأخرى أصغر تعلو المربع الذي يلي المحراب الرئيسي، والذي بداخله دخلة صغيرة لتصويب اتجاه الصلاة، وطاقية المحراب ذات ضلوع إشعاعية تخرج من قمة عقد المحراب لتملاء الطاقية، و يعلو المحراب نافذة مستطيلة صغيرة عليها ستارة خشبية، وعلى يمين المحراب يوجد مدخل خلوة شيخ المسجد وهى فتحة مستطيلة داخل دخلة يتوجها عقد ثلاثي بداخله نافذة مستطيلة عليها ستارة خشبية، ويعلو العقد الثلاثي نافذة كبيرة تصل حتى نهاية ارتفاع الجدار، وفي أقصى يمين جدار القبلة توجد نافذة كبيرة داخل دخلة يتوجها عقد ثلاثي، تعلوها نافذة مستطيلة تصل حتى نهاية الجدار عليها ستارة من سدايب خشبية، وعلى يسار المحراب الرئيسي المنبر الخشبي، والى يساره محراب آخر صغير بطاقيته ضلوع مشعة لكنها غير مكسوة بالبلاطات الخزفية، تعلوها نافذة مستطيلة عليها ستارة خشبية، وفي الجدار الشرقي توجد خمس نوافذ سفلية كبيرة كل منها داخل دخله يتوجها عقد ثلاثي، تعلوها خمس نوافذ مستطيلة أصغر يتوج كلا منها عقد مدبب. أما الجدار الغربي فبه نافذتان سفليتان مماثلة للنوافذ السفلية بالجدار الشرقي، وفتحة مدخل صغيرة تؤدي للميضأة، كما توجد دخلتان كبيرتان كل منهما داخل دخلة يتوجها عقد ثلاثي، وفي علو هذا الجدار خمس نوافذ تماثل النوافذ العليا بالجدار الشرقي، ونافذة أخرى صغيرة تعلو المدخل المؤدي للميضأة.

---

[١] - الشيخ عبد المنعم أبو بكري الخياط من أبرز العلماء المشهورين في عصره وهو رأس أسرة أبو بكري بجرجا، وله ضريح معروف بها. انظر: المراغي، الشيخ أبو حامد الجرجاوي: سلافة الشراب الصافي البكري، تحقيق أحمد حسين النمكي، سنة ١٩٩٤م، ص٦١.

[٢] - المراغي: سلافة الشراب الصافي، ص١٠٣-١٠٤.

وفي الجدار الغربي توجد ثلاث نوافذ سفلية مماثلة يعلو كل منها نافذة أخرى مماثلة لنوافذ الصف العلوي بالجدار الشرقي، وتوجد بهذا الجدار المدخل الرئيس للمسجد[١].

وصف البلاطات الخزفية بمسجد الصيني

يغطي الجزء الشرقي من جدار القبلة ببلاطات خزفية كاملة، بينما يغطي الجزء العلوي من الجزء الغربي لجدار القبلة وكذا الجزء الجنوبي لكلا الجدارين الشرقي والغربي بأجزاء من بلاطات خزفية، وهي أجزاء غير منتظمة تخلفت عن بلاطات محطمة.(شكل ١)

وقد تلاحظ لنا أن معظم الأجزاء الصغيرة من البلاطات -الشقافات- من نفس أنواع وتصميمات البلاطات الكاملة، لذا سوف نعرض في دراستنا للبلاطات الكاملة. تنقسم البلاطات من حيث التصميم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: بلاطات مفردة مربعة الشكل متشابهة، يبلغ طول ضلع كل منها ٢٤,٨ سم.

النوع الثاني: وهو بلاطات مستطيلة تستخدم كإطارات لتجميعات البلاطات المربعة.

النوع الثالث: وهو بلاطات التجميعات التي تكون فيما بينها موضوعاً زخرفياً متكاملاً.

بلاطات النوع الأول: وهي تأخذ أربعة تصميمات مختلفة:

التصميم الأول: (شكل٢)، وهو يشغل الجزء الذي يلي المنبر فيما يعلو المحراب وعلى جانبية، ويزخرف هذه البلاطة مزهرية ذات قاعدة مخروطية تزخرفها خطوط منحنية، وبعضها يزخرفه فرع نباتي تتفرع منه زهرتا (لاله) ومن أسفل نصف زهرة مستديرة، وبعضها تزخرفه زهرتان محورتان، وكذا من أسفل نصف زهرة مستديرة، ويخرج من

---

١ - عن وصف هذا المسجد أنظر: محمد عبد الستار عثمان: جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني، مجلة دراسات أثرية إسلامية، المجلد الثالث، القاهرة سنة ١٩٨٨م، ص٢٢٢-٢٢٨ ؛ جمال عبد الرءوف: المرجع السابق، ص٢٢٦-٢٤٣.

هذه المزهرية أفرع نباتيه بها أوراق وأزهار عبارة عن أشكال محورة عن زهرة (لاله) على الجانبين تحصران فيما بينهما سبع أشكال محورة لزهرة القرنفل موزعة توزيعاً زخرفياً يصنع شكلاً نصف دائري أعلى المزهرية، ويلاحظ وجود شكل زخرفي مفصص يجمع الأفرع النباتية الخمسة التي تنتهي بأزهار القرنفل، ويكتنف المزهرية من أسفل فرعان نباتيان من كل جانب يلتفان ويخرج منهما أشكال محورة لزهرة اللاله، ويكتنف المزهرية، وعلى جانبي البلاطة نصفا شجرة سرو منفذه بشكل زخرفي، بحيث يكون نصف شجرة السرو في هذه البلاطة ونصف الشجرة في البلاطة الأخرى شجرة كاملة، كما يخرج من نصفي شجرة السرو على الجانبين فرع نباتي منحني تخرج منه أوراق نباتية محورة. ويلاحظ أن الزخارف رسمت بالألوان الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء في حين استخدم اللون الأسود لتحديد العناصر الزخرفية في البلاطة.

التصميم الثاني: (شكل٣)، وهو يوجد في الجزء يمين المحراب وأعلى النافذة الشرقية، ويزخرفها في الوسط زهرة نباتية كبيرة تمثل شكلاً محوراً لزهرة القرنفل رسمت بشكل زخرفي حيث رسمت بداخلها مجموعة من الوريدات، ويخرج من الركنيين السفليين للبلاطة ورقتان رمحيتان بداخل كل منهما فرع نباتي به ثلاث ورقات نباتية خماسية البتلات وضعت بشكل زخرفي، و تتجه إلى الركنين العلويين للبلاطة زهرتا قرنفل صغيرتا الحجم نسبياً وتخرج من أعلى كل منهما زهرة صغيرة، وتخرج من جانب كل منهما زهرة لاله، ومن أعلى البلاطة ومن أسفلها ثلاث أنصاف لزهرات محورة مستديرة تكون هذه الأنصاف مع أنصاف الزهرات في البلاطات الأخرى زهرات كاملة، كما توجد نصف زهرة كبيرة محورة على كل من جانبي البلاطة تكون مع الأنصاف في البلاطات المجاورة زهرات كاملة، ويلاحظ أنه توجد داخلها أوراق نباتية صغيرة. وقد نفذت هذه العناصر الزخرفية لهذه البلاطات اللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء، وكذلك استخدم اللون الأسود في تحديد التفاصيل الداخلية للأوراق النباتية

التصميم الثالث: (شكل٤)، وهو يوجد أسفل يسار المحراب، وفى عقده، وفى تضليعات طاقيته، وقوام زخرفتها شكل محور لزهرة ذات ثماني بتلات تحيط بها أفرع نباتية تكون شكل معين هندسي ثم تنتشر في ساحة البلاطة أفرع نباتية متداخلة تخرج منها أوراق نباتية وأزهار قرنفل وأزهار مركبة وأوراق نخيلية، وفي كل ركن من أركان البلاطة الأربعة ربع الزهرة التي تتوسط البلاطة، ويلاحظ أن زخارف البلاطة تتكرر في كل ربع من أرباع البلاطة. وقد نفذت العناصر الزخرفية لهذه البلاطة باللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء.

التصميم الرابع: (شكل٥)، وتوجد بلاطاته أعلى مدخل الخلوة ويمينه، وقوام زخرفتها شكل ذي ثمانية رؤوس كل منها عبارة عن عقد ثلاثي بداخله أشكال معينات بداخل كل منها ورقة نباتية رباعية البتلات، وفي الوسط توجد دائرة مفصصة، ويلاحظ أن أرباع هذا الشكل الثماني في الأركان الأربعة للبلاطة.،ويتوسط كل ضلع من أضلاع البلاطة نصف زهرة محورة ومفصصة لتكون زهرة كاملة عند التقائها ببلاطة أخرى من نفس النوع. وقد نفذت هذه العناصر الزخرفية باللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء مع استخدام اللون الأسود للتحديد.

بلاطات النوع الثاني: وهى بلاطات مستطيلة تستخدم كإطارات لمجموعات من البلاطات المربعة أو تؤطر مناطق معينة كالنوافذ أو الأبواب أو المحاريب ..الخ،.ويوجد هذا النوع من البلاطات هنا في ثلاثة تصميمات مختلفة:

التصميم الأول: (شكل٦)، وهو يوجد حول المحراب وعلى جانبيه وكفاصل بين جزء المحراب وبقية الجدار، وهو عبارة عن بلاطة مستطيلة يبلغ طولها ٢٥,٧سم وعرضها ١١,٦سم، وقوام زخرفتها زهرة كبيرة مستديرة محورة ذات ثماني بتلات في الوسط يحيطها أفرع نباتية تخرج منها أوراق نخيلية، وزهور قرنفل، وأوراق مسننة وكلها منفذة بطريقة زخرفيه، وفي كل من الجانبين الصغيرين للبلاطة توجد نصف زهرة

مستديرة زخرفيه تكونان زهرتين كاملتين مع البلاطات المجاورة من نفس النوع، وهذه الزخارف منفذة باللون الأبيض على أرضية زرقاء.

التصميم الثاني: (شكل٧)، وهو يوجد أعلى البلاطات التي تزخرف منطقة المحراب وأسفل السقف مباشرة، وهذه البلاطات مستطيلة يبلغ طولها ٢٥,٢ سم وعرضها ١١,٨سم، وقوام زخرفتها ورقتان نباتيتان ثلاثيتان محورتان تحصران بينهما ورقة ثالثة مشابهة لكنها أقل ارتفاعاً، وعلى الجانبين نصفا ورقتين مشابهتين للورقة الوسطى تكونان ورقتين كاملتين مع البلاطات المجاورة من نفس النوع. و تشبه زخارف هذه البلاطات الشرفات المعروفة في نهاية جدران المنشآت الدينية الإسلامية والتي تأخذ شكل الورقة النباتيه الثلاثية أو الخماسية وهو ما يعرف "بالعرائس"، وقد زخرفت هذه الأوراق بأزهار محورة بعضها بزهرة "الورد" والبعض الآخر لزهرة مستديرة زخرفيه ذات ثماني بتلات. وقد نفذت هذه الزخارف باللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء.

التصميم الثالث: (شكل٨)، يوجد من هذا التصميم عدد قليل من البلاطات ضمن الإطار حول المحراب، وهى بلاطات مستطيلة يبلغ طولها ٢٥سم وعرضها ١١,٢سم، وقوام زخرفتها فرع نباتي تخرج منه أزهار سوسن وأوراق نباتية مسننة، وفي الجانبين القصيرين للبلاطة يوجد نصفا شكلين نجميين ثمانيين يكونان مع مثليهما في البلاطات الأخرى من نفس النوع شكلين ثمانيين كاملين. وقد نفذت هذه الزخارف باللونين الأبيض والأخضر على أرضية زرقاء.

بلاطات النوع الثالث: وهى بلاطات التجميعات التي تكون فيها البلاطات المختلفة تصميماً متكاملاً، ولها ثلاثة تصميمات:

التصميم الأول: (شكل٩)، توجد بلاطات هذا التصميم داخل تصويب المحراب وهى تتكون من أربع بلاطات تكون في مجموعها جزءاً من موضوع زخرفي واحد، حيث أنه غير مكتمل والبلاطات الأربع غير مرتبة بانتظام حيث أن البلاطة الأولى من أعلى

تليها في الترتيب الصحيح البلاطة السفلى (الرابعة) بينما وضعت البلاطتان الوسطيان في وضع صحيح، وقوام زخرفة البلاطة العليا، عقد زخرفي بداخله أزهار قرنفل وأوراق نخيلية متداخلة ومنحنية كأنما تحركها الريح، ويزخرف كوشتي العقد الزخرفي أفرع نباتية ملتفة وأوراق محورة تمثل زخرفة التوريق العربي بالأسلوب التركي المعروف باسم "الروم"، وتمتد زخارف هذه البلاطة حتى تتصل من أسفل بزخارف البلاطة السفلى (الرابعة) (شكل١٠)، وقوام الزخرفة فيها أفرع نباتية تخرج منها زخارف محورة لزهور القرنفل وأوراق نخيلية في وضع منحنى تحيط بزهرة وسطى كبيرة أما البلاطتان الوسطيان فيزخرفهما مزهرية بصلية الشكل ذات قاعدة مخروطية طويلة، ويقسم بدن المزهرية إلى قسمين بواسطة شريط أفقي، و يزخرف الجزئين تفصيصات تشبه تفاصيل الأوراق النباتية الداخلية، وللمزهرية رقبة طويلة بها تفصيصات، وتخرج من المزهرية أفرع نباتية تخرج منها أزهار قرنفل وأوراق نخيلية ملتفة ومتداخلة، وعلى جانبي المزهرية يوجد فرعان نباتيان تحيطهما من أسفل أوراق نخيلية، وتخرج من الفرعين النباتيين أشكال محورة لزهرة اللاله، وعلى جانبي البلاطات الأربع شريط من زخرفة مجدولة تمثل إطار لهذه المجموعة من البلاطات. وقد نفذت هذه الزخارف في هذه التجميعة من البلاطات باللونين الأزرق و الأخضر على أرضية بيضاء مع استخدام اللون الأسود في رسم التفاصيل والتهشيرات والفواصل، بينما نفذ شريط الزخرفة المجدولة على جانبي البلاطات باللون الأبيض على أرضية زرقاء.

التصميم الثاني: (شكل١١)، وهو يتوج مجموعة البلاطات المفردة في التصميم الرابع أعلى مدخل خلوة خطيب المسجد وعلى يمينها، وهى عبارة عن بلاطات مربعة يبلغ طول ضلع كل منها ٢٤,٨سم، وقوام زخرفتها عقد زخرفي بكوشتيه زخارف نباتية "الرومي"، ويزخرف وسط البلاطة الشكل النجمي الثماني الذي يتوسط البلاطة المفردة في التصميم الرابع، وفي الركنين السفليين للبلاطة نجد ربعين للشكل النجمي يتوسطهما نصف زهرة مفصصة محورة تكون زهرة كاملة مع التقائها ببلاطة من

بلاطات التصميم الرابع (شكل١٢). وقد نفذت هذه الزخارف باللونين الأخضر والأزرق على أرضية بيضاء، وتمثل تلك البلاطات تتويجة لمجموعة من بلاطات التصميم الرابع وترتبط بها ولا يمكن استخدامها منفصلة عنها لذا اعتبرت من بلاطات التجميعات.

التصميم الثالث: (شكل١٣)، ويوجد من هذا التصميم بلاطه واحدة كاملة تعلو النافذة التي تعلو مدخل خلوة الخطيب، وهى بلاطة مربعة يبلغ طول ضلعها ٢٤,٧ سم، وقوام زخرفتها عقد زخرفي زخرفت كوشتاه بزخارف "الرومي"، وفي وسط البلاطة توجد زهرة قرنفل مركبة كبيرة بداخلها ثلاث زهرات صغيرة، ويخرج من ركني البلاطة السفليين ورقتا نخيل زخرفيتان بداخل كل منهما فرع نباتي به زهور صغيرة، وتخرج من ورقتي النخيل ورقتا شجر مسننتان، وعلى جانبي الزهرة الوسطى زهرتا قرنفل تخرج منهما زهرتا لاله، وأسفل البلاطة يوجد نصفا زهرتين مستديرتين تكونان زهرتين كاملتين عند التقاء هذه البلاطة بواحدة من البلاطات المفردة من التصميم الثالث (شكل١٤). وقد نفذت زخارف هذه البلاطة باللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء، بينما نفذت زخارف الرومي في كوشتي العقد باللون الأبيض والأخضر على أرضية زرقاء. وتعد تلك البلاطة تتويجه للبلاطات المفردة من التصميم الثالث وترتبط بها ولا يمكن استخدامها منفردة لذا عدت من بلاطات التجميعات.

ومن خلال الوصف السابق للبلاطات الخزفية بجامع الصيني بجرجا نجد أن الجزء الشرقي من جدار القبلة الذي يحوي المحراب الرئيسي كله مغطى بالبلاطات الخزفية الكاملة، وكذا أعلى الجزء الغربي من جدار القبلة وأعلى الأجزاء الجنوبية من الجدارين الشرقي والغربي للمسجد تغطيها أجزاء من البلاطات موضوعة بشكل عشوائي وبنظرة دقيقة لهذه الأجزاء من البلاطات نتأكد أنها بقايا لمجموعة كبيرة من البلاطات تكفي لتغطية جدران المسجد جميعاً، ويؤكد هذا الرأي ما ذكرته المصادر التاريخية من

أن جامع الصيني الأصلي كان محلي بالبلاطات الخزفية وأن البلاطات الباقية في المسجد الحالي هى بعض ما أمكن إنقاذه من المسجد القديم واستخدم في المسجد الحالي[١] .

وقد استخدمت البلاطات الخزفية في تكسية المساجد من الداخل بمساحات كبيرة في العديد من المساجد العثمانية بتركيا، مثل مسجد مراد الثاني في أدرنه ٨٣٧هـ/١٤٣٣م[٢] ، وفي مسجد صوقللى محمد باشا Sokollu Mehmet Pasha الذي بني سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٢م[٣] ، وكذا بلاطات المسجد الجديد "يني جامع" الذي بني بين عامي ١٠٠٧-١٠٧٤هـ/١٥٩٨-١٦٦٣م[٤] ، وفي مصر استخدمت البلاطات في العصر العثماني أيضاً في زخرفة داخل المساجد كما في مسجد مصطفى جوربجي ميرزه ١١١٠هـ/١٦٩٨م[٥] ، وتلك المجموعة التي تكسو أجزاء من جدار القبلة على جانبي المحراب بمسجد آلتي برمق في نهاية القرن ١٧م[٦] . هذا وقد استخدمت البلاطات الخزفية في كسوة الجدران من الداخل جميعا ومن نماذجها في تركيا مسجد رستم باشا في استنبول سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م والذي بني للسلطان سليمان القانوني، حيث غطيت كل الجدران الداخلية للمسجد والشرفة بالبلاطات[٧] ، وكذا مسجد السلطان أحمد ١٠١٨-١٠٢٦هـ/١٦٠٩-١٦١٧م، حيث نجد به ٧٠٠ تصميماً يختلف بعضها عن

---

[١] - المراغي: تعطير النواحي و الأرجاء بذكر من اشتهر من علماء و أعيان مدينة الصعيد جرجا، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١٧ تاريخ، ص٦٧-٦٨

[٢] - محمد عبد العزيز مرزوق: المرجع السابق، ص٧٨-٧٩

[٣] - Rice, D.T., Islamic Art, Thames and Hudson , London , 1975 , p 194, PL. 200

[٤] - طه عمارة: المرجع السابق، ص٧٩.

[٥] - طه عمارة: المرجع السابق، ص٢٢٠-٢٢١.

[٦] - ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٥١.

[٧] Rice, Op cit , p.p. 194, PL 197, 198, 199

بعض و٢٠٤١٣ بلاطة منفصلة أو مستقلة[١]، وفي مصر نجد نموزجاً تغطي جدرانه البلاطات الخزفية وهو مسجد إبراهيم أغا مستحفظان (آق سنقر) بالقاهرة ٦١-١٠٦٢هـ/٥١-١٦٥٢م، وتعتبر هذه المجموعة من البلاطات أجمل مجموعة منسجمة مع بعضها، وترجع أهميتها إلى أنها صنعت في تركيا خصيصاً لمسجد ومدفن إبراهيم أغا[٢].

وتعد مجموعة مسجد الصيني بمدينة جرجا النموذج الثاني لاستخدام البلاطات الخزفية في تكسية الجدران الداخلية للمسجد، والمجموعة الوحيدة في مصر العليا، ومن ثم فهى على درجة كبيرة من الأهمية. وقد ذكرت المصادر التاريخية أنه كان يوجد مسجد آخر باسم المسجد الصيني نسبة إلى البلاطات الخزفية التي كانت تكسو جدرانه، لكن فيضان النيل أتى عليه فأمكن إنقاذ بعض البلاطات الخزفية وبعض الأجزاء من المسجد حيث قام الشيخ عبد المنعم أبو بكري، ببناء المسجد الحالي ٢-١٢٠٩هـ/٨٧-١٧٩٤م[٣]. وقد ذكرت روايات مختلفة في بناء مسجد الصيني القديم منها أن أحد الأغنياء أراد بناء قصر له خارج المدينة وجاء له بالأدوات اللازمة للبناء والبلاطات الخزفية وخلافه ولكن ابنه مرض مرضاً شديداً فنذر إن شفى ابنه أن يبني مسجداً بنفس المواد التي كان قد أعدها لبناء القصر، فلما شفى ابنه وفى بوعده و بنى المسجد وقام بكسوته بالبلاطات الخزفية[٤]. هذا غير أن الرواية الأكثر قبولاً تلك

---

١ - آصلان آبا: فنون الترك و عمائرهم، ص٢٥٧.

٢ - حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص٤٩.

٣ - المراغي: تعطير النواحي والأرجاء، ص١٠٨ ؛ المراعي: سلافة الشراب الصافي، ص١٠٣-١٠٤

٤ - كراسات لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٠٧م ، ذيل الكراسة ٢٤ ، تقرير بقلم هرتس بك عن جامع الصيني بجرجا، ص١٢٥.

التي تنسب بناءه للأمير محمد بك الفقاري[1] ، وهى رواية يمكن معها أن نبدأ بحثنا حول تأريخ هذه المجموعة من البلاطات.

وبمقارنة بلاطات جامع الصيني ببلاطات مسجد إبراهيم أغا مستحفظان بالقاهرة، نجد أن بلاطات هذا الجامع مربعة ذات تصميم مكرر يتكون من زهرة كبيرة مركبة تتوسط البلاطة تحيط بها ورقتان مسننتان تتوجها زهور اللاله[2] ، وهذا التصميم هو أكثر التصميمات انتشاراً، حيث نجدها في جامع الصيني (النوع الأول- التصميم الثاني) (شكل٣)، ونجده في بلاطات مسجد سيدي عبد الرحمن بمدينة الجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية ٧-١١١٠هـ/٩٥-١٦٩٨م[3] . كذلك توجد بمسجد إبراهيم أغا بلاطات مربعة ذات تصميم زخرفي متكرر يأخذ شكل مزهرية تخرج منها زهور القرنفل على شكل حزمة[4] ،وهو التصميم الذي نجده في الجامع الصيني بعدد كبير (النوع الأول-التصميم الأول) (شكل٢)، ونجد نموذجاً لهذا التصميم منفذاً على جدران الضريح الموجود بتكية الكلشني ٢٦-٩٣١هـ/١٩-١٥٢٤م[5] ، ونموذج آخر

---

[1] – محمد بك الفقاري، هو مملوك علي بك النقاري حاكم جرجا، وقد حكم محمد بك جرجا بعد موت سيده علي بك سنة ١٠٦٣هـ حتى سنة ١٠٦٩هـ، وكانت مدة ولايته لجرجا خمس سنوات، وهو الذي أنشاء المسجد المعروف بجرجا باسم المسجد الصيني، وقد قتل هذا الأمير سنة ١٠٦٩هـ. المراغي: تعطير النواحي والأرجاء، ج٣، ص٦٦-٦٧ ؛ العيني، أحمد شلبي بن عبد الغني: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، الملقب بتاريخ العيني، تقديم وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨م، ص١٥٦-١٥٧.

[2] – ربيع حامد خليفة: المرجع السابق، ص٣٩.

[3] – عبد العزيز محمود لعرج: الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، دراسة أثرية فنية، الجزائر ١٩٩٠ م ؛ كما يوجد نموذج آخر لهذا التصميم في معرض وحدة الفن الإسلامي في المملكة العربية السعودية، أنظر:
The unity of Islamic art : Inagugurate the Islamic art gallery of the exhibition the King Faisal center, Riyadh, Saudi Arabia , 1405 H\ 1985 A, PL137a.

[4] – ربيع حامد خليفة: المرجع السابق، ص٣٩.

[5] – نادر محمود عبد الدايم: التأثيرات العقائدية في الفن العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٩م، لوحة ٥٩.

في جامع ذو الفقار بك ١٠٩١هـ/١٦٨٠م[١]، كما يوجد بهذا المسجد بلاطات مربعة يتوسط كلا منها زهرة تحيط بها أفرع ملتفة وزهور، وهى تشبه بلاطات الجامع الصيني (النوع الأول-التصميم الثالث)[٢] (شكل٤).

وهكذا نجد إن التصميمات الثلاث الرئيسة للبلاطات في جامع الصيني والتي تمثل ٨٠٪ من مجموع البلاطات الباقية بالجامع ممثلة بشكل كبير في مسجد إبراهيم أغا، وليس هذا فحسب بل أنها تكاد أن تكون متطابقة في لون العجينة وسمكها والتصميم العام والعناصر الزخرفية والألوان المستخدمة، ومن هنا يمكننا القول بأن بلاطات الجامع الصيني وبلاطات مسجد إبراهيم أغا من إنتاج مصنع واحد، والتي يبدو من دقة صناعتها و مميزاتها العالية في الألوان والزخارف وطينة البلاطات البيضاء ونقاء الطلاء الزجاجي الشفاف أنها استوردت من تركيا و لم تصنع محلياً

وقد أرخت بلاطات جامع إبراهيم أغا بالنصف الثاني من القرن ١٧م، كما يؤكد نسبتها لتركيا وتأريخها ذلك التشابه بينها وبين زخارف الأواني الخزفية من صناعة أزنيك في النصف الثاني من القرن ١٧م[٣]، فضلا عن تشابهها مع زخارف بلاطات يني جامع (الجامع الجديد) باستنبول الذي بني بإشراف الملكة صفية فيما بين عامي ١٠٠٧-١٠٧٤هـ/١٥٩٨-١٦٦٣م[٤].

---

[١] – طه عمارة: المرجع السابق، ص٢٠٩.

[٢] – يوجد نموذج آخر لهذه البلاطات في مجموعة Lady Barlow أنظر:
Geza, F., Islamic Pottery , A comprehensive study based on the Barlow collection , ,Faber and Faber , London , 1973 , p154, PL 90.

[٣] – ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٤١.

[٤] – آصلان آبا: المرجع السابق، ص٢٠٨ ؛ طه عمارة: المرجع السابق، ص٧٩.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نقرر في اطمئنان أن بلاطات جامع الصيني صنعت في تركيا على أيدي خزافي مدينة أزنيك[١]، و يمكن تأريخها بالنصف الثاني من القرن ١٧م تأسيساً على مقارنتها ببلاطات مسجد إبراهيم أغا التي ترجع للنصف الثاني من القرن ١٧م، وعلى تاريخ حكم محمد بك الفقاري لجرجا فيما بين عامي ٦٣-١٠٦٩هـ/٥٢-١٦٥٨م[٢]، والتي أنشأ خلالها الجامع الصيني القديم الذي كانت تكسو جدرانه هذه البلاطات الخزفية والذي أكد وضع البلاطات في المسجد الحالي أنها منقولة من مكان آخر كانت مستخدمة فيه، حيث أن النوع الواحد من البلاطات موضوع في أكثر من موضع دون ترتيب سليم، كما انه استخدمت المسامير في تثبيتها، حيث وضع في وسط كل بلاطة مسمار من الحديد صناعة محلية (بلدي)، وقد عرفت طريقة تثبيت البلاطات الخزفية باستخدام المسامير كما في بلاطات قبة الشيخ سعود بالقاهرة ٩٤١هـ/١٥٣٤م، حيث وجدت المسامير مدقوقة في المساحات الفاصلة بين البلاطة والأخرى[٣]، أما المسامير التي استخدمت في تثبيت بلاطات الجامع الصيني فقد استخدمت لتعذر إعادة لصقها بالملاط وحده، إذ أن البلاطات عندما تم جمعها من المسجد القديم الذي تهدم خرجت وبها بعض الملاط القديم لذا كان من الضروري عمل ثقب في وسط كل بلاطة ودق مسمار لتثبيتها به إلى جانب الملاط، ومما يؤكد هذا أن المسامير استخدمت أيضاً في تثبيت أجزاء البلاطات التي تم وضعها بشكل عشوائي لتكسية أعلى الجزء الجنوبي من الجدارين الشرقي والغربي للمسجد حيث تم وضع مسمار في وسط كل جزء من هذه الأجزاء من البلاطات.

---

[١] - كانت أزنيك من أهم المراكز لصناعة الخزف عامة والبلاطات خاصة في تركيا حيث كان يقوم على صناعة البلاطات بها حوالي ٣٠٠ عامل، وبحلول عام ١٦٤٦م أصبح هناك ٩ عمال فقط، وبحلول القرن التالي أغلقت كل المصانع في أزنيك تقريباً، أنظر:
Rice, D.T., Op .Cit ,P 196

[٢] - المراغي: تعطير النواحي والأرجاء، ج٣، ص٦٦-٦٧ ؛ العيني: أوضح الإشارات، ص١٦٥-١٧٥.

[٣] - ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٣٢

ومن خلال الوصف السابق نجد أن زخارف البلاطات جميعها زخارف نباتية ولا نجد إلا بعض الأجزاء التي تشير إلى وجود كتابات. والواقع أن العناصر النباتية من أنسب العناصر الزخرفية لاستخدامها داخل المنشآت الدينية ليس فقط للبعد عن تصوير العناصر الآدمية والحيوانية المحرم تصويرها وبخاصة داخل المنشآت الدينية بل وتمثيلاً للجنة التي نقرأ الوصف النباتي لها غالباً، فكلمة جنة في ذاتها نباتية وهى ما التف من الشجر حتى يستتر من يدخله، والقرآن الكريم يتحدث عن نبات الجنة وظلالها وثمرها في قوله تعالى "ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً"[١]، ولا نكاد نقرأ وصفاً لحيوان الجنة إلا ما جاء في وصف طعام أهلها، كذلك نجد ما جاء عن ثمار الجنة في القرآن الهاماً للفنان المسلم، فبالإضافة إلى النخيل والأعناب نجد التين والزيتون والشجر والفاكهة بعامة والزهر والسنابل، ومن هذه القاعدة انطلق الفنان المسلم في تمثيل العناصر النباتية يحمل إلى النفس أقباساً من ثمر العمل الصالح في الدنيا والآخرة، يقول تعالى في وصف ثمر الجنة "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم الجنة تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون"[٢]، ومن ثم أخذ الفنان المسلم يحلق في آفاق عليا بهذه الزخارف النباتية[٣].

هذا وقد أكثر الفن العثماني من العناصر النباتية حتى أنها تعد من أهم مميزاته، ويعتبر العامل العقائدي أكثر العوامل تأثيراً في الفن العثماني، حيث استخدمت رموز الحياة النباتية لمعان رمزية للحياة الصوفية، إذ انتشرت هذه العناصر النباتية على البلاطات الخزفية في المساجد والقصور وعلى الأواني والسجاد والملابس وغيرها،

---

[١] - القرآن الكريم: سورة الإنسان آية ١٤

[٢] - القرآن الكريم: سورة البقرة، آية ٢٥.

[٣] - عبد العزيز كامل: الفن الإسلامي بين الدين والإبداع، مقال ضمن أعمال الندوة العالمية المنعقدة في استنبول بعنوان المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة، إبريل ١٩٨٣م، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استنبول، دمشق ١٩٨٩م، ص٤٣.

وفي هذا محاولة لتهيئة الجو الروحي الذي توحي به هذه الزخارف[١] . وقد مثلت العناصر النباتية بأسلوب واقعي يمثل الطبيعة أصدق تمثيل، وقد تأثر العثمانيون بهذا الأسلوب عن طريق أوروبا في عصر النهضة، كما أنهم وجدوا في نباتات وزهور بلادهم مصدراً غنياً يأخذون منه عناصرهم النباتية، فمن الزهور التي فضلوها زهور القرنفل والورد واللاله والرمان[٢] .

ونجد في بلاطات الجامع الصيني أن أهم العناصر النباتية وأكثرها انتشاراً زهور القرنفل والرمان وكذا أشجار السرو والأوراق النخيلية، وكذا زخارف الرومي والتي سوف نعرض لكل منها فيما يلي:

زهرة اللاله "شقائق النعمان" (شكل ١٥): تعرف هذه الزهرة بالتركية Lale، وذكر أن الأتراك أخذوها عن الهولنديين على يد سفير النمسا في استنبول في القرن ١٧م في عهد السلطان محمد الثالث، لكن التاريخ والواقع يؤكد أن الهولنديين عرفوها من الأتراك في القرن ١٦م، بل وجدت هذه الزهرة ممثلة على الخزف والنسيج والسجاد التركي منذ القرن ١٥م، ولقد أكثر العثمانيون من استخدامها في الزخرفة في القرن ١٨م وخاصة في عهد السلطان أحمد الثالث (١٥-١١٤٣هـ/٣-١٧٣٠م) حتى أصبح هذا العصر يعرف في تاريخ الزخرفة التركية باسم عصر زهرة اللاله، حيث تبارى هواة هذه الزهرة في استنبات أنواع جديدة منها، على أن اهتمام الأتراك لم يكن مرجعه جمال هذه الزهرة فقط بل كذلك لبعض المعتقدات الدينية، حيث أن كلمة "لاله" تتكون من نفس حروف لفظ الجلالة "الله"، حيث أكسبها هذا التشابه شرفاً وقدسية[٣] ، كما أن حروفها تشبه أيضاً حروف كلمة "هلال" رمز الدولة

---

[١] - نادر محمود عبد الدايم: المرجع السابق، ص٥٦.

[٢] - سعاد ماهر محمد: الخزف التركي، القاهرة سنة ١٩٧٧م، ص٧٢.

[٣] - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٧٧-٧٩

العثمانية آنذاك ورمز العالم الإسلامي، و ترمز عند الصوفية للكأس به الشراب وهو شراب المحبة الإلهية[١] . وقد ظلت زهرة اللالة محافظبة على مركزها حتى غزا أسلوباً الباروك والركوكو الفن التركي في القرن ١٨م عن طريق أوروبا، على أنها استعادت بعض مكانتها في القرن ١٩م[٢] .

وفي بلاطات جامع الصيني استخدمت زهرة اللاله بأشكال مختلفة، على أن أهم هذه الأشكال شكلها المحور في بلاطة الإطارات (النوع الثاني-التصميم الثالث) (شكل٨).

زهرة القرنفل (شكل١٦)، لا يعرف على وجه التحديد الموطن الأصلي لزهرة القرنفل التي يسميها الأتراك Karanfil، وان كان من المحتمل أن يكون موطنها الأصلي الصين أو إيران، وقد عشق الأتراك هذه الزهرة عشقاً جعلهم يرسمونها على كل منتجاتهم الفنية كما عنوا بزراعة أنواع متعددة منها[٣] ، وبجانب رمزية الأزهار العامة في الفن العثماني فقد اعتبرها العثمانيون ترمز للسعادة والحكمة والمعرفة[٤] . وقد وجدت هذه الزهرة منفذة في بلاطات الجامع الصيني، على أن أهم نماذجها في بلاطات (النوع الأول-التصميم الأول)، حيث أنها كانت العنصر الأساسي في هذا التصميم.

زهرة الرمان (شكل ١٧)، عرف الرمان منذ وقت طويل، وقد ذكر في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى "وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه"[٥] ، وقوله تعالى "وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات

---

[١] - نادر محمود عبد الدايم: المرجع السابق، ص٦٢-٦٤

[٢] - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٧٧-٧٩

[٣] - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٧٥.

[٤] - نادر محمود عبد الدايم: المرجع السابق، ص٦٥-٦٦

[٥] - القرآن الكريم: سورة الأنعام، آيه ٩٩.

والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه"[١]، وقوله تعالى "فيهما فاكهة ونخل ورمان"[٢]، ومن ثم اهتم الفنان برسم زهور الرمان حيث أن الرمان من ثمار جنة الدنيا وهى دليل على قدرة الله تعالى.

وقد رسمت زهرة الرمان في بلاطات الجامع الصيني في أشكال متعددة بعضها قريب من الطبيعة والبعض الأخر محور زخرف من الداخل بزهور كف السبع.

شجرة السرو Selvi (شكل ١٨أ)، استخدمت هذه الشجرة بكثرة، وقد أعتاد العثمانيون زراعتها في المقابر نظراً لرائحتها الزكية واخضرار أوراقها طوال العام. وقد تعددت الآراء حول استخدام هذه الشجرة لسبب عقائدي منها أنها دائمة الاخضرار مما قد يرمز عندهم للخلود، كما أن ارتفاعها الشاهق يعطى انطباعا بهذه المعاني، ويربط البعض بين ارتفاعها وشكلها وبين المئذنة مما يربطها بالآذان والصلاة، وهى لهذا السبب ترسم في محاريب المساجد أو بجوارها أو على السجاجيد وهى هنا رمز للمناجاة والقرب من الله، ونراها في بلاطات مسجد إبراهيم أغا مستحفظان في القاهرة، حيث تتكرر على جدار القبلة كوحدة منفردة أو كشجيرات صغيرة في صفوف متراصة بجوار بعضها، ومما يؤكد هذا المعنى لوحة بجوار محراب مسجد عثمان كتخدا بالقاهرة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م رسمت عليها شجرة سرو مذهبة[٣].

وقد وجدت أشجار السرو في بلاطات الجامع الصيني (النوع الأول-التصميم الأول)، حيث وجد نصفا شجرة سرو على جانبي البلاطة تكون مع البلاطات التالية أشجار سرو كاملة. كذلك كانت توجد تجميعات من البلاطات كان يشغلها تكوين

---

[١] - القرآن الكريم: سورة الأنعام، آية ١٤١.

[٢] - القرآن الكريم: سورة الرحمن، آية ٦٨

[٣] - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٧٥ ؛ نادر محمود عبد الدايم: المرجع السابق، ص٥٧-٥٩.

في يمثل شجرة سرو كبيرة، ونشاهد هذا من بعض أجزاء البلاطات التي تخلفت من بلاطات هذه التجميعة.

النخيل (شكل ١٨)، من الأشجار التي برزت أهميتها في الفن العثماني النخيل، وتمتد الأصول العقائدية لرسوم النخيل إلى العصور السابقة على العصر العثماني فكانت عند اليونان ترمز للنصر والتفاؤل، ولذا كان سعف النخيل تستخدم لتكوين نفس المعاني، أما في الفن الإسلامي فهي تعبر عن فكرة الشجرة المباركة التي وردت في القرآن الكريم، واستمرت النظرة إليها في الفن التركي تضعها في مكانة سامية ولذا صوروها على السجاجيد وفي المحاريب وفي المقابر[١].

كذلك وجدت أوراق النخيل بأشكال مختلفة في بلاطات الجامع الصيني، حيث نجدها منفذة بشكل قريب من الطبيعة متداخلة في بعضها وملتفة ومنحنية كأنما تحركها الريح، ونجد بعضها الآخر في شكل زخرفي رسمت بداخلها بعض الأزهار الصغيرة كزهرة كف السبع مرصوصة بداخلها.

زخارف الرومي **Roumi** (شكل ١٩)، قوام الزخرفة فيها فروع نباتية مرسومة بطريقة خاصة لا تخضع في شكلها واتجاهاتها للطبيعة مما جعل لها طابعاً خاصاً، ومن هنا لا نخطئ إذا سميناها بزخرفة التوريق العثمانية أو الأرابسك العثمانية، وكلمة رومي التي تطلق على هذا النوع من الزخرفة تعني في اللغة العربية بيزنطي، إذ أطلق العرب كلمة الروم على البيزنطيين عندما اتصلوا بهم في حروبهم عند قيام الدولة الإسلامية واتساعها. وعن هذه الزخرفة فالذي نعرفه أنها ولدت على أيدي المسلمين في سامراء وتطورت على أيدي السلاجقة في العراق وإيران، ثم جاءت معهم إلى آسيا الصغرى، وتسميتها بالرومي من قبيل اختصار (سلاجقة الروم). ولقد طور العثمانيون زخرفة الرومي حتى صارت لها صورة رائعة شديدة التعقيد لكنها أيضاً شديدة التأثير

---

[١] - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٧٥ ؛ نادر محمود عبد الدايم: المرجع السابق، ص٦٠-٦١.

على الناظر إليها إذ ينسى المتأمل فيها نفسه إذ أنها تحقق فعلاً رسالة الفن في الحياة كما عرفها الفنان المسلم[١].

وقد وجدت زخرفة الرومي في بلاطات الجامع الصيني في بلاطات التجميعات حيث استخدمت لزخرفة كوشات العقود. والى جانب تلك العناصر توجد عناصر زخرفية أخرى من بينها تلك العقود الزخرفية والتي تأخذ شكلاً مفصصاً خماسي أو ثلاثي (شكل٢٠)، وكذا الأشكال ثمانية الرؤوس التي تتوسط البلاطة (شكل٢١) وأرباعها في الأركان فيما يشبه البخاريات. هذا إلى جانب المزهريات منها المزهريات منها الصغيرة التي تتكرر في كل بلاطة وتخرج منها حزمة من الأفرع التي تحمل زهور القرنفل واللاله، ومنها المزهرية الكبيرة التي تتوسط تجميعة تصويب المحراب وهى تأخذ شكلاً كروياً تخرج منها أفرع نباتية ملتفة وأزهار(شكل٢٢).

الألوان: نجد أن الألوان المستخدمة في بلاطات الجامع الصيني هى بوجه عام الأبيض والأزرق والأخضر مع استخدام اللون الأسود للتحديد، حيث لونت العناصر الزخرفية باللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء، وفي نموذجين فقط نجد أن الزخارف لونات باللونين الأبيض والأخضر على أرضية زرقاء، مع تحديد العناصر الزخرفية بخطوط باللون الأسود، وهى بهذه الألوان تشبه بلاطات مسجد إبراهيم أغا مستحفظان التي نفذت في معظمها باللون الأزرق بدرجاته إلى جانب الأخضر على أرضية بيضاء[٢]، وتعتبر البلاطات المرسومة تحت الطلاء باللونين الأزرق والأبيض من الابتكارات التي ظهرت في العصر العثماني[٣]، وقد ارتبطت بعض الألوان في أذهان المسلمين ببعض المعاني السامية، حيث ارتبط اللون الأبيض بالنقاء، وهو لون وجوه

---

[١] - محمد عبد العزيز مرزوق: المرجع السابق، ص٧٦-٧٧.

[٢] - ربيع خليفة: المرجع السابق، ص٩٩

[٣] - آصلان آبا: المرجع السابق، ص٢٥٥.

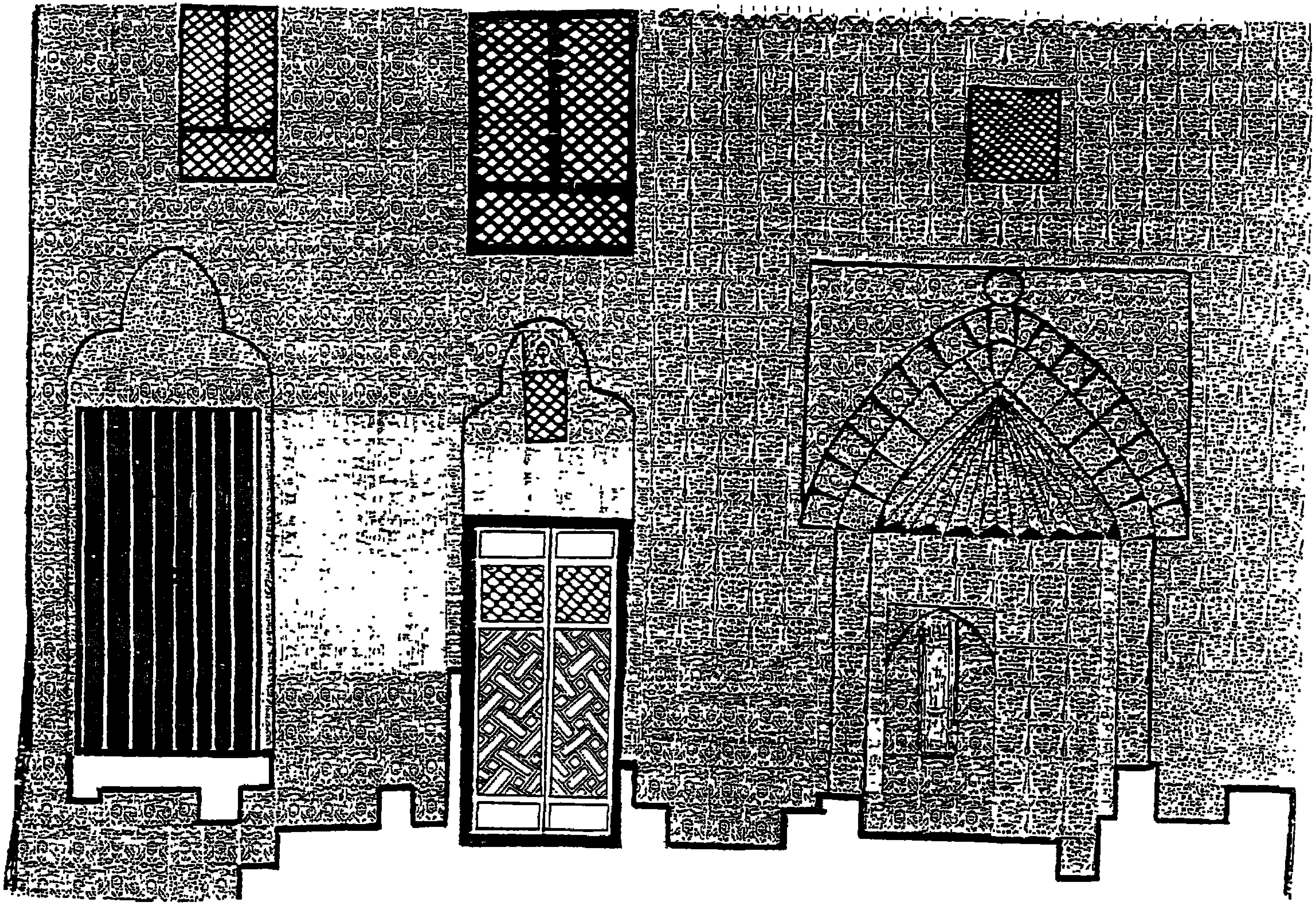

(شكل ١)

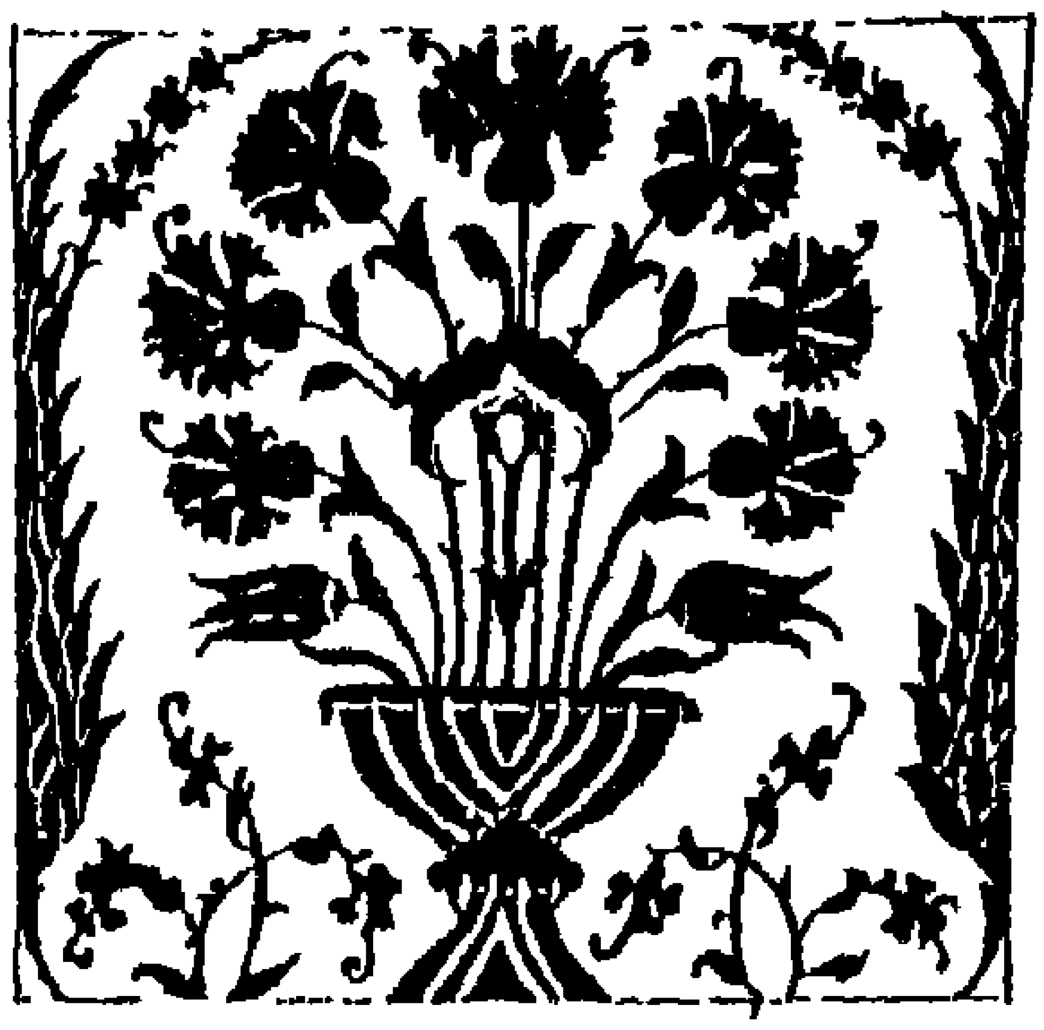

(شکل ۲)

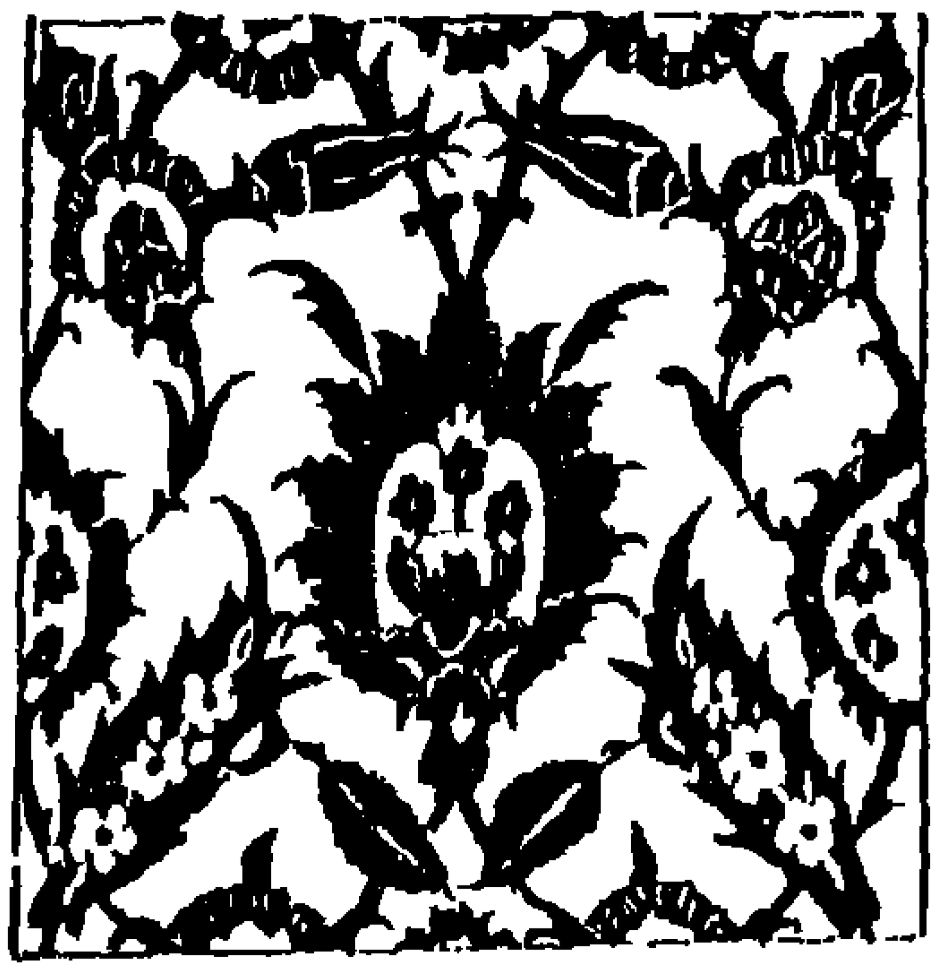

(شکل ۳)

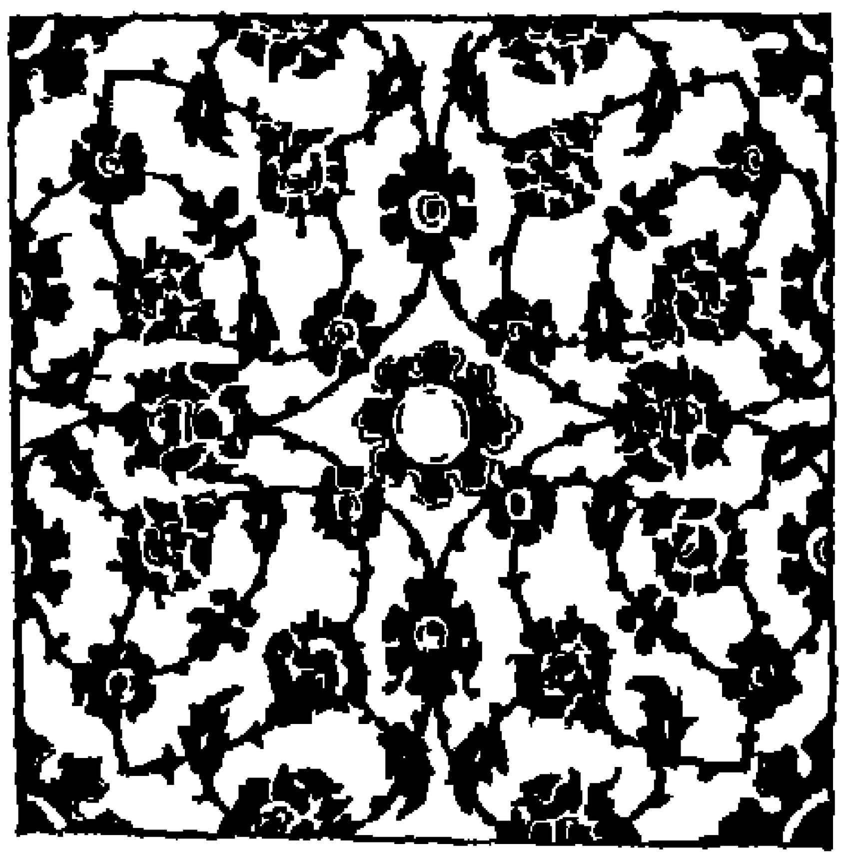

(شکل ٤)

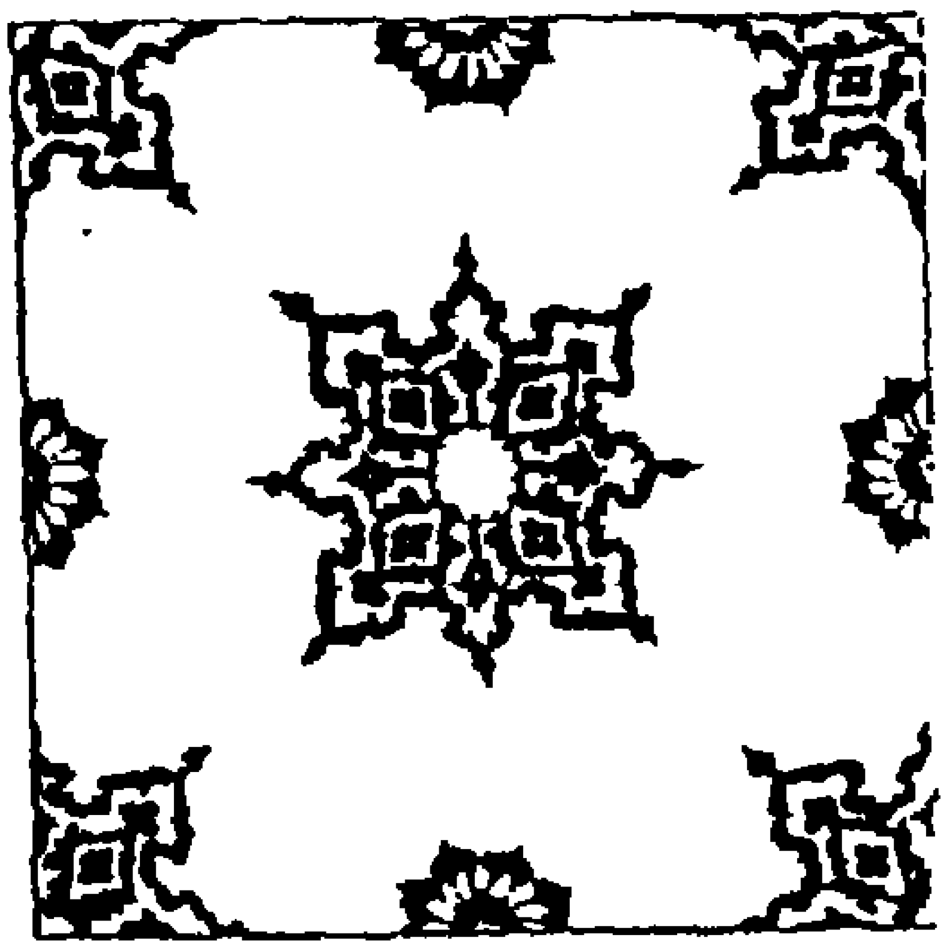

(شکل ٥)

(شكل ٦)

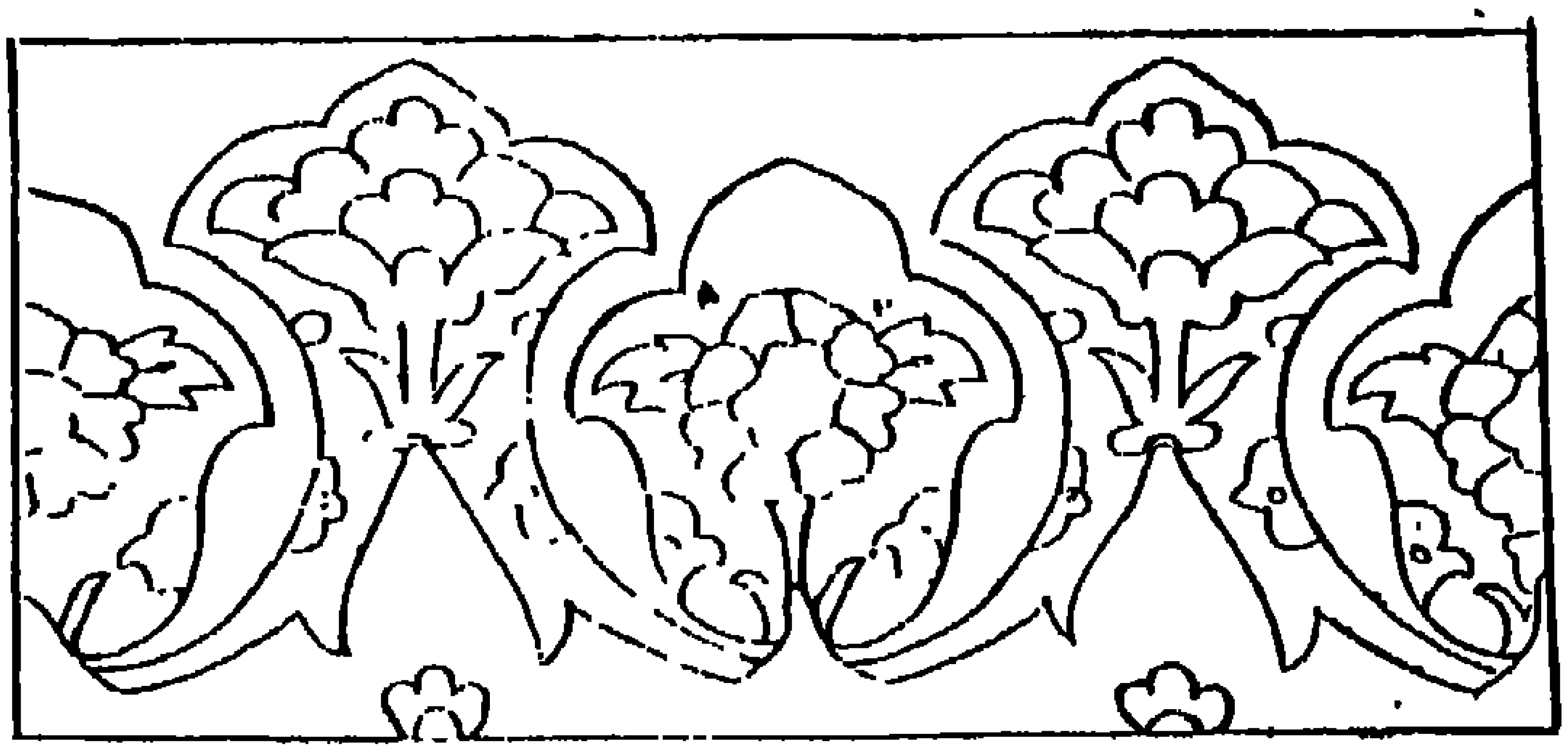

(شكل ٧)

(شكل ٨)

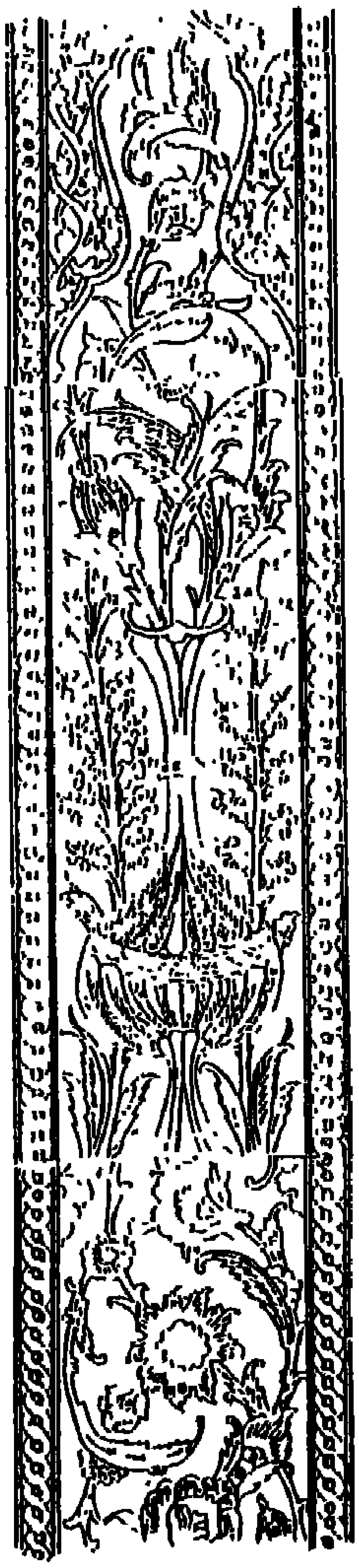

(شكل ٩)

(شكل ١٠)

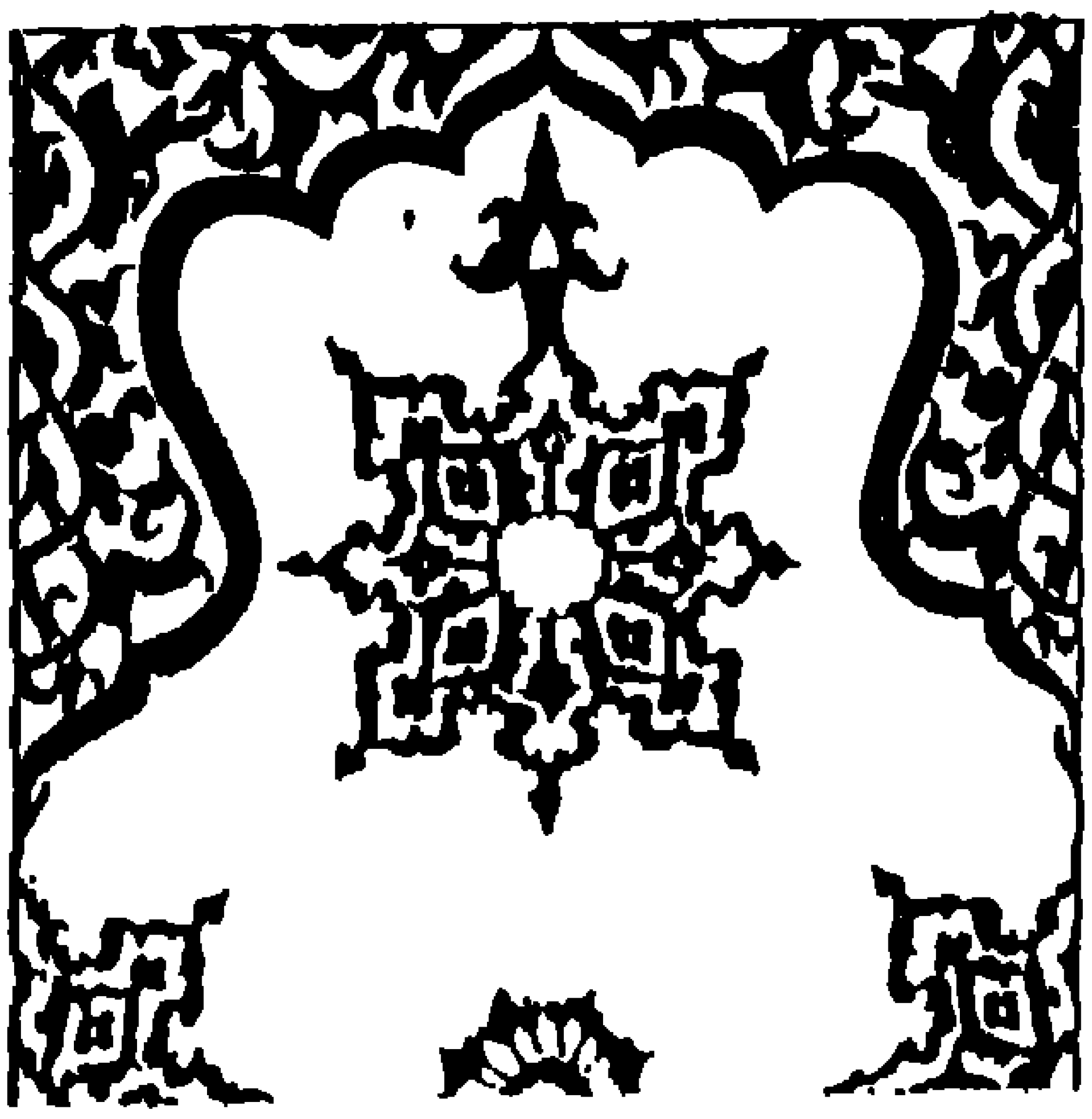

(شكل ١١)

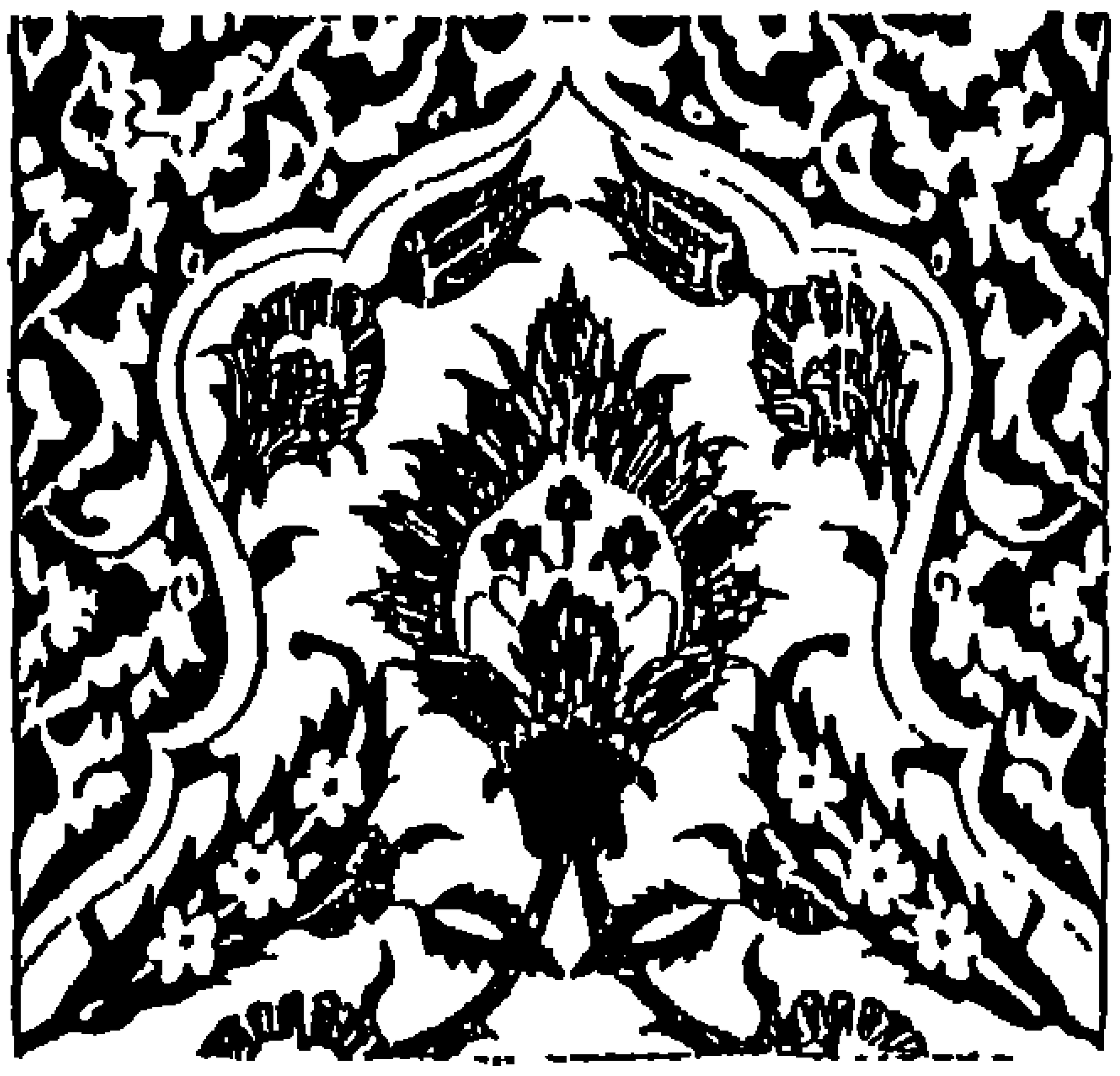

(شكل ١٢)

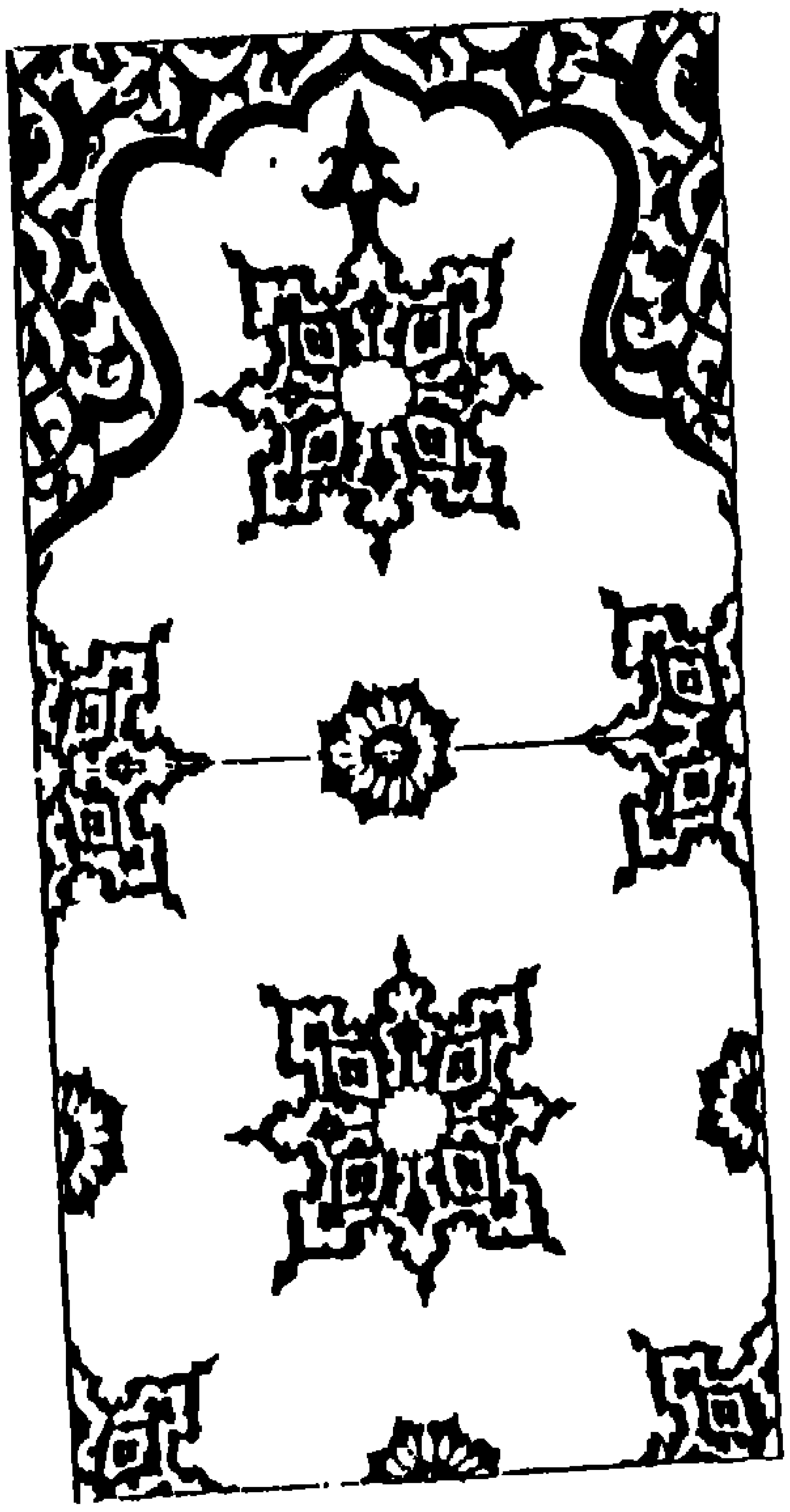

(شكل ١٣)

(شكل ١٤)

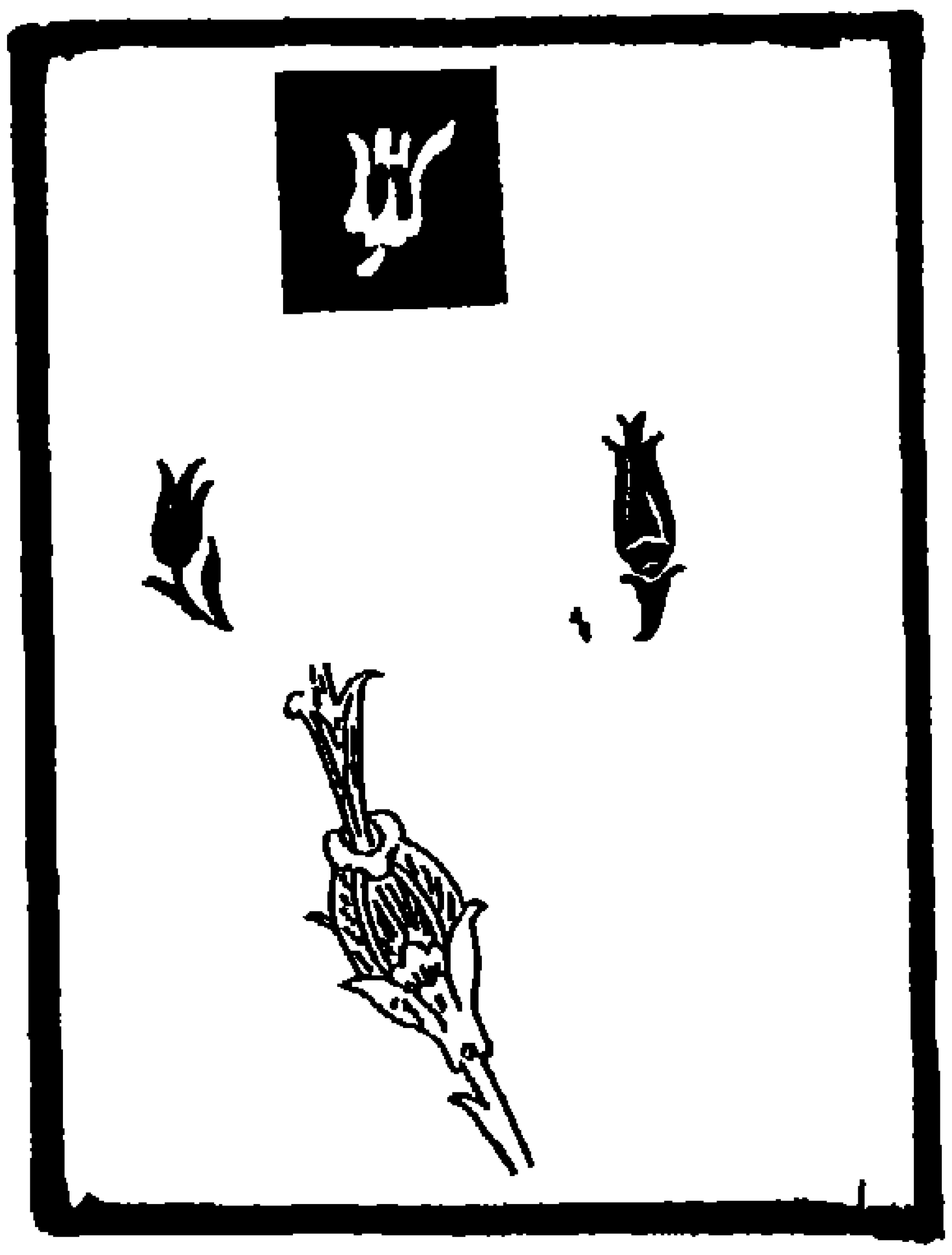

(شکل ۱۵)

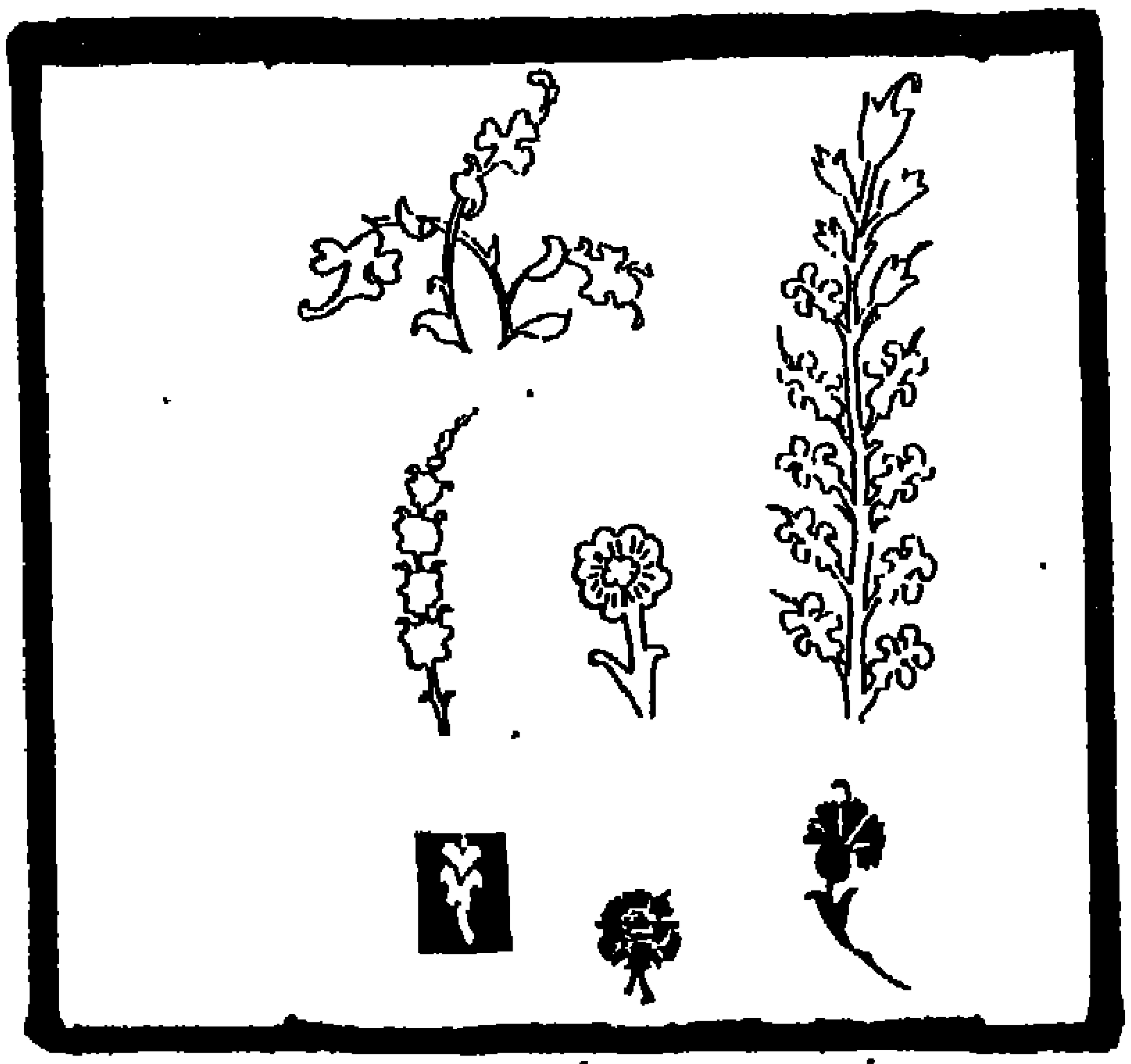

(شکل ۱۶)

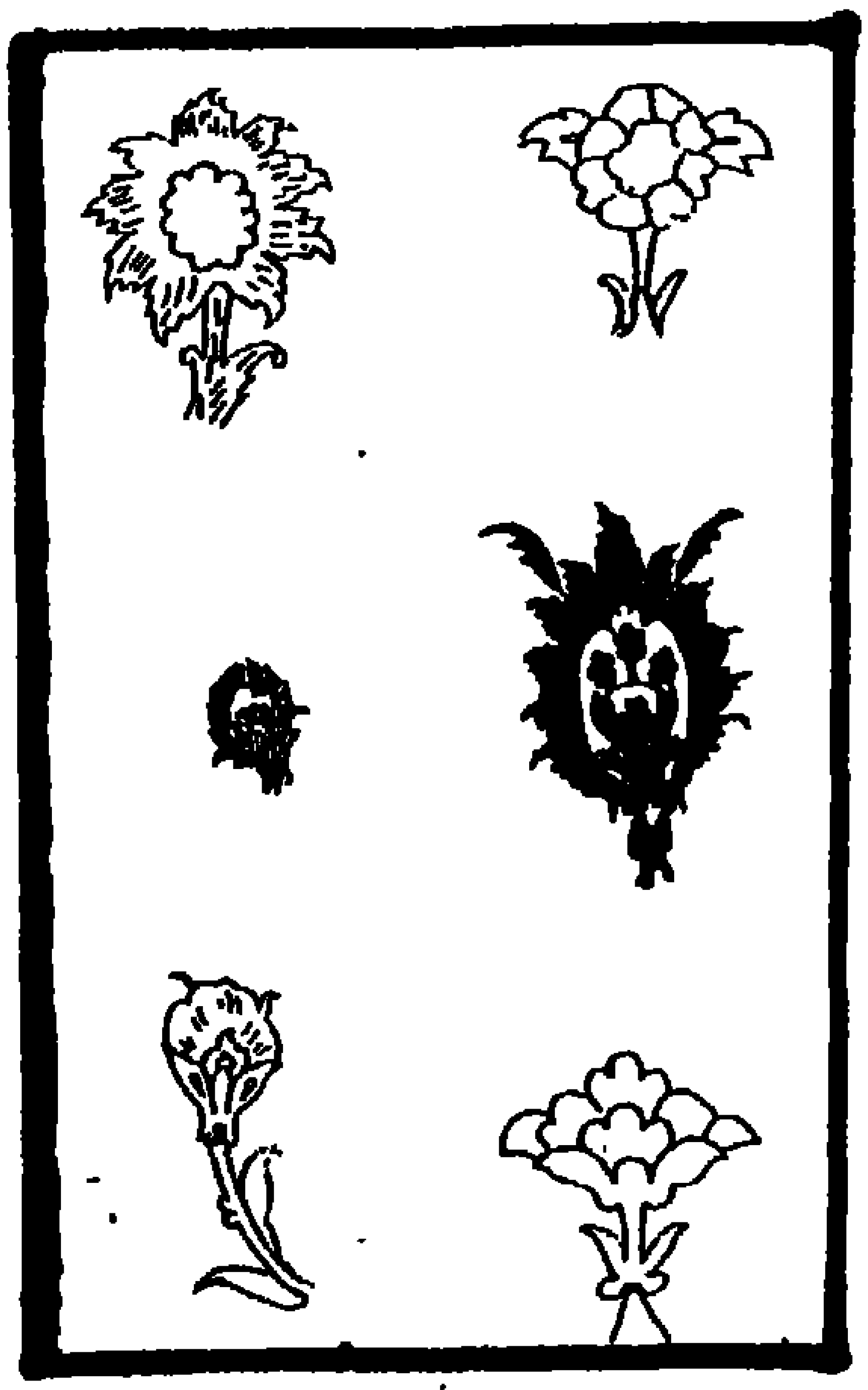

(شکل ۱۷)

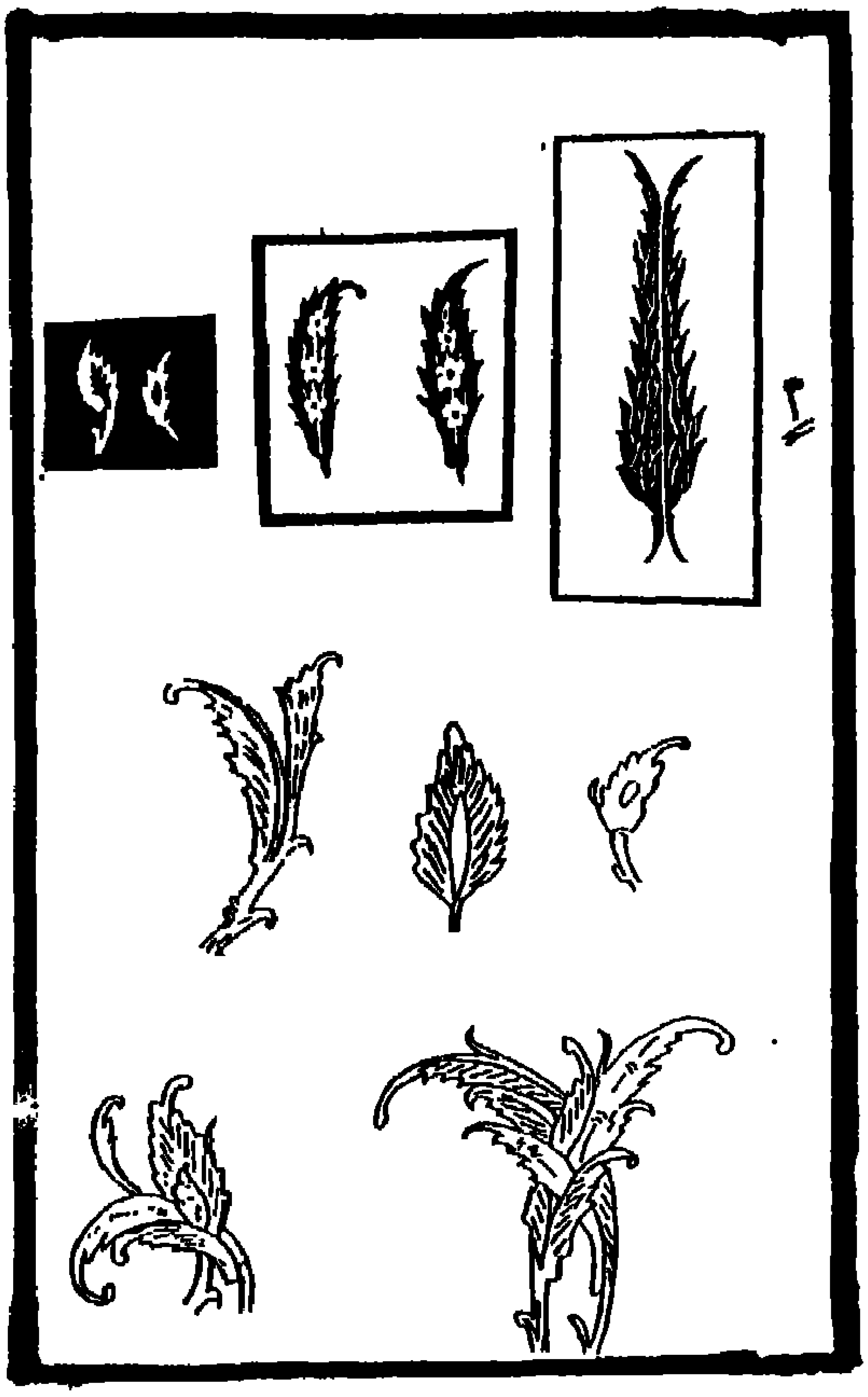

(شکل ۱۸)

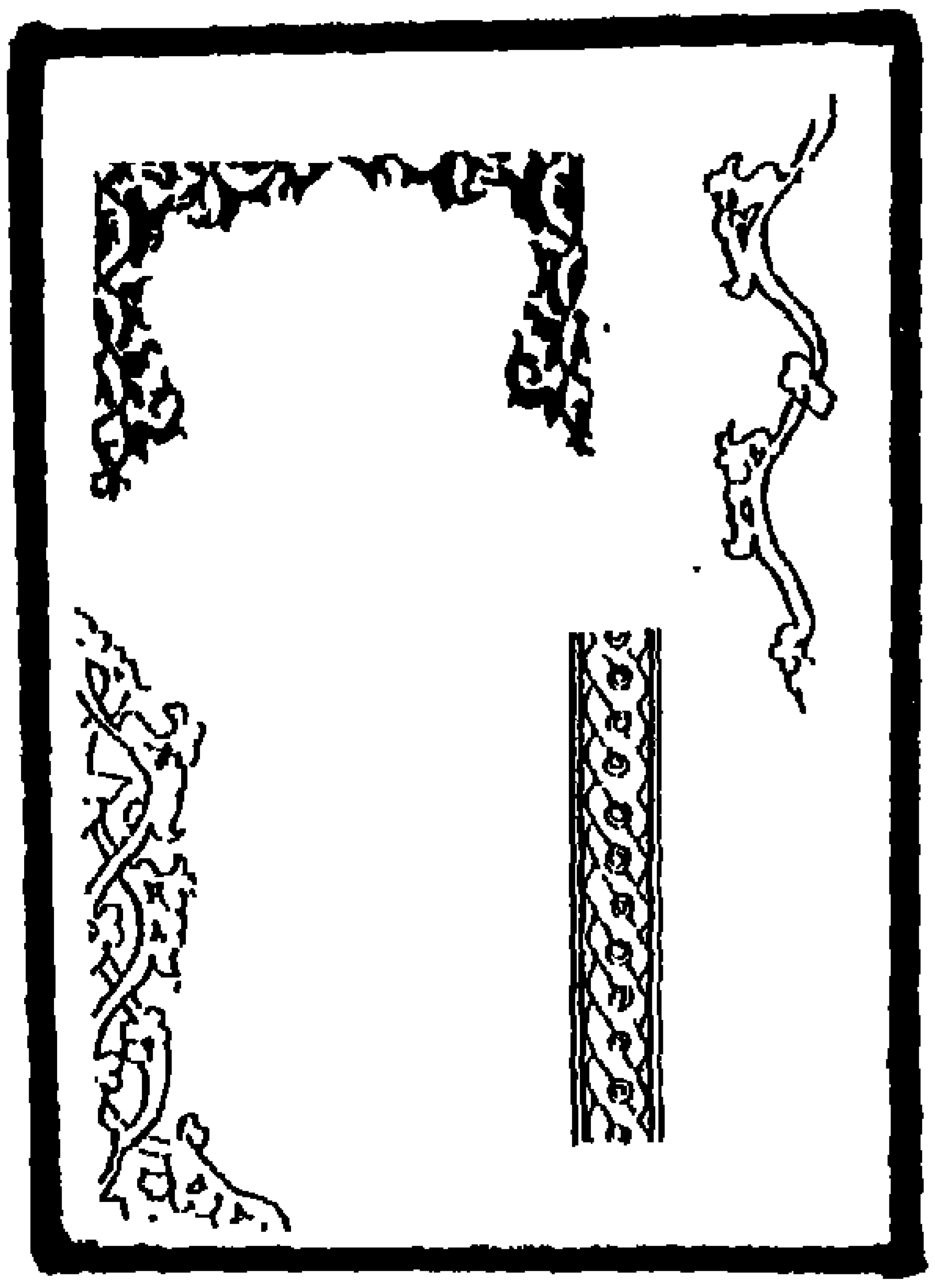

(شکل ۱۹)

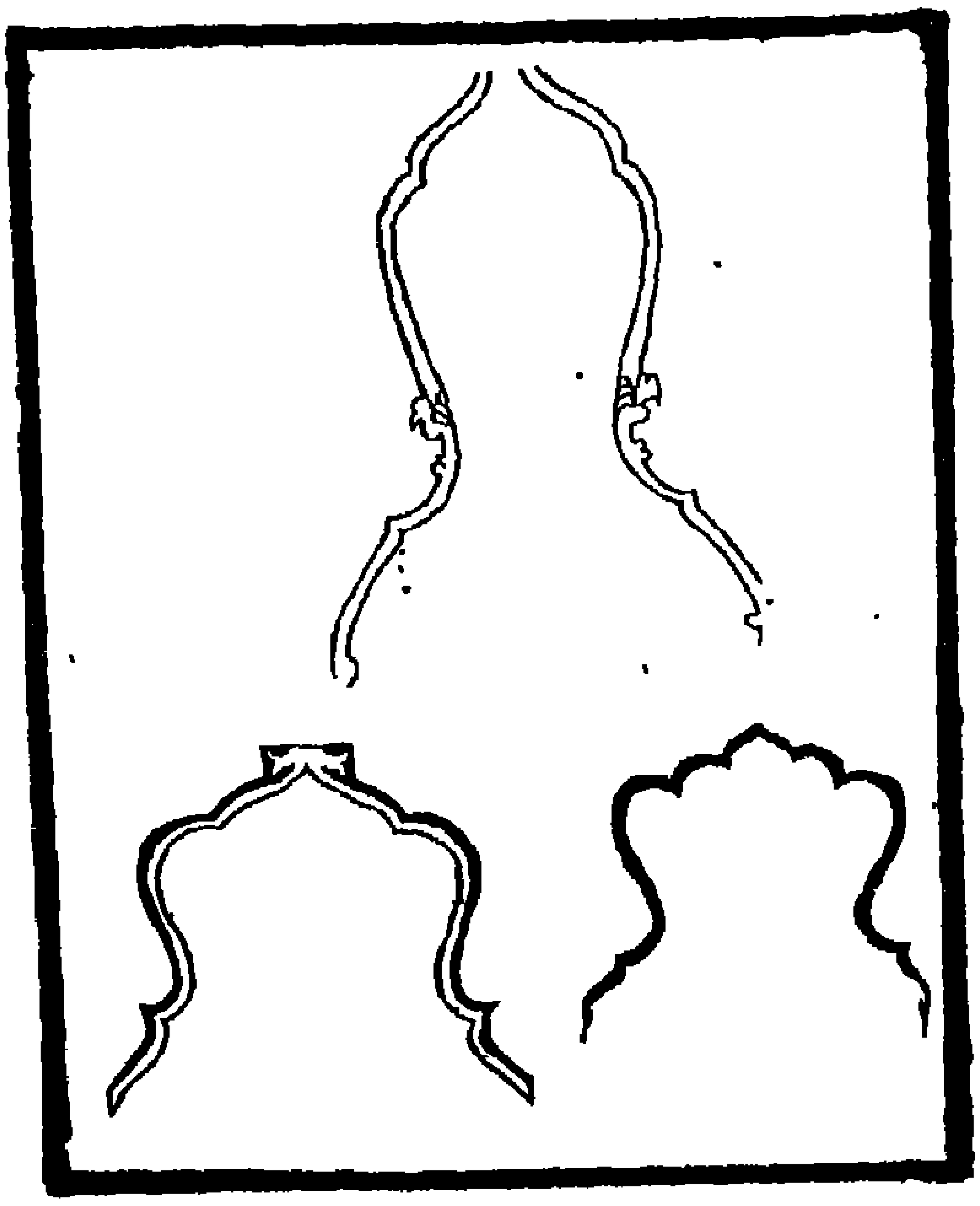

(شکل ۲۰)

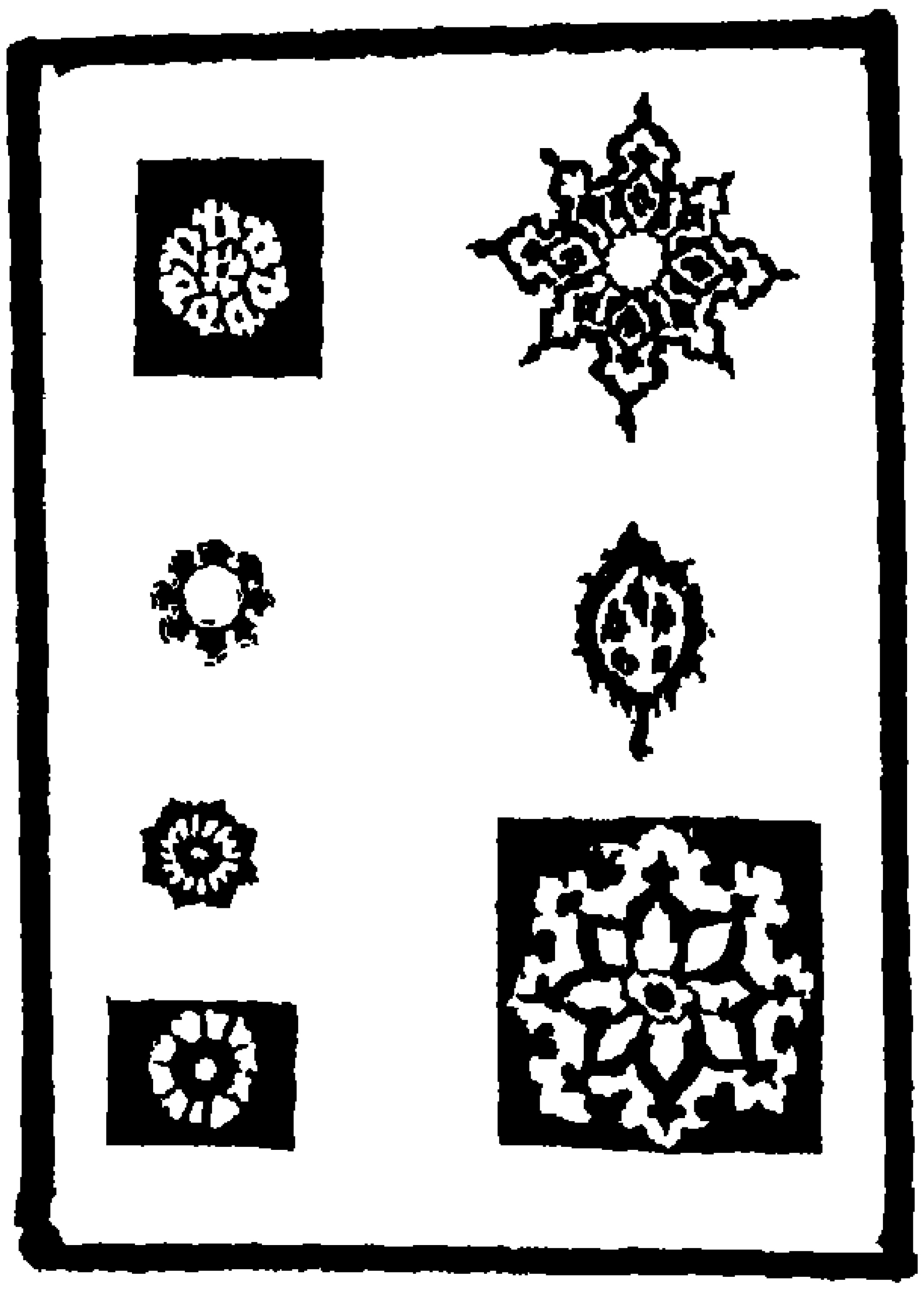

(شکل ۲۱)

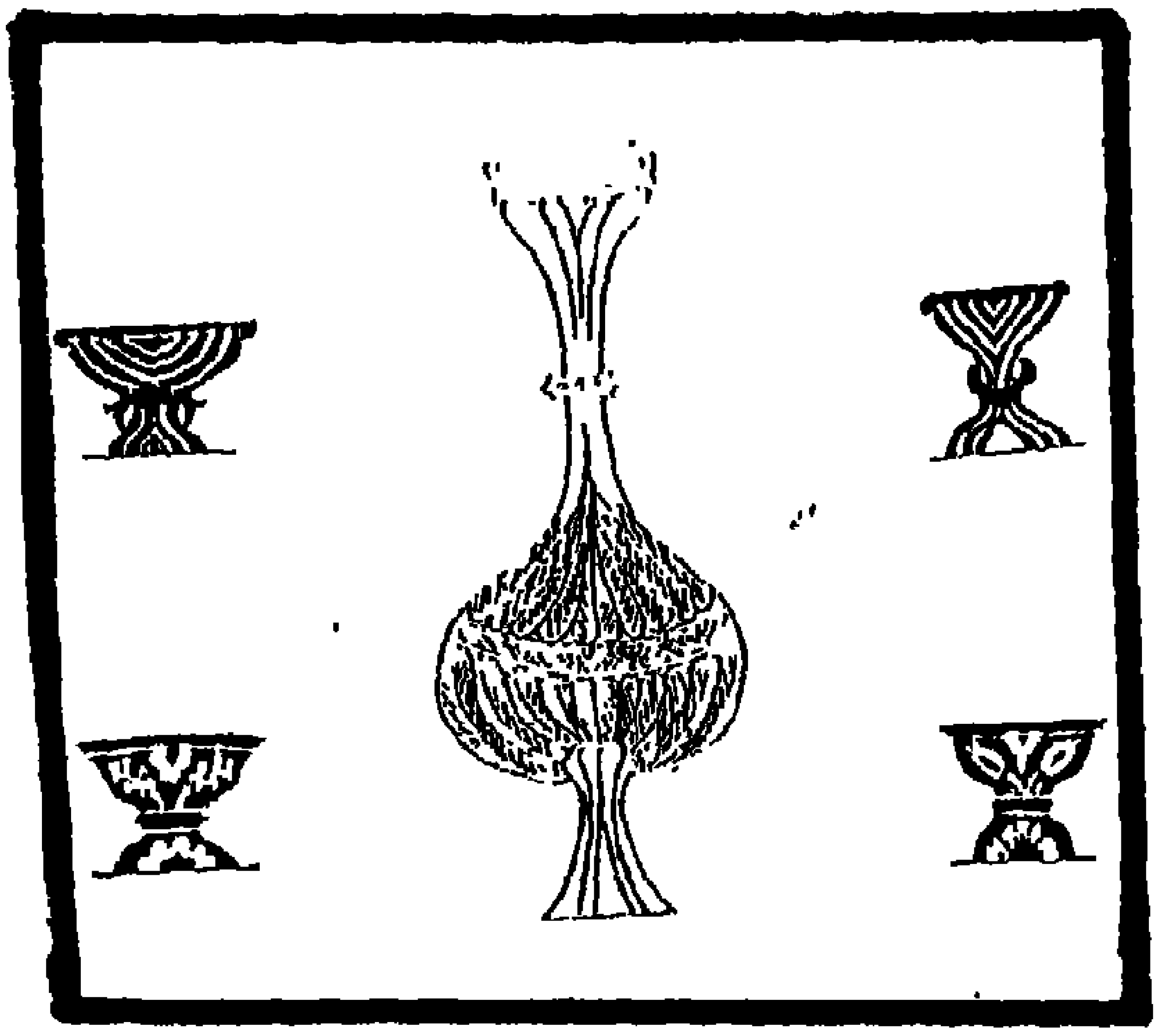

(شکل ۲۲)

أهل الجنة، كما ارتبط الأخضر بآل البيت، كما أنه يرمـز للجنـة سـواء جنـة الدنيـا أم جنة الآخرة، ومن هنا كثر استخدامه في الأشياء المرتبطة بالموت والدفـن[١]، هـذا ويعـد اللون الأزرق من أهم الألوان العثمانية، وهو يعبر عـن لـون السـماء والبحـر الصـافي، ويقال أنهم يعتبرونه يمنع الحسد والشياطين من البيوت[٢].

---

١ - نادر محمود عبد الدايم : المرجع السابق ص٩٥ - ١١٠

٢ - نفسه، ص١١١- ١١٢

تصرفات جان بردي الغزالي وخاير بك بعد موت السلطان سليم الأول

(كما تصورها وثيقتان بالفارسية والتركية العثمانية)

د. أحمد فؤاد متولي

جامعة عين شمس

(١) جان بردي الغزالي

خيانة خاير بك وجانبردي الغزالي وعصيانه من الأمور المشهورة في التاريخ الحديث لمنطقة الشام ومصر في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني، لكن خيانة خاير بك وجانبردي الغزالي لم تتضح تفاصيلها إلا فيما كتب في كتاب "الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له"[١].

بعد أن عاد سليم إلى بلاده، قام الغزالي بالقضاء على مشايخ العربان المناوئة للحكم العثماني في الشام، إظهاراً للولاء للعثمانيين لكي يموه على تحركاته في المناطق المحيطة التي كان القصد منها التحالف مع البلاد المجاورة في طرد العثمانيين.

استيقظت في نفس جانبردي الغزالي أحلام إقامة دولة مستقلة في الشام تحت قيادته بعيدة عن السيادة العثمانية، فقام بعدة محاولات للاستقلال بالشام عن الحكم العثماني في أواخر عهد السلطان سليم الأول وأوائل عهد ابنه سليمان القانوني، وقد قويت هذه المحاولات في السنة التي مات فيها السلطان سليم (٩ شوال سنة ٩٢٦هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م).

---

١ – أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٦م، ص٩٨-٢٥٥ ؛ الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٠٥-٢٥٥.

ومن الجدير بالذكر أن الشاه إسماعيل الصفوي كان على أتم استعداد لأن يمد هذه المحاولات بالجنود لو ظهرت منها بوادر النجاح، لكي يرى اليوم الذي يطرد فيه العثمانيون من الشام ومصر، فيشفي غليله.

ويبدو من استقراء الأحداث التي وردت في بعض الوثائق، أن والي مصر خاير بك كان على علم بتطور الأحداث في الشام منذ أن بدأت، وكان يود لو أن الحكم العثماني انحسر عن الشام ومصر. وقد اتفق سراً مع الغزالي شريكه في الخيانة السابقة[١].

والوثيقة الفارسية التي نحن بصدد عرضها وتحليلها واستخلاص النتائج منها كتبها شخص لم يذكر اسمه فلا هو وقع باسمه ولا هو ذكر لنا وظيفته أو هويته. ويبدو أنه من أبناء الأناضول من الذين تشيعوا وانكبوا على تعلم الفارسية مع الإلمام الشديد بالعربية الفصحى، حيث ترد بعض الحكم والأقوال المأثورة العربية في رسالته للسلطان العثماني سليمان القانوني بعد موت السلطان سليم الأول بشهر ونصف الشهر تقريباً، مما يدل على أنه من أبناء مناطق الأناضول الجنوبية المتاخمة للشام والعراق. والأرجح أنه واحد من القزلباش[٢] المجندين كعيون أو جواسيس للحكم العثماني في بلاد الشام. وعدم ذكر الاسم في الوثيقة إنما يدل دلالة واضحة على خوف كاتبها من أن تقع في يد جان بردي أو أحد أتباعه، فتقع الطامة الكبرى على رأس مرسلها.

والرسالة تتحدث عن أحداث ذي القعدة ٩٢٦هـ/نوفمبر ١٥٢٠م وأحداث صفر سنة ٩٢٧هـ، وهي أحداث التمرد التي قادها جانبردي في الشام بعد وفاة السلطان سليم الأول بشهر ونصف الشهر تقريباً، فتقول: "بعد أحداث تبيل والشام

---

١ - أحمد فؤاد متولي. المرجع السابق، ص ٢٤٢، ٢٤٣، الطبعة الأولى ؛ وراجع الوثيقة رقم ٦٣٦٢ بمتحف طوبقبو سراي باستانبول، ص ٢٢٣، ٢٤٤، الطبعة الثانية.

٢ - القزلباش: اسم أطلقه الترك على تسع قبائل كانت تلبس قلانس حمراء على الرؤوس. أستطاع الشيخ صفي الدين الأردبيلي وأولاده من بعده بزعامتهم لجماعة المتصوفة والدراويش جذب الكثير من المريدين ليس في إيران فحسب بل في الولايات التركية من آسيا الصغرى والشام والعراق بتأثير دعاياتهم القوية. وقد تحولت فرقة الدراويش التي يتزعمها الشيخ صفي الدين الى مركز مذهبي لبث الدعوة الشيعية. بديع جمعه، أحمد الخولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم، القاهرة ١٩٧٦، ص٣٧-٤٢.

(دمشق) هزم الغزالي الكافر الفاسق وسحق مع جماعة من رفاقه الحقراء الأشرار في صبيحة يوم الجمعة ٢٥ من ذي القعدة (٩٢٦هـ)"[١].

ثم تتحدث الرسالة عن قبائل الأعراب التي قدمت الطاعة للعساكر العثمانية: "إن أمراء عساكر الروملي المنصورة الذين أقاموا في العريش وهى المرحلة الثالثة، قد نزلوا في "أرغت"، وعندما وصل قائد عام الجيش توقفوا عن السير لتقديم فروض الطاعة والولاء. واستطاعوا أن يتحاشوا حيل وتزوير وخدع أحزاب الشياطين أعني بهم المنافقين العربان سواء منهم الذين نالوا العطايا أو لم ينالوها. وبعد تحقق قبائل العربان المذكورة من سطوة الدولة (العثمانية) بعد ملاقاة عساكر الروملي المعتادة على النصر، قدموا البيعة والولاء، فتفضل عليهم العساكر بالخلع والتشريفات وندمت قبائل الأعراب على نكوثهم للعهود ونقشوا مواثيق العهد والولاء على صفحة حسن السيرة والسلوك وطارت خفافيش الظلام وتوارت في ظلمة ظلام الجراكسة المنحوسين، بعد أن أشرقت شمس الدولة والإقبال"[٢].

ثم يذكر كاتب الوثيقة أحداث خان يونس وغزة التي وقعت بين الطرفين في اليوم التالي، فيقول: "وفي صباح يوم السبت ٢٦ ذي القعدة (سنة ٩٢٦هـ) علمت أن الغزالي توجه صوب خان يونس، ونزل بالناحية الشرقية لغزة بالجزء الذي يقال له أول منازل الحج على أمل أن يصله المدد من معظم الأمراء الأتراك الجراكسة أو بعضهم، ودخل حضرة قائد العساكر على رأس العساكر المنصورة من طريق القدس والخليل، وبعد تأمل يسير اتضحت الأمور بتقدير الله القدير عالم الغيب، وتفرق جمع الأعداء قبل وصول المدد، ومن الأحسن والأولى انتهاز الفرصة فالوقت كالسيف، إن الدفاع واستلال الحسام من غمده أفضل ألف مرة من حياة العار والهوان"[٣].

---

١ - الوثيقة محفوظة في أرشيف متحيف طوبقبو سراي باستانبول، تحت رقم ٨٣٠٥، وصورتها ضمن ملاحق البحث.

٢ - أنظر الوثيقة السابقة.

٣ - أنظر الوثيقة السابقة.

ثـم يذكر هذا الكـاتب كيـف أنـه حـزم أمره وعقـد العزم علـى الالتجـاء الى الجانب السلطـاني حـرصاً على حيـاتـه وتحاشياً للمخاطر التي قـد تقـع لـه إن افتضح أمره، فيقول: "وبموجب القول المشهور "من كثر تأمله في الأمور لم يتشجع "اعتمدت علـى ا لله بـدون تـردد ولا إطالـة تفكـير ولاتشـكك وتوجهـت وفـررت الى الجـانب السلطاني وآثرت طريق السلامة"[١].

وفي نهاية الثلث الأول من صفر سنة ٩٢٧هـ/٢٠ يناير ١٥٢١م تذكـر الوثيقـة الأحداث الدامية التي وقعت بين الطرفين ونتائجها: "وفي ليلة الأحد عند انقضاء الثلث الأول مـن شـهر صفـر (٩٢٧هـ) وصـل الى مسـامع العسـاكر المنصـورة أن الفرصـة أصبحت مواتية، وخلال نصف ساعة من القتال طرحوا الأعداء أرضاً، وركبوا خيـول النصر بمقتضى القول المشهور "الخير معلق بنواصي الخيـل". وبفضـل توفيقـات البـاري وتأييدات الدولة العلية وتقدير ا لله العلي القدير تمكنت العساكر المنصورة بالهمة وقدرة ذي الجلال من الفتح والنصر وتصدت لمكائد الأعداء. وأخذت في طـي الأرض حتـى وقت السحر في جد واجتهاد. وفي الوقت الذي ظهرت فيـه الطلائـع الغـراء للجيـش، انتصـرت أثنـاء الصبـح الصـادق مـن اليـوم التـالي علـى عـدد مــن عسـاكر الجيــش (جانبردي). وغمرت البهجة والمسرة عساكر الطوبجية[٢]. وتقدمت عساكر الروملي في القتال والنزال الى منطقة خفية وأهلكت وقتلت عدداً من قادة الجراكسـة وزعمـائهم. ومثل الغزالي أمام حضرة السباهســالار[٣] (قـائد عـام الجيـش)، فقـد عـانى مـن مآسـي

---

١ – أنظر الوثيقة السابقة.

٢ – طوب: كلمة تركية بمعنى مدفع، حي تفيد الحرفة، والطوبجية هي فرقة العساكر العاملة على المدافع. ومن الجدير بالذكر أن كلمة طوبجي دخلت العامية المصرية. حيث يقال لمن يتصرف تصرفات هوجاء غير منظمة "عامل زي الطوبجي الأعمى". والطوبجية هي العساكر العاملة على المدافع، ويعزى الفصل للمدافع في انتصار العثمانيين على المماليك حيث كان السلاح الأكثر فعالية في المعارك بين الطرفين، ويعتبر السبب الثاني بعد الخيانة في رجحان كفة العثمانيين. أنظر: أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق، ط٢، ص٢٥٤.

٣ – سباهسالار أو سبهسلار أو اسفهسلارى أو اسفهسلار هو مقدم العساكر. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت٨٢١هـ/١٤١٨م: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٥م، م ٦، ص٧، ٨.

الحرب والنزال وضرب السهام وإصابة الرماح لكونه من صيادي الحكم ومثيري الفوضى والاضطراب. وتم اعتقال أكثر الأمراء والأعيان والزعماء الجراكسة، فأهدر دم البعض وترك البعض وحبس وقيد البعض الآخر، وقتل كثير من رؤساء الأعراب والمنافقين عديمي الأدب. وتحقق النصر نتيجة لتلك المقدمات والسوابق"[١].

وبعد أن استولى الغزالي على دمشق خطب له بالجامع الأموي وهو حاضر بمقصورته في يوم الجمعة ٢٢ صفر ٩٢٧هـ على أنه: "سلطان الحرمين الشريفين"، ولقب بالأشرف، وخرج من الجامع في موكب حافل.

وفي ٢٦ صفر خرج السلطان جانبردي الغزالي لملاقاة العساكر العثمانية عندما علم بقدومها الى دمشق تحت قيادة فرهاد باشا، تلاقى الفريقان بأرض النمور شرق قرية برزة في ضواحي دمشق، ودارت بينهما معركة قصيرة، انتهت بهزيمة الغزالي وقطع رأسه وإرسالها إلى العتبة السنية[٢].

(٢) خاير بك

وخيانة خاير بك مسطرة في كتب التاريخ حتى أن بعض الكتابات العربية والتركية العثمانية المعاصرة للفترة كانت تطلق عليه لقب "خاين بك". وقد بدأت هذه الخيانة قبل الفتح العثماني للشام ومصر بأربع سنوات تقريباً من ذي الحجة ٩١٨هـ/فبراير ١٥١٣م إلى المحرم ٩٢٣هـ/يناير ١٥١٧م.

في ذي الحجة ٩١٨هـ أرسل السلطان سليم الأول رسالة سرية الى خاير بك يؤكد فيها على الصداقة والمحبة[٣]. وأول لقاء سري مباشر بين خاير بك وبين القيادات

---

١ – أنظر الوثيقة السابقة. ساعدني على ترجمة هذه الوثيقة من الفارسية الى العربية متحي المراغي وهو أحد الأبناء النابهين في الفارسية بآداب عين شمس.

٢ – ابن طولون: إعلام الورى، تحقيق عبد العظيم خطاب، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٦٦، ٢٦٧.

٣ – الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقبو سراي باستانبول تحت رقم ٥٨٥٠ أ، وهي مترجمة في كتاب: أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق، ص١٠٧.

العثمانية تم في الأراضي العثمانية في جمادى الآخرة ٩٢٢هـ/يوليو ١٥١٦م. والسلطان العثماني في مدينة قونية وهو في الطريق لمحاربة المماليك في مرج دابق[١].

وقد اكتشف نائب الشام الأمير سيباي خيانة خاير بك أمير حلب مبكراً وأفضى الى الغوري بها، إلا أن الغوري لم يصدقه فى ذلك لأن رمالاً للغوري أوعز اليه بأن سيباي سيخلفه في الحكم، فتوجس الغوري خيفة من أن ينقلب عليه سيباي ويتمكن من انتزاع العرش منه.

وظلت خيانة خايربك تمارس دورها الى أن قبض السلطان سليم على طومانباي وأراد أن يبقى عليه دون قصاص، لولا أن خاير بك والغزالي أوعزا الى السلطان سليم بأن طومان باي سيعيد الحكم المملوكي مرة أخرى إن هو ظل على قيد الحياة، مما أوقع الشك والريبة في نفس السلطان فأمر بشنق طومانباي على باب زويلة.

وبموت السلطان سليم في ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ/٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م أقامت المماليك الجراكسة صدورها على حد قول ابن إياس[٢]. ووجد الغزالي الفرصة أمامه سانحة للتمرد، كما وجد خاير بك الفرصة أمامه مهيئة لإدارة شئون مصر كما يحلو له دون خوف أو رهبة من السلطان الجديد سليمان القانوني.

والوثيقة العثمانية التي نحن بصدد عرضها وتحليلها واستخلاص النتائج منها كتبها أحد كبار علماء الأزهر الشريف[٣]. والأزهر الشريف وعلماؤه يحتلون منزلة سامية لدى العنصر التركي عموماً، فالأزهر لدى الترك من المقدسات، وكلام علمائه يصل في الاحترام الى حد التقديس منذ أن دخل الترك في الاسلام وحتى الآن. وهذا

---

[١] - روزنامه حيدر جلبي، ورقة ١٣٥.

[٢] - ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ٥ أجزاء، القاهرة ١٩٦١م، ص٤٦٧.

[٣] - لغة هذا الشيخ العثمانية ركيكة جداً وبها أخطاء لغوية والمحتمل أنه من أصل مملوكي أو مصري تعلم العثمانية و لم يجدها، حيث نجد تركيب الجملة العثمانية يشبه كثيراً تركيب الجملة العربية، وهو في حقيقة الأمر على العكس من ذلك. وقد حرصت عند ترجمتي للوثيقة أن أكون ملتزماً بالنص مع نقل روحه.

بعد أن عرض هذا الشيخ الذي لم يفصح عن اسمه الفساد المستشري في الديار المصرية، أخذ يسدي النصح للسلطان حول ما ينبغي عليه عمله عند اختيار حكام الديار وقياديها. وقد حرص هذا الشيخ الذي لم يشأ أن يذكر اسمه خوفاً من بطش خاير بك وأعوانه أن يكتب هذا ال "عرضحال"، أى الشكوى داخل هذا المكان المقدس الجامع الأزهر في غرة أول الأشهر الحرم رجب سنة ٩٢٧هـ كى يضفي على قوله مصداقية وقدسية بالنسبة لكتابته في الجامع الأزهر، وتيمنا بالشهر الكريم بالنسبة لشهر رجب.

يبدأ الشيخ كلامه[١] بأي الذكر الحكيم من السورة التي تحث على العدل والإحسان ثم يتبع ذلك بالحديث النبوي عن الحاكم العادل، فيقول بعد البسملة: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون." قال النبي: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته".

ثم ينفي الشيخ عن نفسه تهمة أي غرض سيء من وراء شكواه، ويؤكد على أنه يكتب عن واحد في الألف من أحداث الفساد المنتشر في أرجاء الديار المصرية، فيقول: "ليس هناك غرض من وراء كلامي هذا على أي صورة من الصور. بل إنني مطلع على الأحوال وأكتب عن واحد في الألف منها. لقد وصلت رقاب كثير من المسلمين الى حد أن تكون أمانة، ولهذا فإنني أقوم بإخطاركم بالأوضاع. والأمل أن يصل معروفكم ويعم خيركم بفضل الله تعالى. إنني مطلع على كل ظلم وتعد وكل أمر غير مشروع بما لايمكن للقلم أن يصفه".

وبعد ذلك يحدد شخص خاير بك الذي يحمله مسئولية تردي الأوضاع في البلاد، فيقول: "تصدر عن خاير بك مظالم. وليس من المعروف كيف يقدر الإنسان على أن يجيب على ذلك يوم القيامة، حاشا لله وكلا. وفي نفس الوقت فإن هذا

[١] – الوثيقة محفوظة في أرشيف متحف طوبقبو سراي باستانبول، تحت رقم ٧٦٧٠، وصورتها ضمن ملاحق البحث.

الظالم هو الظالم الأصلي في الربع المسكون من العالم. والرعية لدينا مساكين قبل كل شيء وبعضهم من أصحاب المحال التجارية الذين كونوا أموالاً من الخارج بطريقة مشروعة. والمال ليس مالهم وحدهم بل مالهم ومال عيالهم. وحتى الذين يعملون بالحمامات الخارجية، فإنه استولى على ماتحت أيديهم من أشياء وباعها جميعاً.

ويتحدث الشيخ عن رأس الفساد الذي فرض على أهالي مصر الأتاوات، فيقول: "أما رأس الفساد كله فهو شخص مشهور يدعى جانم الحمزاوي[١]. اشتكى منه المسلمون. وقد سمعنا عن أسباب شكواهم، حيث يقولون: كان هناك بعض الجراكسة الذين كنا نعطيهم أقجتين[٢] فأصبحنا الآن نعطيهم ست أقجات، والذين كنا نعطيهم أقجة واحدة أصبحنا الآن نعطيهم أربع أقجات. وليت الجراكسة بقوا على حالهم. لقد استولى عليهم الحزن العميق. وقد وقفنا على أحوالهم جميعاً واطلعنا عليها".

ويبدو من استعراض الفساد المتنوع الذي يتحدث عنه هذا الشيخ ويوفي الحديث فيه أنه كان واقفاً على مجريات الأمور وعلى تطور الأحداث في جميع الجوانب حيث تحدث بدقة وبشكل واقعي عن أوضاع مختلة تجتاح الديار المصرية وتوابعها وتعصف بالأخضر واليابس. وقد ذكر الأحداث بالتفصيل وذكر صانعيها أيضاً ممن ارتكبوا الفساد أو شاركوا في صنعه. فعن والي صنجق بلبيس ومفاسده يقول: "وصل شخص تولى صنجق بلبيس في ديار الشرقية، ويقولون أنه كان كاشفاً على أذنه[٣] قبل مجيئه، فظلم وتعدى وأساء الأدب. وقد جاء المسلمون الشاكون في عهد المغفور له

---

١ – جانم الحمزاوي أحد الأمراء المماليك المشاهير كان يعمل كاشفاً على الصعيد وأميراً للحج.

٢ – الأقجة: ضربت هذه السكة لأول مرة في عهد السلطان أورخان في بروصة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، وهي تختلف عن كل أنواع السكة الاسلامية المستعملة في ذلك الوقت مثل الدرهم والدينار. كان الدرهم الواحد يساوي ٥ أقجات من العملة المضروبة في عهد سليم الأول وسليمان القانوني. وقد كثر غش الآقجة في اليمن ومصر. ومن الجدير بالذكر أن الجبرتي يقول عنها الآخشا أو الأقشا. بـاك آلـين: م١، ص٣٢، ٣٣.

٣ – أذنة أو أضنه، مدينة تقع في جنوب الأناضول.

السلطان سليم الى فرهاد بك وموسى بك وقدموا الشكاوى مطالبين بعزل خاير بك. فأسرع قاضي العسكر[١] لتنفيذ قانون آل عثمان، وأخذ منه ما لا يحصى ولايعد من أموال المسلمين ودمائهم. ولم يرجع لأحد من المسلمين آقجة واحدة. وكان ينتظر بعد أن جمع كل هذا منه عندما علم بخبر جلوس السلطان الجديد (سليمان القانوني) على العرش، أن يقوم بتغيير البكوات. وقال (قاضي العسكر) إذا ظلم أغا الانكشارية وارتشى بـ "بارة"[٢] واحدة لأخذتها منه. ان ذلك الملعون غير المتدين يعتدى على البلاد. ولا يمكن للسان أن يصف العقاب الذي ينزله بالمسلمين حالياً، حيث يستولى على أموالهم على سبيل المثال. إننا نشكو الآن لأنه يستولي على الأمول ويقتل ظلماً وعدواناً. إنه يقول: "إذا عزلت فلا تشكوا مني". إننا نتوسل با لله العظيم من ذلك الكاشف المذكور الذي يرتكب المظالم الفظيعة التي لايستطيع القلم أن يعبر عنها".

وعن المباشر المدعو الشيخ يونس يقول عن تعديه على الأهالي وعن رد فعل أمير الأمراء خاير بك الظالم: "من جملة ذلك أن خاير بك له مباشر يناصره ويدعي الشيخ يونس من أذنه، وفي حوزته من الجواري المسلمات الكثير، وكل البلاد ترهب جانبه، ونحن فقراء مستضعفون، وذات يوم طلب ذلك الملعون غير المتدين من أحد المسلمين جارية حبشية. فلم يعطها له، وقال له: إنها ولدي. فأقام عليه ذلك الملعون المعتدي دعوى باطلة على أي وجه من الوجوه. ورتب خاير بك الأمور. وعندما طلب ذلك المسلم بدعوى إساءة الأدب، قال: مادام الأمر كذلك فلابد من حضور قضاة يعملون بالشرع المحمدي، وقال خاير بك: فليحضر القضاة ليمثلوا أمامي كي أستمع إليهم. قال المسلم: طلب ذلك "المنصور" أم ولدي، فرفضت: فقام

---

١ – قاضي العسكر هو رئيس القضاة في الدولة العثمانية، وهو يتولى قضاء العساكر خاصة. بكير صدقي بايقال: معجم المصطلحات التاريخية، انقره ١٩٨١م، ص٥٧.

٢ – البارة عملة ظهرت فى مصر لأول مرة ٨١٨هـ/١٤١٥-١٤١٦م في عهد الملك المؤيد المملوكي، كما سكت عند العثمانيين لأول مرة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥-١٦٣٦م، وأعتبرت الآقجة جزء من البارة، فالبارة تساوي ثلاث آقجات. باك آلين: م٣، ص٧٥٢.

هذا "البـك" ببهتـان عظيـم. ومـاكنت احرؤ علـى إقامـة دعـوى علـى مباشـركم في حضوركم. ومادام الأمر كذلك فلابد من قـاضي عـدل يحضـر المقاضـاة مـع هـؤلاء القضاة. ومن أجل ذلك الملعون ألغيت الدعوى التي أقيمت في ذلك المجلـس، وأمـر بـه فصلب".

والعريضة في أغلبها يحمل فيها الشيخ ثلاث قيادات مسئولية الفساد كله، وهم: خاير بك أمير أمراء مصر، وجان بردي الغـزالي أمـير أمـراء الشـام، وجـانم الحمـزاوي كاشف الصعيد وأمير الحج، يقول: "أما جان بردي الغزالي الملوث غير المتدين الملعـون في كل دين فسأعرض قضيته: عوق الغزالي القافلة التي كانت متجهة الى الحجاز بعديد من العراقيل. وبعد أن اتجه عظمة السلطـان صـاحب الدولة الى جهة مـا، انتهـز ذلـك الملعون الفرصة وعاث في كل النواحي فساداً، واتجه الى جبل الطور على حين غفلـة". "وذات مرة اتجهت السفن الى بلدة في ديار جدة. وجاء اليها تاجر مسلم مشـهور مـن بعيد ومن قريب من ديار الهنـد للقيـام بـالبيع والشـراء. وقـد أعطـى جـانم الحمـزاوي المفتري على الدين الظالم المرتشي لأحـد مواطنيـه الحلبيين ويدعـى أبـو البقـاء وظيفـة رئاسة التجار بجدة (شاهبندر). وقد استولى هو أيضاً علـى أمـوال طائلـة وأرسـلها الى بلدته. و لم يهيء المذكور الأسباب والدوافع التي دعته بعد وصوله الى جدة الى إيقـاف التاجر المذكور والتفكير في منعـه مـن الوصـول الى جـدة. ولكـي يعـوق عملـه بكـل الوسائل أخبر عنه ملك الأمراء (خاير بك). فانتشر المنادون في المدينة ينـادون قـائلين: محرم على أي شخص في هذه الديار جمع السـكة الآقجـة الفضـة والمضـى بهـا خـارج البلاد. الا أن هذا الهندي المسلم كان قد أجاز لنفسه السفر فوراً قبل أن يعلن المنـادون عن ذلك بشهر واحد". "وفي النهايـة كـان هنـاك جـاويش مشـهور يدعـى "علـى الروسي" يتصف بعدم الرحمة وعدم الشـفقة وعـدم التديـن عـين في "الطـور" وعندمـا وصل الى هناك جمع سكة من الآقجة مدعيا أنه يملك أمـراً بذلـك. وقـد أخـرج الأمـر وأمسك به في يده. وهذا يعني أن هذا الجاويش المذكور يحقـر مـن شـأن المسلميـن.

حاشا لله أن يحدث ذلك حتى ولو كان موجها لمسلم كافر في طوس[1]. وقد ذكر كاتب ملك الأمراء في حديثه أنه لم يقل له ذلك. وقبل أن يقول ذلك كان هذا الجاويش قد سافر فجأة. ولأنني قلت أنه من الصعب الكتابة في موضوع قتل القانون العثماني، فقد أجاب قائلاً: إنك تريد أن تحقر من شأن "البك"[2].

وفي مجال السكة وتعذر الحصول عليها يقول الشيخ: "جعل الله يوماً واحداً في عمر السلطان صاحب الدولة بألف يوم، فمنذ زمن طويل لاتسك سكة الآقجة في الكعبة المشرفة أو جدة المحروسة أو اليمن والهند أيضاً. ولايستعمل أحد في هذه النواحي سكة غير التي تصل اليه من مصر وبلاد الروم[3]. فلو حدث مثلاً ومنع وصول السكة من هذين البلدين وهي لم تمنع قط في أي وقت من الأوقات، لتعذر على المسلمين في تلك الديار الحصول على خبزهم ولحومهم ومعيشتهم. حاشا أن يعجز السلطان حامي العالم عن الوفاء بذلك".

وعن قاض ظالم ومدى فساد تصرفات خاير بك تجاه ظلمه، يقول: "كان هناك قاض يمعن في الظلم في الكعبة المشرفة شرفها الله، فأخبروا المرحوم السلطان سليم الأول عن وضعه. وعندما فوض السلطان خاير بك في هذا الموضوع أمر به فأحضر الى مكان مناسب وتم تفتيشه. وعين مكانه عالماً فاضلاً متشرعاً ومتديناً يدعى الشيخ نور الدين. وعندما علم خاير بك بموت السلطان سليم عزل ذلك "العزيز" وأعاد مكانه صاحبه القديم. ولم يطل بهذا الرجل المقام حيث توفى، ولم

---

[1] - طوس: مدينة في ايران.

[2] - المقصود به خاير بك.

[3] - كانت كلمة "الروم" شائعة في الكتابات العربية في العصور الوسطى وكان المقصود بها الترك، لأنهم استوطنوا بلاد الروم (البيزنطيين) في الأناضول، فأطلق عليهم العرب هذه التسمية. كما كانت هذه التسمية ترد في الكتابات العثمانية أيضاً قبل أن تتضح الهوية العثمانية.

يكن له عقب غير ابن أخيه. وقد تمكن ابن أخيه الجاهل السمج من رشوة الشريف بركات[١]، فحقق رغبته وعينه في منصب القاضي الأول في الكعبة".

وعن والى جدة العادل ودفتر دار العربان الظالم والكاتب الفاسد وتصرف أمير الأمراء خاير بك غير العادل تجاه كل منهم، يقول: "كان هناك "بك"[٢] مشهور في جدة يدعى حسين بك يتصف بالعلم والتدين لم يظلم أحداً قط، ومع ذلك وجه اليه (خاير بك) التهم وعزله". "وكان هناك دفتردار على العربان يقال له عيسى بك، بلغ ظلمه مبلغ الجبال لدرجة أنه كان يستحوذ على عدد كبير من المزورين. وقد تحقق (أمير الأمراء) من ظلمه. ورغم أنه كان مطلعاً على أحواله كلها، إلا أنه عندما علم بقدومه الى مصر عينه نائباً على جدة. كما كان هناك كاتب يعبث في مصر فساداً ويتصرف بحرية في المدينة، وكان هو الذي اتهم حسين بك وتسبب فيما حدث له".

وعن الجواري المسلمات ومالكهن الكافر وتصرف ملك الأمراء تجاه مسألة أخرى عن الجواري، يقول: "كان هناك كافر يستحوز على خمس جاريات مسلمات يتصرف فيهن كيفما شاء، فهربن ولجأن الى أحد المسلمين، فما كان من (خاير بك) إلا أن أرسل من طرفه من قتل المسلم. ثم أرسل الى الكافر بمجموعة من الرجال لشد أزره وتقوية جانبه. وكنت أنا الشخص الوحيد الذي ذهب الى خاير بك، فقلت له: إنك لاتخاف الله، لقد قتلت مسلماً وقويت جانب الكافر، فماذا سيكون جوابك أمام الله. فرد علي قائلاً: إن هذا الإفرنجي معروف لدى أكابر الناس منذ زمن طويل، ولهذا قويت جانبه على سبيل الاحتياط ".

وعن دائن ومدين وحكم ملك الأمراء على الدائن دون وجه حق، يقول: "وفي خان الخليل[٣] كان هناك رجل أقرض شخصا مبلغا من المال . فشكا للقاضي، فما كان

---

[١] - الشريف بركات هو والي مكة المكرمة في ذلك الوقت.

[٢] - بك المقصود به هنا وال.

[٣] - المقصود به حي خان الخليلي الحالي في قلب مدينة القاهرة.

من القاضي الا أن حجزه في دكانه على سبيل الحبس. فشكا موكل صاحب المال الى خاير بك. فأرسل خاير بك جاويشا لتفقد الأمور. وعندما وصل الجاويش قال للمدين: اعط الدائن حقه. فرد الدائن قائلاً: لقد طلبته أمام القاضي في أول الأمر ثم سلمته له. فهل تسمح لنا جميعاً بالذهاب الى القاضي؟ فرد الجاويش قائلاً: أنا لاأعرف القاضي!. وعندما أراد الجاويش أن يضرب الدائن بهراوته أمام جمع من المسلمين، حاول صاحب الحق هذا أن يمنع الضرب عن نفسه فتعلق بهراوته. فما كان من الجاويش الا أن شكاه لملك الأمراء. فمثل ذلك الدائن أمام ملك الأمراء و لم يفتشه أحد، بل إنه أمر به فقتل".

وعن جانم الحمزاوي الذي استولى على العوائد التي تصرف لأمير الحج وعلى أموال المسلمين، يقول: "وكان جانم يعمل كاشفاً في ديار الصعيد، وكان أميراً للحج المتجه الى مكة في نفس الوقت. والمعروف أن هناك عوائد تصرف من خزينة مصر لأمراء الحج كما جرت العادة منذ قديم الزمان. الا أن أمير الحج هذا ماكان ينفق من هذه العوائد. وكان فضلاً عن ذلك يستولي على أموال الكثيرين بدعوى أنها مقابل أتعاب الأعمال الكتابية. لقد تسلط على الأهالي وظلم، وأوصل البلاد الى حافة الخراب. وكان يستولي على أموال المسلمين ويسفك دماءهم".

ثم أخذ الشيخ الأزهري ينصح السلطان ويحثه على رفع الظلم عن كاهل المسلمين وعن كاهل الرعية عموماً بالقضاء على الرشوة وعلى الفساد وعلى جباية الأموال قسراً وقهراً دون وجه حق من الرعايا الآمنين. فيقول عن ظلم خاير بك: "وخلاصة القول يامولاي السلطان صاحب الدولة أنني أستعيذ با لله من ظلم خاير بك الذي لايمكن للسان أو القلم أن يعبر عن مداه. أما عن غلبة الفقر والعجز فقد تحدثت أنا عبدكم عما أعرفه في عز حضور مولاي السلطان حامي العالم، لكنني أعجز عن

وصف ذلك تمام الوصف. وقد دفعني الى إخطاركم بهذا ماتأكد لدى من أن غرضكم ومقصودكم يامولاي السلطان صاحب الدولة هو العدل، وترك اسم طيب في هذه الدنيا. ولأنني غير راض عن هذه الأعمال، فقد أردت أن أنقل هذا من ذمتي الى ذمتكم دون غرض سيء. وأذكركم بأنه لن يكون هناك جواب شاف أمام الله، ولهذا ينبغي تدارك الأمور".

ويؤكد الشيخ على أن كبار رجال الدولة في مصر يقفون على أحوال البلاد المتردية ويعلمون بتصرفات أمير الأمراء وإنفاقه وتبذيره، فيقول: "فليصغ حضرة السلطان خلد الله خلافته، فمن الأمراء ومن الوزراء ومن أرباب الدولة من يعرف أحوال تلك البلاد تمام المعرفة. وهذا شيء مؤكد لاشك فيه، حيث أن (خاير بك) ينقل الخبز من هذه الديار الى تلك الديار. وينفق أموالاً طائلة، وهو مالا مجال للحديث عنه. إنه ينفق ٣٠٠٠٠ أرشفي[١] أو ٢٠٠٠٠ أشرفي. وأدنى حد يصل اليه إنفاقه هو ١٠٠٠٠ أشرفي أو ٥٠٠٠ أشرفي. وكل هذه الأموال تؤخذ ظلماً وعدواناً من كاهل المسلمين".

وعن بعض الولاة ومظالمهم، يقول: "في عهد المرحوم السلطان سليم الأول كان هناك "بكوان" مشهوران، هما: موسى بك وفرهاد بك. الأول كان والياً على صنجق طرابلس والثاني كان والياً على صنجق غزة. وكان كلاهما لايعمل على منع الظلم أو التعدي أو اساءة الأدب. أما الآن فإن الظالم المرتشي الشهير الذي يدعى "بستانجي[٢] علي" عين أحد أتباعه عن طريق الترهيب والوعيد رئيساً على السباهية[٣].

---

[١] الأشرفي عملة مملوكية

[٢] ... هو رجل ... سلطانية في مطلع العصر العثماني، ثم أصبح من العساكر المكلفة بحراسة القصور السلطانية فيما بعد. بكير صدقي ص٢٣

[٣] السباهية ... من الفرسان كانوا يمنحون إقطاعات من الأراضي تسمى تيمار أو زعامة أو خاص، يحصلون عشورها ورسومها لهم مقابل ... في المعارك. ... م٢، ص٢٣٢.

وكان من يسمى نصوح بك "بك" في صنجق حماه، فعينه والياً على هذا الصنجق، إلا أنه لم يذهب الى وظيفته هذه. والذين علموا بعدم مجيئه فرحوا وشكروا".

وعن الظلمة وكيفية محاسبتهم، يقول: "إذا أراد السلطان حامي العالم أن يعرف أحوال تلك البلاد جيداً، فعليه أن يرسل اليها كثيراً من الاشخاص الذين يعتمد عليهم من الأكابر بشرط أنهم إذا ذهبوا هناك و لم يمكن العثور (على الظالمين)، ينادي المنادون فوراً عند حدود البلاد بالقبض عليهم. واذا أقر الكشاف والحكام وخاير بك بأنه لم يمكن العثورعليهم وكانوا قد ظلموا الشاكين والمظلومين خلافاً للشرع والعرف وعجز الناس عن محاسبتهم، ثم أمكن العثور عليهم يجبرون على رد الأموال للمظلومين وإبداء الاحترام الواجب. وإذا ظهر أنهم كانوا نظيفي اليد فلا مجال لمحاسبتهم".

وينصح السلطان بإعمال الدقة في اختيار من يتولون أداء الخدمة، ويحثه على مؤازرة العادلين من الولاة والمسئولين، كي يطيع الناس الوالي الذي يختاره السلطان حتى ولو كان عبداً من العبيد، فيقول: "إذا وصل إليكم يا مولاي السلطان من يريدون أداء الخدمة فعليكم على سبيل التجربة أن تسألوا عن أيهم يتصف بالإقدام، ثم تنفقوا عليهم قدرا من المال وتقدموا لهم الرعاية اللازمة. وإذا وجدتم يا مولاي السلطان أحداً يتصف بالإسلام ويحارب الفسق ليلاً ونهاراً من أجل إشاعة العدل ويغمض عينيه عن المال الحرام، فآزروه. وليكن الاعتقاد لديكم يا مولاي السلطان في هذه الحالة أنكم إذا أرسلتم عبداً أسود ليحكم البلاد مثلاً، فإن الجميع سيطيعونه. ولن يكون هناك من أمراء العرب ومن العساكر أحد يقوم بالتمرد على أي صورة من الصور. وسينقاد الجميع ويطيعون هيبة وعظمة سلطنة مولاي السلطان حامي العالم".

ثم يسرد بعض المفارقات، فيقول: "أما إذا كان مولاي السلطان يريد أن يطلع على مامضى فإني أقول له: كان فرهاد بك حاكماً على صنجق طرابلس فعين الآن

أغا للإنكشارية. وكان موسى بك حاكماً على صنجق غزة فعين الآن أغا للإنكشارية. وأصبح خير الدين أغا أيضاً. وعليكم يا مولاي أن تستدعوهم لحضوركم الشريف كي يقسموا قسم الولاء، ثم تفتشوا عن أحوالهم بدقة وتخبروهم عن أوضاعهم. وينبغى أن يكونوا أشخاصاً ينفقون بحكمة ..".

ويتحدث الشيخ مرة أخرى عن فساد جانم الحمزاوي في مصر ونهبه لأموال الناس، فيقول: "السلطان هو الذات التي تشغل نفسها بمحاربة الفسق ليل نهار. وإذا أتينا الى البيت المصري نجد أنه تحت حكم جانم الحمزاوي من أوله الى آخره. لقد قسم جميع المملكة جزءً جزءً على عماله. ولم تتوقف شهوره وسنينه عند هذا الحد، بل إنه يطلب الآقجة منهم. ويجمع الآقجة كذلك من تجار "خان الخليل" بواقع ثلاثة أشهر عن كل أربعة عشر أو خمسة عشر شهراً، ثم يوزعها على البكوات. أنه رأسمالي يعمل لمصلحته ولمكسبه. وكل هذه الأموال تجمع من كاهلنا نحن المساكين".

ثم يتحدث في النهاية عن ملك الأمراء خاير بك وعن توزيعه للمناصب على اتباعه، فيقول: "وإذا كان حضرة السلطان حامي العالم قد تعطف على هذه المملكة بنظر عنايته وعين واحداً من عبيده أميراً للأمراء عليها، فإن (أمير الأمراء) جعل من كشافه جميعاً صناجق. وإذا لم يعط عبيدكم شيئاً، فإن المسلمين والرعايا لن يستطيعوا التخلص من المظالم".

وينهى الشيخ حديثه بالقسم بالأيمان المغلظة على أنه ليس لديه غرض سيء من وراء شكواه، إنما فعل هذا ابتغاء مرضاة الله، فيقول: "لقد أخطرنا حضرة السلطان حامي العالم طال بقاه عن هذا الذي يغفل عنه. وباقى الأمر متعلق بذاته السامية. والمملكة والرعية رهن يمينه". "أما والله العظيم والله وبالله وتالله ثم والله العظيم البار الرحمن الرحيم عالم الغيب والشهادة وبروح رسول الله الطاهرة المطهرة النقية لا يوجد لدي غرض سيء قدر ذرة. لقد رأيت خاير بك مرتين من ظهره فقط طوال

عمري ولاأستطيع أن أميز شكله[١]. وأخبرتكم بهذا القدر بسرعة لله في ا لله. وباقي الأمر متعلق بمولاي حامي العالم، فليعلم هذا.".

كتب في جامع الأزهر

في أول يوم من شهر رجب الحرام في سنة ٩٢٧هـ

ويبدو من استعراض الفساد المستشري الذي تحدث عنه الشيخ أنه في رأيي كان في الغالب ميراثاً من العصر المملوكي الذي كثرت فيه الشكاوى والمفاسد والأزمات والانهيارات والقلاقل في أواخر أيامه، ولم يكن وليد العصر العثماني بعد حيث لم يمر على الحكم العثماني للشام ومصر أكثر من أربع سنوات حين كتبت هذه الظلامة وسجلت الأحداث المؤسفة التي كانت تدور في الديار المصرية.

وأصدق وصف يمكن أن يوصف به جان بردي الغزالي بعد استقراء هذه الأحداث وغيرها، أنه كان انتهازياً بمعنى الكلمة ..

---

[١] – من المفارقات أن يذكر الشيخ في ص١٣ و١٤ من هذا البحث أنه قابل خاير بك مرة واحدة وجها لوجه، وهنا يذكر أنه رآه مرتين من ظهره فقط طوال عمره.

قبائل أولاد علي وعلاقتها بالسلطات العثمانية الحاكمة في مصر

أ. د. محمد محمود السروجي

جامعة الإسكندرية

جاءت القبائل من شبه الجزيرة العربية إلى مصر مع الفتح الإسلامي لها في القرن ٧م، وتوالت بعد ذلك هجرات تلك القبائل لأسباب متباينة، يأتي على رأسها الدافع الديني، وكذلك الدافع الاقتصادي، وطبيعة شبه الجزيرة الطاردة، هذا فضلاً عن تشجيع ولاة مصر لحركة الهجرة، وذلك لصبغ مصر بالصبغة العربية[١].

وقد انقسم عرب مصر إلى قسمين: عرب رحل تنتقل وراء الماء والكلأ من مكان إلى آخر، وعرب استقروا بالأرض واحترفوا الزراعة[٢].

ويقيم في إقليم البحيرة قبائل أولاد علي بصفة أساسية، وإن انتشر بعضهم في الصعيد والفيوم والإسكندرية، وهذه القبائل هي: البهجة، وبنو عون، والجوابيس، والجميعات، والهوارة، والربايع، واللزد، والنجمة، والتمامة[٣].

كما تنقسم قبائل أولاد علي إلى ثلاثة أقسام رئيسية: -

أ - قبائل أولاد علي الأبيض، ومن بطونها أولاد خروف، والسناقرة، والعزايم.

ب - قبائل أولاد علي الأحمر، ومن بطونها الكميلات، والغشيبات، والقينشات.

ج - قبائل السننة.

---

١ - سميرة فهمي: دور عربان الوجه البحري في تاريخ مصر العثمانية ٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٨٩، ص٤٤-٤٦.

٢ - شابرول: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، من كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، ج١، ص٢١.

٣ - احمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، جمعية عربان العقيلات، القاهرة ١٩٣٥، ج١، ص١.

وقد انتشرت قبائل أولاد علي في بادئ الأمر في منطقة الجبل الأخضر بليبيا مع قبيلة الحرابي، وهم من ذرية حرب وفايد أشقاء أولاد علي، وجدهم عقار، وتضم خمس بطون هم: العبيدات، والبراعصة، والحاسد، والفوايد، والدرسة[١].

وعادة ما تحمل القبيلة اسم شيخها عند تكوينها، أو تحمل اسم إحدى الفترات الهامة التي مرت بها، ويظل هذا الاسم تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل[٢]، فالعقاقرة (أبناء عقار) ينحدر منهم الحرابي، وأولاد علي، والهنادي، وبنو عون، والجبالية. ويذكر المقريزي أن هؤلاء قد انتشروا في أرض الدلتا شرقاً وغرباً، وبعض مناطق الصحراء الغربية الواسعة، وأصبح منهم الخولة، وقضاة النواحي، والملتزمون[٣].

وسنجد أن الهجرات التالية للهجرات التي نزلت بأرض مصر قبل العصر العثماني قد حطت رحالها إلى جوار القبائل التي سبقتها في قرى البحيرة، وإن الدراسة الإنتروبولوجية لقرى البحيرة قلما تجد قرية إلا وبها عائلات تنتمي إلى أحد فروع القبائل المغربية التي استقرت في تلك المناطق، سواء من الموجة الأولى أو الموجات اللاحقة[٤].

وتمتد فروع القبيلة الواحدة في أكثر من قرية، مثل قبيلة أولاد علي التي تنتشر في أبي المطامير، والدلنجات، واتياى البارود، وأبي حمص. وقد لجأ هؤلاء إلى الصعيد الأوسط عندما طردوا من ضواحي الإسكندرية في صيف عام ١٨٠٠.

---

١ - خير الله عطيوه: رحلة الألف عام مع قبائل أولاد علي، الإسكندرية ١٩٨٢، ص١٠٨.

٢ - دي بوا إيمه: القبائل العربية في صحراوات مصر، كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، ج٢. ص٢٧٣.

٣ - المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي نيل، تحقيق وتأليف عبد الحميد عابدين، القاهرة ١٩٦١، ص ص ٣٦، ٥٨، ١٦٧.

٤ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨)، تونس ١٩٨٢، ص٣٢.

حياة قبائل أولاد علي وعاداتهم وتقاليدهم

إن للقبيلة نظاماً خاصاً بها، يتميز عن سائر الأنظمة الأخرى السائدة في المجتمعات غير القبلية، فهو نظام اجتماعي له قوانينه وتقاليده وأعرافه، وله شخصيته وسماته، وهو ما نسميه بالقبلية، فالقبلية إذن سلوك خاص، يحفظ للقبيلة مصالحها وبقاءها[١]. فالقبيلة مجتمع صغير، يقوم على رئاسته ورعاية شؤونه شيخ القبيلة، وهو يتولى منصبه عن طريق الوراثة، ويشترط فيه أن يكون قوياً واسع الصدر كريماً، وللوصول إلى هذا المنصب، على من يسعى إليه أن يستخدم مهارته وكياسته لإقناع أفراد قبيلته باختياره[٢]. ولشيخ القبيلة صلاحيات واسعة، مثل إقرار السلم وإعلان الحرب، وعقد الأحلاف بين قبيلته والقبائل الأخرى. وفي حالة الحرب، عليه أن يقوم بدفع فدية الأسرى ودفع الدية، ومساعدة الفقراء، واستضافة الغرباء[٣]، وخيمة شيخ القبيلة بيضاء اللون، يرتفع أمامها علم القبيلة، أما بقية الخيام فسوداء اللون، وتقسم الخيام إلى قسمين: قسم للرجال والآخر للنساء[٤].

وللقبائل العربية عادات وتقاليد يحرصون عليها ويتمسكون بها، ويعاقبون كل من تسول له نفسه الخروج عليها أو العبث بها، سواء كانت هذه العادات سيئة أم حسنة، ومن عاداتهم أنه إذا وفد عليهم ضيف أن يكرموه ثلاثة أيام[٥]، وبالمثل إذا وفد على الفلاحين ضيوف من العربان عليهم أن يكرموا وفادتهم ثلاثة أيام أيضاً[٦].

---

١ – عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة ١٩٦٧، ص٢٢٧.

٢ – اندريوسي: رحلة إلى وادي النطرون، من كتاب وصف مصر، ص٧٠.

٣ – إبراهيم خورشيد وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، ص٤٩٣.

٤ – سميرة فهمي: المرجع السابق، ص١٨٥.

٥ – فولني، س ف: ثلاثة أعوام في مصر والشام، ترجمة إدوارد البستاني، بيروت ١٩٤٩، ص ص٢٥١، ٢٠٢.

٦ – دي بوا ايميه: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٢.

أما عن ملابس هؤلاء العربان فتكاد تكون واحدة، إذ يرتدي الرجال لباساً فضفاضاً مصنوعاً من القطن أو الصوف، ويلفون حول وسطهم حزاماً أبيض اللون وسروالاً من التيل، وبعضهم يرتدي عباءة من الصوف الرقيق أو شالاً[١]. أما النساء فيرتدين جلباباً طويلاً وسروالاً وعصبة وحجابين، إحداهما أكثر اتساعاً ويوضع فوق الرأس والآخر أصغر منه حجماً فيوضع فوق الوجه أسفل العينين مباشرة، ويثبت بقصاصتين من القماش تعقدان خلف الرأس[٢]. وعادة ما يتحلى النساء بالوشم على الوجه والشفايف واليدين والقدمين. أما الرجال فكان الواحد منهم يرسم على ذراعه صورة أسد أو الاسم الأول من محبوبته[٣].

وأغلب طعام العربان التمر واللبن، وكذلك الأرز والعصيدة والدشيشة وأشياء أخرى، وهم لا يتناولون اللحوم إلا في الأعياد والمناسبات[٤].

ونظراً لأن العربان أناس بسطاء سذج، فإن للتعاويذ والتمائم سلطان كبير عليهم، فعادة ما تراهم يحملون كيساً صغير الحجم من الجلد يتدلى من حول رقبتهم أو تحت إبطهم، ويضم بعض الأوراق المدون عليها عبارات غامضة كتبها أحد الدراويش أو أحد المسيحيين أو اليهود[٥]. وإذا ما نمت شجرة بالقرب من أحد القبور اعتبروها معجزة، ويعتقدون بأن بها روح جنى فيقدسونها ويعلقون عليها قطعاً من القماش كتبت عليها كلمات غامضة، وذلك لجلب الحظ وتدمير الأعداء[٦].

---

١ - دي برا ايه: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٢.

٢ - عطيره: المرجع السابق، ص١٨٨.

٣ - عطيره: المرجع السابق، ص١٨٧.

٤ - دي برا ايه: المرجع السابق، ص٢٨٦.

٥ - دي برا ايه: المرجع السابق، ص٢٨٤.

٦ - دي برا ايه: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٢.

أما عن الزواج فالعربان يتزوجون في سن مبكرة، وتتعدد زوجاتهم بهدف الإكثار من الذرية التي تحقق لهم السيادة والنفوذ والثروة[١]، وتمر مراحل الزواج بمراحل متعارف عليها، أولاها الخلطة أو الخطبة، وثانيها الاتفاق على الزواج، وثالثها قراءة الفاتحة، ورابعها العرس وهو يوم الاحتفال بالزفاف، وأخيراً الزور، وهو أن يقوم أهل العريس بزيارة أصهارهم بعد مضي أسبوع على الزواج،.وللزوج والزوجة حق الطلاق، فإذا كان من جانب الزوج عليه دفع المهر وجميع النفقات، وإذا ما طالبت به الزوجة فعليها إثبات الكراهية أو المرض أو العيب عند الزوج، وإذا ما تحقق لها هذا عليها رد كافة ما تحمله الزوج من نفقات[٢]. ومن الأصول المرعية أن العربان لا يتزوجون إلا من أفراد قبيلتهم أو من قبيلة أخرى، ولكن بمرور الوقت وبدوام مخالطتهم للفلاحين بدءوا مؤخراً التزوج من بنات الفلاحين، وساعد هذا الزواج عملية الاندماج في المجتمع المصري[٣]، وأثر ذلك على العادات والتقاليد والأعراف، ولكن العربان لم يسمحوا لبناتهم بالزواج من شباب الفلاحين. وكان الزواج والطلاق بين القبائل المستقرة لا يتم عرفياً وإنما يسجل بمحكمة رشيد أو الإسكندرية الشرعية[٤]. ومن عادتهم أيضاً اقتناء العبيد السود والسراري، كما أنهم يتزوجون من العتقاء العبيد والجواري[٥]. وفي حالة وفاة الزوج وترك ابناً وابنه فإن الابن يرث ثلاثة أرباع القطيع، أما إذا ترك أبناء وعدة بنات ففي هذه الحالة يرث الابن النصف فقط،

---

[١] - دي بوا ايميه: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٢.

[٢] - عطيوه: المرجع السابق، ص١٧٥.

[٣] - عبد الله خورشيد: المرجع السابق، ص٤٩.

[٤] - دار الوثائق القومية بالقاهرة، سجلات محكمة إسكندرية الشرعية، سجل ١، سنة ١٠٥٧هـ، مادة ٤٨٦، ص١٠٢ ؛ أرشيف الشهر العقاري بدمنهور، سجلات محكمة رشيد، سجل٧، سنة ٩٨١هـ، مادة ٧٩٧، ص١٠٧.

[٥] - سجلات محكمة رشيد، سجل ٢٩، سنة ١٠٠٠هـ، مادة ٧٩١، ص٢٦٦.

وعندما يتوفى الزوج ويترك زوجة لا أبناء لها فإن لأهله الحق في ميراث ما كان سيؤول إلى أبنائه إذا كان له أبناء، وإذا ما كان للزوج زوجة ثانية ولها أبناء وفي الوقت نفسه كان له أبناء من زوجته الأولى فإن الزوجة الثانية لا حق لها في ميراث زوجها إلا ما منحه إياها بمقتضى وصيه يوصي بها ويصدق على ذلك شهود[١].

وتستخدم قبائل أولاد علي كلمتي البيت والعائلة، فالبيت عبارة عن الوحدة القرابية التي تربط الأب بأولاده وأحفاده، والتي تقيم في نجع واحد، وتكون وحدة اقتصادية يتعاون الجميع في استثمارها وتنميتها، أما العائلة فتشمل عدة بيوت وتمثل وحدة قرابية أيضاً[٢].

ونلاحظ أن قبائل أولاد علي التي استقرت في القرى الواقعة على حافة الصحراء أخذت تتعايش مع الفلاحين، وحدثت بينهم بعض المصاهرات، أدت إلى انتقال بعض فروع تلك القبائل إلى القرى، وانتقال بعض جماعات من الفلاحين إلى الجماعات القبلية في الصحراء الغربية، لأسباب متعددة، يأتي على رأسها الأسباب السياسية "وقد ترتب على هذا كله مزيد من الاتساع والعمق في مدى العلاقات التي تربط بين تلك الجماعات القبلية في الصحراء الغربية والوادي من ناحية أخرى"[٣].

القضاء العرفي

إذا نشب خلاف بين أحد أفراد القبيلة وأحد الفلاحين، أو بين القبيلة والسلطات الحكومية فإن المحكمة الشرعية هى التي تتولى النظر فيه والحكم بما تراه طبقاً للقوانين، ولكن الخلافات التي تحدث بين أفراد القبيلة بعضهم البعض يحتكم المتخاصمان فيها إلى محكمة شيخ القبيلة، "ولكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة

---

١ - سميرة فهمي: المرجع السابق، ص١٨٦.

٢ - محمد عبده محجوب: انثروبولوجيا المجتمعات البدوية، الإسكندرية ١٩٨١، ص٢٢١.

٣ - محمد عبده محجوب:، المرجع السابق.، ص٢٢٣.

حكم أكثر منها سلطة قاض. ومهما كانت الجريمة خطيرة، فإنه نادراً ما يصدر حكماً بالموت"[١]. وعند انعقاد الجلسة يجلس المتخاصمان أمام الشيخ ويستمع لادعائهما، ويكون ذلك في حضرة شخصيتين كبيرتين في السن، وتتمتعان باحترام أفراد القبيلة، ويطلب الشيخ منهما إبداء الرأي فيما عرض عليهما من شكوى، وقد يحتاج الأمر الإستعانه بآخرين. وعند صدور الحكم على الجاني عليه الانصياع له وتنفيذه وإلا طرد من القبيلة مع مصادرة ممتلكاته، وفيما عدا القتل يكون الحكم بدفع غرامة أو الضرب بالعصا[٢]. وفي حالة القتل يكون لأهل القتيل الحق في الانتقام له من القاتل أو من أقربائه، وفي هذه الحالة يباح الاغتيال، أما إذا قبل الطرفان الصلح، فيتم الاتفاق بين القبيلتين أو الأسرتين على دفع الدية، أو ما يسمى عادة "إعادة شراء الدم"، أما الأسرة أو القرية التي ترفض دفع الدية فيقوم أصحاب الحق بسلبها ونهبها ثلاث مرات[٣].

وقد لجأت قبيلة أولاد علي لتسوية نزاعات الدم إلى ما يسمى "بالنذالة"، وهي أن توضع قبيلة القاتل تحت حماية وحدة قبلية محايدة لتحميها بصفة مؤقتة أو "لفترة زمنية محددة، تتاح الفرصة خلالها للقيام بالمساعي لتسوية النزاع بالطرق السلمية، عن طريق قبول الدية أو التنازل عن الحق النظري في الثأر للقتيل"[٤]. وفي هذه الحال يتكون وفد من أعيان القبائل، ومن رجال اشتهروا بالتقوى والورع للتأثير على القبيلة المعتدى عليها بالقتل لقبول الدية، وعدم الأخذ بالثأر، وعلى القبيلة المعتدية قبول شروط التسوية ودفع الدية. وفي ذهاب هذا الوفد إلى أهل القتيل فيه "جيرانية لهم"[٥]. وللآباء

---

١ - دي برا إيية: المرجع السابق، ص٢٧٣.

٢ - دي برا إييه: المرجع السابق، ص٢٧٣.

٣ - اندريوسي: المرجع السابق، ص٧١.

٤ - محمد عبده محجوب: المرجع السابق، ص٢٧٥.

٥ - محمد عبده محجوب: المرجع السابق، ص ٢٢٩.

حق الموت على أبنائهم، وعلى زوجاتهم وبناتهم وإخوانهم إذا ما خرجوا عن سبيل الرشاد[١].

وإذا ما تعاهد فريقان على التعاون فيما بينهما، سواء بين العربان بعضهم البعض أو بينهم وبين أحد الحكام، فعليهم أن يأكلوا معه خبز وملح عنواناً للصداقة والوفاء[٢]. ومن الصفات الطيبة التي يتحلى بها أفراد تلك القبائل احترامهم وتوقيرهم للشخصيات الكبيرة والمحترمة، مثال ذلك أنهم إذا ما ذهبوا للقاء أحد هؤلاء، عليهم أن يترجلوا عن خيولهم على بعد مائة خطوة من مقره، ثم يتقدمون إليه سائرين على أقدامهم[٣].

ويمكننا القول بأن علاقات هؤلاء العربان بالفلاحين أو بالإدارة تميزت بالتناقض الشديد، فهى مزيج من السلب والنهب والحماية في الوقت نفسه[٤]، وبناء على ذلك نستطيع أن نقسم تلك العلاقات إلى قسمين: علاقات إيجابية، وعلاقات سلبية.

العلاقات الإيجابية

تفيدنا المصادر التاريخية بأن بعض القبائل العربية قد اشتغلت بالزراعة قبل مجيء العثمانيين إلى مصر، لا سيما القبائل التي استقرت على حافة الأراضي الزراعية، واستمر هؤلاء يحترفون مهنة الزراعة في ظل الحكم العثماني[٥]، وذلك فيما عدا القبائل الرحل بطبيعة الحال. وكان لقبائل أولاد علي شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية

---

[١] - دي برا ليه: المرجع السابق، ص٢٧٥.

[٢] - دي برا ليه: المرجع السابق، ص٢٧٧.

[٣] - اندريوسي: المرجع السابق، ص٧٠.

[٤] - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٧٤، ص١٦٧.

[٥] - جومار: العرب والعربان في مصر الوسطى، المجلد الثاني من كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، ص٣١٢.

الأخرى أن يمتلكوا الأراضي الزراعية[١]، وأن يستأجرونها لزراعتها بأنفسهم أو بالمشاركة مع غيرهم على أن يقوموا بدفع خراجها[٢]، وبشرط ألا يترتب على ذلك ضرر للأراضي الزراعية المملوكة أو المستأجرة للأهالي[٣]. كما كانت تمنح لقبائل على مساحات من الأراضي البور للقيام باستصلاحها دون تحصيل أموال عليها[٤]، وكان معظم تلك الأراضي بإقليم البحيرة. ومن المحاصيل الزراعية التي قامت قبائل أولاد علي بزراعتها الشعير والقمح وبعض الخضراوات والبطيخ[٥].

كانت خفارة الأراضي الزراعية من الأعمال الهامة التي قاموا بها في مقابل أجر معين، وكان يتم ذلك بصفة رسمية عن طريق المحكمة الشرعية، ويطلق على هؤلاء الخفراء "العرب المدركين"[٦]. والحقيقة أن أصحاب الأراضي الزراعية كانوا يخشون من إغارات تلك القبائل عليهم، وقد وجدوا أن أفضل الأساليب لاتقاء شرهم أن تستند إليهم مهمة الخفارة، كذلك منحوا خفارة الجسور السلطانية، ونواحي وحصص الالتزام، والدروب وطريق الحج[٧]. كما اسند إليهم تحصيل مال الجزية المفروضة على

١
- سجلات الإسكندرية، سجل ٤٨، سنة ١٠٥٨هـ، مادة ٢٦٣، ص١٠١ ؛ سجل ٣٨، سنة ١٠٢٩هـ، مادة ٩٤، ص٢٣ ؛ سجل ٣٨، سنة ١٠٣٧ هـ، مادة ٣٦٠، ص٩٧.

٢
- جراتيان لوبير: دراسة عن مدينة السكندرية، من كتاب وصف مصر، المجلد الثالث، ص٣٤٧.

٣
- دار الوثائق القومية: معيه تركي، دفتر ٤٢، وثيقة ٥٦، من الجناب العالى إلى مأمور نصف البحيرة في ١١ صفر ١٢٤٦هـ ؛ ودفتر ٢٥، وثيقة ٣٥٢، من الجناب العالى إلى احمد باشا مأمور نصف البحيرة.

٤
- دار الوثائق: معيه تركي، دفتر ٤٢، وثيقة ٥٧.

٥
- سجلات الإسكندرية، سجل ٥٥، سنة ١٠٩٦هـ، مادة ١٣٤، ص١٠.

٦
- سجلات الإسكندرية، سجل ٥٥، سنة ١٠٩٦هـ، مادة ١٣٤، ص١٠.

٧
- سميرة فهمي: المرجع السابق، ص ص١٢٢-١٢٣.

أهل الذمة وتوريدها لخزينة الولاية، بل كانت تحصل الجزية على الغرباء من أهل الذمة إذا أقاموا في بلدة معينة ستة شهور فأكثر[١].

وفي مجال الإدارة قام بعض زعماء قبائل أولاد علي بالتزامات المقاطعات، وهم يأتون في المرتبة الثانية بعد أمراء المماليك في هذا الميدان، إذ بلغ عددهم في إقليم البحيرة ١٢٧ ملتزماً[٢]. وكانوا يتحملون الأموال المتأخرة على الفلاحين والهاربين، كذلك تولى هؤلاء مشيخة النواحي، وإمارة الحج، ونظارة الأوقاف[٣].

وفي مجال الحرف والصناعات اليدوية، تشير الوثائق إلى ممارستهم لها، مثل صناعة الكتان والأكلمة وقطع الملح والجلود والسقاية[٤]. وكان أصحاب الحرف "يتدرجون في مراتب المهن الطائفية طبقاً لنظام الطوائف، من صبي في الصنعة، إلى أسطى ثم إلى معلم"[٥]. وقد ساعدت ممارسة العربان لتلك الحرف على اختلاطهم بالحرفيين الآخرين، ومن ثم على اندماجهم في المجتمع.

أما بالنسبة للتجارة، فكانوا يبيعون الماشية التي يعتنون بتربيتها وكذلك أصوافها، كما كانوا يربون الجمال التي كانت تستخدم في نقل البضائع، ولا سيما البن من ميناء السويس إلى القاهرة[٦]. وكذلك كانوا يربون الخيول العربية الأصيلة[٧]، وتقاس ثروة القبيلة بما تملكه من تلك الحيوانات، ونظراً لامتلاكهم الأعداد الكبيرة من

---

١ - سجلات الإسكندرية، سجل ٧، سنة ٩٧٣هـ، مادة ٦٣٠، ص٢٥٤.

٢ - عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص١١٤.

٣ - سجلات الإسكندرية، سجل ٣٥، مادة ٨٤٨، ص٥٣٢.

٤ - سجلات الإسكندرية، سجل ٣٥، ص٤٣٩ ؛ مادة ٥٤٥، ص١٨٥ ؛ سجل ٤٨، مادة ٣٥٥، ص ٣٢.

٥ - سميرة فهمي: المرجع السابق، ص١٥٤.

٦ - سجلات الإسكندرية، سجل ١٣، مادة ٢٨٢، ص٩٤ ؛ وسجل ٢٥، مادة ١٤٧٣، ص٥٠٧.

٧ - سجلات الإسكندرية، سجل ٥، مادة ٣٩٦، ص١٤٧.

الإبل، فقد أصبحوا يحتكرون نقل التجارة من مكان إلى آخر على هيئة قوافل، كما تاجروا في الحبوب، مثل الشعير والقمح والأرز[١] والعبيد[٢].

العلاقات السلبية

إذا انتقلنا إلى الدور السلبي لهذه القبائل، نجد أن كثرة تمردها وعبثها بالأمن، وإغارات السلب والنهب على القرى، ترجع إلى حد كبير إلى نظرتهم إلى المماليك والعثمانيين، فقد اعتبروا أنفسهم أحق بحكم مصر وامتلاكها من المماليك والعثمانيين بحكم الفتح العربي لها في القرن ٧م[٣]، بل ظلوا ينظرون إلى المماليك على أنهم أرقاء لا يجب طاعتهم[٤]. وعندما نزل العثمانيون بمصر عام ١٥١٧م، انقسمت القبائل العربية إلى فريقين: الفريق الأول وقف إلى جانب السلطان العثماني سليم الأول وناصروه، واتخذ الفريق الثاني جانب المماليك، وبانتصار العثمانيين قضي على هذا الفريق المعارض[٥].

ومن المواقف التي أضرت بمصر، تلك الأحداث السياسية التي توالت عليها بسبب الانقسامات الداخلية بين البيوتات المملوكية خلال القرنين ١٧ و١٨م، والتي استغلتها القبائل لتعميق الخلاف، ولتصعيد الصراع بين الفقارية (نصف سعد)

---

١ – سجلات الإسكندرية، سجل ١٢، مادة ٦٤٠، ص٢٢١ ؛ سجل ١، مادة ٧٧٤، ص١٦٩.

٢ – سجلات رشيد، سجل ٦، ص١١٠.

٣ – جومار: المرجع السابق، ج٢، ص٣٦٢ ؛ وأندريوسي: المرجع السابق، ص١٠١.

٤ – عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص٢٠٩.

٥ – ابن زنبل الرمال: تاريخ غزوة السلطان سليم خان بن بايزيد مع قنصوه الغوري سلطان مصر، مخطوط رقم ٢٧٩٩ بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ورقة ٢١١، ٢١٢.

والقاسمية (نصف حرام). وقد أدرك علي بك الكبير مدى خطورتهم (أي القبائل) على حركته الاستقلالية، ومن ثم قضى على معارضيه اتقاء فتنتهم[١].

وعندما استفحل نفوذ مراد بك وإبراهيم بك الكبير وكثرت شرورهما، أرسلت الدولة العثمانية حملة القبطان حسن باشا في عام ١٧٨٦م للقضاء عليهما، فوقفت معظم القبائل ضدها.

ومن أهم العوامل التي أزعجت السلطات العثمانية الحاكمة، تلك الهجمات التي لا تنقطع والتي تقوم بها قبائل أولاد علي على القرى في الوادي كل عام، والتي كانت تأتي من حدود مصر الغربية، هدفها السلب والنهب وفرض الإتاوات، "بالإضافة إلى ما يحصلون عليه من مكاسب ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة، كل هذا جعل منهم أعداء أشداء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية، حيث يقتربون دائماً في موسم الحصاد السنوي كي يقوموا بالانتهاب والسلب، ولكي يبثوا الرعب والأحزان في هذا الوقت من العام"[٢]. وقد وجد الفلاح المصري نفسه بين شطري الرحى، بين ما يكابده من عمال الحكومة الذين يثقلون كاهله ويعتصرونه، وبين العربان الذين يسفكون دمه، وينهبون خيراته[٣]. بل إن الخوف من تلك القبائل قد شمل رهبان الأديرة المنبثة في أرجاء مصر، فكان لزاماً عليهم أن يستضيفوهم ضيافة إجبارية خلال تجوالهم في صحاري مصر، ومرورهم بتلك الأديرة، حيث يتوقفون عندها لتناول الطعام ولأخذ قسط من الراحة. وكان على الرهبان أن يقدموا لهم الخبز والخضار والشعير من أعلى جدار الدير دون أن يفتحوا لهم الأبواب وكانوا مضطرين للقيام بهذا العمل خشية تعرضهم للقتل على أيدي هؤلاء العربان إذا ما قابلوهم

---

[١] - سميرة فهمي: المرجع السابق. ص ص٨٦، ١٠٠.

[٢] - جراتيان لوبير: جولة في إقليم المريوطية، من كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، ج٢، ص٣٩، ٤٠.

[٣] - اندريوسي: المرجع السابق، ص٧٦.

خارج الدير[١]. كذلك عانت السلطات الحاكمة من إغاراتهم على قوات السلطان العثماني نفسه، هذا فضلاً عن مقاتلتهم بعضهم البعض[٢]، وإغارتهم على الطرق التجارية[٣].

وكان يشرف على شؤون القبائل مجلس يسمى بالديوان الكبير أو الديوان العالي، وقد أنشئ عقب صدور قانون نامه مصر سنة ١٥٢٥م، وكان يتكون من الدفتردار وقاضي القضاة والمفتين على المذاهب الأربعة وكبار رجال الدين والأمراء المماليك وأغوات فرق الحامية العثمانية، ويجتمع هذا الديوان أربع مرات كل أسبوع، ومن مهامه النظر فيما يرتكبه مشايخ العربان من التعدي على الفلاحين عند مطالبتهم بخراج زراعاتهم، وكذلك تعديات القبائل بعضها على بعض، والمنازعات التي تنشأ بين العربان والملتزمين، واعتداءات العربان على مختلف طوائف المجتمع[٤].

ونتيجة لهجمات العربان على القرى، كانت السلطات الحاكمة ترسل من حين إلى آخر بعض الفرق العسكرية لمهاجمتهم في مضاربهم، ولكي يتقي هؤلاء العربان ضربات تلك الفرق، ولكي لا يؤخذوا على غرة كانوا يرسلون إلى بولاق بعض الجواسيس الذين يتخفون في هيئة فلاحين، لالتقاط الأخبار ومعرفة نوع وحجم تلك الفرق وتوقيت زحفها، حتى يتخذون من التدابير اللازمة ما يجنبهم الخسارة. وفي هذه الحال كانوا يرفعون خيامهم، ويرسلون إلى أعماق الصحراء النساء والأطفال وما خف حمله وغلى ثمنه، ويتوغلون في قلب الصحراء لإنهاك خصمهم إذا ما حاول تتبعهم وحينئذ تتجمع القبائل المتحالفة لتقرر ما إذا كانوا سيهاجمون تلك الفرق، أو

---

١ – اندريوسي: المرجع السابق، ص ص٦٦، ٦٧.

٢ – سجلات الإسكندرية، سجل ٤٩، سنة ١٠٥٧هـ، مادة ٢٣٧، ص٧٩ ؛ سجل ٤٨، مادة ٤٧٨، ص٢٠٠.

٣ – نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٣، ص ص٢١-٢٥.

٤ – سميرة فهمي: المرجع السابق، ص ص١٢٨، ١٣٢.

يكتفون بموقف الدفاع[١]. وتستطيع تلك القبائل أن تضع تحت السلاح ما بين ٣٠ و٤٠ ألف فارس إذا لزم الأمر[٢].

ونظراً لكثرة مهاجمة تلك القبائل للأسواق التي تقام في مدن الدلتا وقراها، أن كسدت تلك الأسواق وامتنع الفلاحون عن الذهاب إليها لخشيتهم على أنفسهم وأموالهم[٣].

وإذا ما أذعنت القبائل إلى عقد اتفاق مع الحكام لضعفها أو لتعبها ولإنهاك قوتها، فإنهم لن يحرصوا على احترامه إذا ما واتتهم الفرصة طالما كان في أيديهم سلاح[٤]. ومن عادتهم أنهم لا يهاجمون ليلاً، ويعتمدون على مفاجأة العدو والانقضاض عليه بسرعة مذهلة ونصب الكمائن، والعمل على إنهاك قواه بمناوشات مستمرة إذا ما شعروا بتفوقه من ناحية العدد والعدة، ولا يهاجمون إلا وهم على صهوات جيادهم العربية السريعة وفي أيديهم الرماح وبعض الأسلحة الأخرى.

وكان أمراء المماليك -نظراً للعداء بينهم وبين العثمانيين- يشجعون هذه القبائل على مهاجمة القرى حيث يعيثون فيها فسادا "نكاية بالولاة العثمانيين، وإظهارها بمظهر الضعف وعجزهم عن السيطرة على مقاليد الأمور في البلاد"[٥].

من هذا العرض الموجز، نرى أن تلك القبائل قد شكلت طبقة لها أهميتها في المجتمع الريفي، وأثروا إلى حد ما في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية، وكانت لهم سلبياتهم وإيجابياتهم.

---

١ - اندريوسي: المرجع السابق، ص٧٥.

٢ - دي برا ايه: المرجع السابق، ص٢٦٦.

٣ - جيرار: الزراعة والصناعة والتجارة، من كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، ج٤، ص٢٥٦.

٤ - دي برا ايه: المرجع السابق، ص٢٦٥.

٥ - عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص١٦٣.

العثمانيون في دمياط

الدورين العسكري والمدني

د. عبد الحميد حامد سليمان

جامعة المنصورة

يظل التاريخ الاجتماعي لمصر العثمانية ومدنها الرئيسية على وجه الخصوص في حاجة إلى المزيد من الدراسات العلمية المعمقة وذلك باعتبار تلك المدن كانت هدفاً للعديد من التغيرات الاجتماعية التي تحركها عوامل مختلفة ظاهرة وباطنه وتحكمها معطيات متباينة تعكس المناخ العام في مصر في العصر العثماني سياسياً وإدارياً واقتصادياً.

والصورة على ذلك كانت جلية في المدن التي شهدت عناصر وافدة أسهمت وانخرطت في مختلف مستويات النشاط الإنساني ولم تحتفظ لنفسها باستقلالية وانزواء دفعها إليه الانكفاء العرقي أو التمايز الطبقي وإنما انصهرت وامتزجت مع العناصر الأصيلة فيه والتي تشكل بنيته الاجتماعية وذلك من خلال علائق التزاوج والتعامل وشتى عناصر الانصهار والاندماج.

والأمر في ريف مصر وصحراواتها كان على غير ذلك لما يحكم تلك الربوع ويهمن عليها من عوامل الارتباط العرقي من خلال القبيلة أو الأسرة وبساطة التركيبة الاجتماعية والاقتصادية المتمثلة في القرى والنجوع ومحدوديتها وتقليدية النشاط الإنساني ورتابة الشكل الاجتماعي وضآلة القابلية للتغيير والتأثر والتأثير.

وفي هذا البحث سوف نحاول رصد عنصر كان له حظ أكبر من التواجد بحكم البناء السياسي والإداري العام في مصر في العصر العثماني وهم الأروام أو من نصطلح على نعتهم بالعثمانيين في مدينة دمياط وذلك بتتبع تطور وضعيتهم في المجتمع الدمياطي

وموقفه منهم وموقعهم منه ومن بنيته الاجتماعية والاقتصادية والوظيفية، وذلك من خلال قراءة تحليلية لبعض وثائق سجلات محكمة دمياط الشرعية.

أولاً: الدور العسكري والأمني

حظيت دمياط بموقع جغرافي بالغ الأهمية بالنسبة لمصر وذلك باعتبار وجودها على نهاية مصب فرع النيل الذي يشق مصر من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها والذي ترتكز حوله العناصر البشرية الممثلة لمعظم الكتلة البشرية والاقتصادية في مصر وقد جلب هذا الموقع الهام لدمياط الكثير من المتاعب عبر العصر الإسلامي وتمثل ذلك في تعرضها للأخطار العسكرية التي بلغت حد تعرضها للاحتلال المباشر غير مرة[١].

وعلى ذلك وانطلاقاً من الإدراك المبكر للسلطة العثمانية المركزية في استنبول لأهمية ثغر دمياط فإنها رأت أن تجعل الثغر تحت إشراف مباشر منها وخصوصاً في الجانب العسكري وذلك من خلال تعيين قبودانات للإشراف على الثغر عسكرياً وتجهزه لأي طارئ وقيادة سفن الأسطول العثماني الرابضة في مياهه ولذلك كان القبودانات ومن معهم من رجال الحامية العسكرية المقيمين في قلاع الثغر يأتون من

---

١ – تعرضت دمياط في عصر الولاة وعقب الفتح الإسلامي لها لإغارات متواصلة من البيزنطيين عبر البحر المتوسط واقتضى ذلك من أهلها أن يكونوا في استنفار شبه دائم سيما في الأشهر التي تسمح ظروف الطقس للسفن بالإبحار إلى دمياط بأمان ومن تلك الإغارات التي تعرضت لها دمياط ما شهدته في سنوات ٩٠هـ/٧٠١م و١٢١هـ/٨٥٣م و٢٣٨هـ/٨٥٣م، وقد بدأ إنشاء قلاع عسكرية ثابتة بها ومجهزة للتصدي لمحاولات غزوها في خلافة المتوكل العباسي، ثم غزا البيزنطيون دمياط مرة أخرى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م وتعرضت لخطر الهجوم الفاطمي البحري قبيل انتقال الفاطميين من المغرب إلى مصر، ثم أغار البيزنطيون على دمياط زمن الفائز الفاطمي سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، ثم سنة ٥٦٥هـ/١١٧١م في أواخر أيام دولة الفاطميين بمصر وتصدى لهم فيها صلاح الدين الأيوبي وابن أخيه تقي الدين عمر، وبدأت بعدها سلسلة من الإنشاءات والتحصينات العسكرية المتميزة في دمياط وتقوية برجي السلسلة وإنشاء الأسوار والأبراج، إلى أن غزا الصليبيون دمياط سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ونجحوا في احتلالها زمن الكامل الأيوبي، ثم بارحوها إلى أن عاود لويس التاسع غزوها واحتلالها سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٨م زمن الصالح نجم الدين أيوب ونجح المماليك في طرده وإقصاء الفرنسيين عنها، و لم تسلم زمن المماليك البحرية والجراكسة من إغارات القبارصة وغيرهم وقد استدعى ذلك على طول المدة التحصن الدائم وتقوية الأبراج والحصون على شواطئها. لمزيد من التفاصيل حول ذلك راجع: عبد الحميد حامد سليمان: دمياط في العصر الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة ، سنة ١٩٨٧م.

استنبول مباشرة مع تخويلهم مسئولية القيادة العسكرية وتقوية القلاع وإمداد السفن العسكرية باحتياجاتها لتقوم بحماية الشواطئ من أي محاولة للغزو[١].

وقد هدفت الإدارة العثمانية من ذلك عدم وقوع ثغر دمياط وتلك النواحي الإستراتيجية لأي قوى تفكر في التمرد أو الانفصال، ضماناً للتقدم السريع عبر دمياط لإخماد أي تمرد أو محاولة للانفصال أو ثورة حال نشوبها، وذلك من خلال ضمان السيطرة المباشرة على المدينة بما يعنيه ذلك من انتفاء الكثير من المعوقات التي قد تحول بين الإدارة المركزية وبين التصدي للأحداث المفاجئة في ولاية مصر[٢].

ولكن ما إن استقر الأمر للعثمانيين في مصر واطمأنت السلطة المركزية في استنبول إلى ضمان تبعية مصر لها، حتى عمدت إلى تخفيض أعداد الجنود المقيمين بمصر، وذلك لحاجتها الماسة إليهم إلى حيث بؤرة الصراع ونقاطه الساخنة، وتركز النشاط الحربي العثماني في وسط وشرق أوروبا وجنوبها الشرقي، وشمال أسيا الصغرى وبلاد فارس، وذلك في ظل حروب الدولة العثمانية شبه الدائمة مع روسيا والمجر وألمانيا والصرب والبلغار والصفويين وارتكزت سياسة الدولة العثمانية على إبقاء حاميات عسكرية في قلاع مصر المختلفة وذلك في إطار مسئوليات محددة هى ضمان الاستقرار الداخلي في مصر والولاء والتبعية للدولة العثمانية[٣]، وقد شهد القرن ١٨م تراجع دور القبودان كرأس للجهاز العسكري والإداري والأمني إلى أن حل مكانه تدريجياً سردار مستحفظان وتزامن هذا مع تراخي القبضة العثمانية على مصر الناشئ

---

١ - SHAW, The financial and administrative - organization and development of ottoman Egypt , 1517 - 1798 - Princeton 1962, pp. 134 - 136 .

٢ - عبد الحميد حامد سليمان: الموانئ المصرية في العصر العثماني، دورها السياسي ونظمها المالية والإدارية والاقتصادية، القاهرة ١٩٩٥، ص٦٦-٦٧.

٣ P. M . Holt, Egypt and fertile crescent - Apolitical history London 1966, pp. 76-77; يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، استنبول ١٩٨٨م، ص٢٦٢ -٢٦٣، ٢٦٦، ٢٨٨.

عن التراجع العثماني على أصعدة مختلفة[1] وهكذا يمكن القول أن الرؤية السياسية العثمانية وطبيعة الموقع هى التي جعلت من التواجد العسكري في دمياط سابق لغيره من مظاهر التداخل وعناصر التواجد.

وقد شجع العثمانيين على انتهاج تلك السياسة واطمئنانهم لها، أن استراتيجيتهم العسكرية قد ارتكزت على ضرورة السيطرة البحرية على البحر المتوسط وحققت في ذلك نجاحات كبيرة بعد التحالفات التي أجرتها مع القادة البحريين المشهورين في الجزائر وتونس عروج رئيس وأخوته خضر رئيس وخير الدين برباروسا، وأصبح للبحرية الإسلامية اليد العليا في مياه البحر المتوسط وأسهم ذلك في تحقيق نجاحات عسكرية غير مسبوقة باحتلال رودس ٩٢٣هـ/١٥٢٢م وقبرص ٩٦٦هـ/١٥٧١م

وقد أسفر عن ذلك تأمين ثغور مصر من الأخطار التي كانت تتهددها من قبل هاتين الجزيرتين واستمرار ذلك حتى أواخر القرن ١٨م[2]، حيث بدأت مياه البحر المتوسط في الربع الأخير من القرن ١٨م تشهد سفناً لدول مختلفة كروسيا ثم إنجلترا وفرنسا، وتزامن ذلك مع محاولات انفصالية بمصر عن الدولة العثمانية كانت أخطرها محاولة علي بك الكبير الذي أعاد تعمير قلاع دمياط وشرع في الاتصال بروسيا التي حنقت لفشل مشروعه فأغار أسطولها على السفن الراسية في ثغر دمياط عدة مرات[3]، ولكن كانت هناك حوادث فردية لسفن اشتبكت مع تلك القلاع ومع السفن العثمانية التي تجوب مياه ثغر دمياط، وقد سجلتها وثائق محكمة دمياط الشرعية ومنها ما حدث ١٠٩١هـ/١٦٨٠م من محاولة سفينة كبيرة الحجم والتسليح الهجوم عبر

١
- دار الوثائق: سجلات محكمة دمياط، سجل ٢٤٣، سنة ١١٦٨، ق١٢٩ ؛ سجل ٢٧٩، سنة ١١٩٥، ق٣١٠.

٢ - عبد الحميد سليمان: المواني المصرية في العصر العثماني، ص٥٤، ٥٧.

٣
- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م:عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت،ج١، ص٥٦، ٥٣٢، ٥٩٢.

بوغاز دمياط وتصدت الحامية في القلاع لها، مما أدى إلى غرقها واستخرج من حمولة أسلحتها ١١ مدفعاً أربعة منهم كبار، و٧ أقل حجماً، و١٠ من مدافع الهجوم، وقد حررت قائمة لكل ما ضبط منها، وفي العام التالي نجحت السفن الراسية في الثغر في التصدي لسفينة حربية "غليون للنصارى" قبالة أبي ماضي غرب دمياط وأسر من فيه من المقاتلة وتحرير عدد من المسلمين الأسرى الذين كانوا يعملون فيه كجدافين، وتكررت محاولة شبيهة في العام التالي سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨١م، وكذلك عملية إطلاق سراح أسارى من المسلمين بعد تحطيم مركب قرصان مالطي الشهير اسمه كما ذكرت الوثائق "باذلوا النصراني المالطي القرصان الشهير"، وعددهم ١٩ رجلاً و٢٣ امرأة، وأنقذتهم مركب ترفع العلم الفرنسي، وتم تسليمهم للأمير علي جوربجي خفاجي زاده سردار طايفة الينكجرية بثغر دمياط آنذاك، وكانت الاتفاقيات المعقودة بين الدولة العثمانية وبين فرنسا تقضي بذلك على نحو ما أشارت إليه الوثائق التي ضمنت في وثيقة أخرى قائمة بأسمائهم[١].

وعلى شاكلة ذلك لم تكن المرات التي تصدت فيها الحاميات العثمانية في مصر لتخرج عن الإطار الفردي دون أن تسجل الوثائق والمصادر التاريخية محاولة غزو عامة من أسطول كبير باستثناء التحركات البحرية التي شهدتها مياه البحر المتوسط قبالة ثغر دمياط في أواخر القرن ١٨م في إطار الصراع الأنجلو فرنسي.

وقد ألقت حالة الاسترخاء العسكري التي تعرضت لها دمياط خلال معظم سنوات العصر العثماني بظلالها على الدور العسكري لقلاع دمياط والعاملين بها من الجنود والدزادرة[٢] والقبودانات، وهو الأمر الذي فتح الطريق إضافة إلى عوامل أخرى

---

١ - سجل ١٤٠، سنة ١٠٩٢هـ، ق٩١ ؛ سجل ١٤١، سنة ١٠٩٢هـ، ق١٠٨ ؛ سجل ٢٤٣، سنة ١١٦٨هـ، ق١٢٩ ؛ سجل ٢٤٦، سنة ١١٦٩هـ، ق ٢٨٣

٢ - الدزدار مفرد الدزادرة، وهى تعني قائد القلعة أو الحصن، وكان الدزدار في كل قلعة مسئولاً إلى جانب قيادة أفرادها عن صيانتها وتسليحها وكل ما يهمها من الناحية الإدارية أو العسكرية.
Red House, Turkish and English Lexicon - Instantbul 1978 - New Edition, p 900.

سوف نناقشها في حينها إلى ممارسة ألوان النشاط الإنساني المختلفة جعلت الدور الإداري والاقتصادي يستحوذ على القدر الأكبر من اهتمامهم بما كان يعنيه ذلك من اقتراب ثم تداخل مع المجتمع المدني الدمياطي ارتقي إلى الاندماج والانصهار.

وقد عرف ثغر دمياط في العصر العثماني ثلاث قلاع كانت أولاهم هى القلعة الشرقية الواقعة على الضفة الشرقية من فرع دمياط غير بعيد من بوغاز دمياط، وقد أطلقت عليها الوثائق اسم "برج الظاهر جقمق"، وإن عادت وغلبت عليها التسمية القائلة "القلعة السلطانية الشرقية الكائنة بفوهة الثغر" وهى بذلك تكون قد اكتسبت أسمها من موقعها[١]، وإلى الجنوب قليلاً على الضفة المقابلة الغربية تقع القلعة الأخرى[٢]، وقد أنشئت هذه القلعة ١٠١٨هـ/١٦٠٩م واكتسبت اسمها من أول قائد لها "دزدار" وهو عبد الصمد بن رزيق، حيث أطلقت عليها وثائق محكمة دمياط الشرعية أسم "القلعة المستجدة بالبر الغربي بفوهة الثغر"، ثم عادت وأطلقت عليها بعد ذلك التسمية التي لازمتها وهى "قلعة عبد الصمد"[٣]، أما القلعة الثالثة فهى قلعة "الطينة"، ولم تكن تلك النواحي تابعة لدمياط إدارياً باستثناء القلعة التي كان رجالها يتقاضون رواتبهم من ديوان مقاطعة التزام دمياط، ولكنها من حيث الموقع تقع إلى الشرق من دمياط عند البوغاز الموصل بين بحيرة المنزلة والبحر المتوسط[٤]، وكانت الجنود المرابطة في تلك القلاع تتكون من عدد من البلوكات التابعة للأوجاقات العثمانية وهى أوجاقات "الجراكسة-مستحفظان-التفكجية"، وعلى سبيل المثال لا الحصر كانت

١ - سجل١٦، سنوات ٩٨٣هـ، ق٨٤٢ ؛ سجل٥٣، سنة ١٠٢٣هـ، ق٩٦-٣٧٣.

٢ - نيقولا يوسف: تاريخ دمياط منذ أقدم العصور، طبعة ١٩٥٩م، ص٢٠٨-٢٠٩.

٣ - سجل٥٢، سنة ١٠٢٢هـ، ق٩٧ ؛ سجل٩، سنة ١٠٥٤هـ، ق٥٢ ؛ سجل١٤٢، سنة ١٠٩٥هـ، ق٣، ٤، ١١، ١٤٦، ٢٣٦.

٤ - دار الوثائق: سجل١٨، سنة ٩٨٣، ق٢٨٤ ؛ سجل١٤٢، سنة ١٠٩٥هـ، ق٣، ٤.

البلوكات[١] التي عهد لها بالخدمة في القلعة الشرقية ٩٨٣هـ/١٥٧٥م هى بلوك ٨ من التفكجية وبلوك ٤١ من الجراكسة وبلوك ٨٦ من الانكشارية، وقد تراوح إعداد الجنود المقيمين بالقلعة الشرقية بين ٩١ رجلاً بين جندي وضابط وبين ١٢٦ رجلاً.

أما رجال قلعة عبد الصمد التي كانت أقل عدداً وتسليحاً فقد تفاوتت بين ٨٦ رجلاً و١٠٤ رجال، وقلعة الطينة ١٩٢ رجلاً، ومعظمهم جاء من آسيا الصغرى[٢]، غير أن هذه الظاهرة التي انتشرت في القرنين ١٧ و١٨م -والتي من الممكن أن نطلق عليها تبادل المواقع- والتي تمثلت في اشتغال أفراد من العسكريين بالأنشطة الاقتصادية إلى جانب عسكريتهم، وعلى العكس من ذلك دخول أفراد من الأهالي في صفوف العسكريين لأجل الانتفاع بالرواتب العينية والنقدية، تلك الظاهرة لم تكن دمياط بساكنيها من أهالي وعسكريين بمنأى عنها، ومن ذلك ما أشارت إليه الوثائق من دخول أفراد من الأهالي في صفوف العسكريين وعملهم كجنود في القلاع بدمياط، وهو الأمر الذي حظي بقبول الأجهزة الإدارية في ثغر دمياط، و لم تر فيه شيئاً غريباً ودليل ذلك ما نقلته لنا إحدى الوثائق أن أمير اللواء السلطاني ونقيب الأشراف وبلك طائفة الينكجرية وغيرهم ألزموا أحد الأهالي واسمه ابن أبي عرام البساطي ممن دخلوا في سلك الأوجاقات والعسكرية وعمل بالقلعة الغربية "ألا يكون كيالاً ولا سمساراً ولا يدخل نفسه في شيء من ذلك بعد اليوم وأن يلازم نوبته بالقلعة أسوة بأمثاله"[٣].

---

١ - البلوك هو مجموعة من العسكريين يقودهم ضابط برتبة جاويش، أما الأوجاق فهى تطلق على الفرق العسكرية العثمانية وكانت تطلق في البداية على الانكشارية، ثم أصبحت تطلق على باقي الفرق العسكرية وهى "أوجاق متفرقة - أوجاق جاوشان، أوجاق جمليان، أوجاق تفكجيان، أوجاق جراكسة، أوجاق مستحفظان، أوجاق غربان".

Red House, OP..Cit, pp. 238 –785 ; SHAW : OP . Cit, pp. : 189, 210 , 211 ;

عراقي يوسف محمد: الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، القاهرة سنة ١٩٩٦م، ج١، ص١٠٩.

٢ - سجل١٦، سنة ٩٨٣هـ، ق٨٤٢.

٣ - سجل٥٣، سنة ١٠٢٣هـ، ق٣٧٣.

وعلى العكس رصدت الوثائق اشتراك عسكريين في حيازة أراضي زراعية والإشراف عليها والتعامل مع آخرين بالبيع والشراء والتأجير والانتفاع بها وغير ذلك من ألوان النشاط مما سوف نعرض له بعد ذلك[١]. وقد نقلت لنا العديد من المواد الوثائقية المختلفة المبالغ التي كانت تدفع من ديوان مقاطعة التزام ثغر دمياط كرواتب لهؤلاء الجنود يتسلمها دزادرة القلاع كل ثلاثة أشهر، وفي بعض الأحيان لفترات أقل ثم تخصم من بند "موقوف إخراجا" الذي يمثل مدفوعات ديوان ثغر دمياط الذي يدير الالتزام بمقاطعة الثغر وهو خصماً من جملة المستحق على ما لزم تلك المقاطعة من أموال للخزينة السلطانية، وتتم تلك العملية إثر صدور مرسوم بذلك يحدد من سيتسلم تلك الرواتب "الجامكيات"، وهو غالباً إما الدزدار أو أحد الحولات الجوربجية، وعلى من يقوم بذلك أن يسلم الرواتب لأصحابها بنفسه[٢]، وذلك في إطار يسير بهدف التيسير الإداري وضمان وصول الرواتب للجنود بسهولة لتفادي ما قد ينتج عن غير ذلك.

وهذا بيان للمدفوعات في سنوات متفرقات مع ضرورة الإشارة إلى أن سجلات محكمة دمياط الشرعية تحتوي على المدفوعات السنوية للقلاع سواء كرواتب أو كمصروفات أخرى للترميم وغير ذلك، وهى خارج تلك المبالغ:

بيان للمدفوعات في سنوات متفرقة:

القلعة	المبلغ	المدة	السنة	رقم السجل	رقم الوثيقة
الشرقية	١٣٠٩٨	٣ أشهر	٩٧٢	٥	٢٦٢
،،،	١٤٩١٢	٣ أشهر	٩٨٥	٢٠	٦٤
،،،،	١٣٥٥٦	٣ أشهر	١٠٤٩	٨٥	٧٤
،،،،	٨٣٤٠	٤٧ يوم	١٠٩٢	١٤٠	٩٦

١ - سجل٨٥، سنة ١٠٤٩هـ، ق١٣ ؛ سجل١١٦، سنة ١٠٧٣هـ، ق ١٢٣ ؛ سجل١٤٢، سنة ١٠٩٥هـ، ق٢٧٥.

٢ - سجل١٩٥، سنة ١١٣٣هـ، ق٣٦٠.

،،،،	٢٤٥٢٥	٣ أشهر	١٠٩٢	١٤٠	١٥٥
،، ،،	١٦١٧٤	٣ أشهر	١٠٩٢	١٤٠	٢١٧
،، ،،	١٥٩٣٢	٣ أشهر	١٠٩٥	١٤٢	٩-١٠
،، ،،	١٥١٧	١٤ يوم	١٠٩٥	١٤٢	٣٦-٣٧
،، ،،	١٦١٨٩	٣ أشهر	١١٠٠	١٤٧	٢٢
،،،،	١٦١٧٢	٣ أشهر	١١١١	١٦١	٧٧
،، ،،	١٦١٧٣	٣ أشهر	١١١١	١٦١	١٤٣
،، ،،	١٦١٨٢	٣ أشهر	١١١١	١٦١	٢٣٣
،، ،،	١٥٩٣٠	٣ أشهر	١١١٢	١٦١	٢١٩
عبد الصمد	٧٧٥٠	٣ أشهر	١٠٤٩	٨٥	٦٠
،، ،،	١٧٢٩٧	٣ أشهر	١٠٩٢	١٤٠	٤٥
،، ،،	١٧٢٣٤	٣ أشهر	١٠٩٢	١٤٠	٢٣٦
،، ،،	١٦٨٣٢	٣ أشهر	١٠٩٢	١٤١	٩٠
،، ،،	٢٨٠٢٨	٧٦ يوم	١٠٩٢	١٤١	١٨٠
،،،،	١٥٩٠٧	٣ أشهر	١٠٩٥	١٤٢	٦٤٥
،،،،	١٦١٣٧	٣ أشهر	١٠٩٥	١٤٢	١٤٨
الطينة	٤٨٠١٣	٣ أشهر	١٠٩٢	١٤٠	١٤٤
،، ،،	٣٠١٨٣	شهرين	١٠٩٢	١٤١	٩١
،، ،،	٣٣١٠	٣ أشهر	١٠٩٤	١٤٢	٣-٤
،، ،،	٣٨١٤٦	٣ أشهر و١٤ يوماً	١٠٩٤	١٤٢	١٢٠
،،،،	٣٣٠٤٧	٣ أشهر	١٠٩٤	١٤٢	١٤٥-١٤٦

وقد أجملت دفاتر أصول مال أسكلها ومقاطعات -إحدى أهم دفاتر الروزنامة- إجمالي المطلوب لكل قلعة بصفة سنوية تحت بند (موقوف اخراجات- مواجبات مردان قلعة دمياط ومواجبات مردان برج عبد الصمد- ومواجبات مردان

قلعة طينه)، كما تضمنت تلك الدفاتر الموقوف كاخراجات لقلعة البرلس وأثرنا عدم التعرض لها للبعد الجغرافي[١].

وبقراءة بسيطة للجدول السابق يتضح ما يلي:

١ - مع تساوي المدة بالنسبة لكل قلعة إلا أن المبالغ متفاوتة و لم توضح السجلات أسباب ذلك، وربما كان نقص العدد بالنسبة للرجال أو الزيادة، غير أن وثيقة عثرنا عليها تتضمن قائمة للمتأخرات المادية على ديوان مقاطعة التزام ثغر دمياط تشير إلى أن التعثر في سداد الأموال الموقوفة كاخراجات من الملتزمين بثغر دمياط يمثل أحد الأسباب وراء التفاوت في المبالغ مع التساوي في المدد واختلاف المدد أحياناً وعدم انتظامها ونص الوثيقة هو:

"صورة قائمة مشمولة بإمضاء مولانا أفندي قايمة مباركة إن شاء الله تعالى تتضمن علم ما تبقى من الأموال السلطانية لعساكر الأبراج برج السلطنة ببوغاز دمياط وبرج عبد الصمد الجديد وبرج الطينة وأرز السلطنة الشريفة وأرز مولانا صاحب السعادة بمصر وثمن سحيل السلطنة وغيره جهة المعلم كرشون اليهودي الملتزم بمقاطعة دمياط سابقاً في مدة التزامه ١٠٥٥هـ و لم يدفع ذلك وتأخر عليه ما يبين فيه بموجب دفاتر مباشرين ديوان دمياط تحريراً في أوائل شهر ذي الحجة سنة ١٠٥٥هـ.

برج السلطنة ببوغاز دمياط	برج عبد الصمد أغا الجديد	برج الطينة
فضة	فضة	فضة
٣٠٨٣	١٣٥٠٣	٣١٣٣٨

بيان عن المواحب السابقة	بيان عن المواحب السابقة	بيان عن المواحب السابقة	مواحب رحب وشعبان ورمضان
فضة	فضة	فضة	فضة

---

[١] – دار الوثائق: سجلات دمياط سبق الإشارة إليها في الجدول ؛ سجلات أصول مال اسكلها ومقاطعات تابع قلم شهر، تبدأ بسجل رقم٠٤١٤ سنة ١٠٨٨هـ عن٥٣ ؛ نوعي١ تركي ١، وتنتهي بسجل سنة ١٢٠٨هـ، رقم٤٢٧٣ عمومي عن ٥٤ نوعي ١٣٥ تركي ١.

٣٠٨٣	٤٠٤٩	١٣٤٣٣	١٨٥٩٥

إجمالي مبلغ الأبراج الثلاثة فضة ٤٣٩٣٣

ويضاف

ثمن أرز صاحب السعادة	ثمن سحيل السلطنة	ثمن بنفسج ومسك	مصرف على أرز السلطنة عوايد وكيل الخرج وثمن غزاوى وغيره
فضة	فضة	فضة	فضة
٣٥٨٣٣	٣١١٧٥		٥٠٠

ويضاف

أرز السلطنة عن السنة المذكورة	مواجب عساكر الأبراج عن شهر شوال وذي القعدة
١٠٠٠ إردب مصر	

جملة المضاف ٩٩٠٠٨، وجملة جميعه ١٩١٩٤٠ فضة والخير يكون

السبع يوسف السكندري كاتب ديوان الثغر"[١].

٢ – لم تفصل السجلات الرواتب الشهرية لكل فرد بحسب رتبته، وإنما ترك ذلك للدزدار وضبطته سجلات خاصة بكل قلعة لم نعثر عليها، وربما لو وجدت لأفادت كثيراً في فهم نظام الجندية وتراتيبها في الدولة العثمانية، وهو الأمر الذي يحتاج إلى بحوث معمقة، إذ أن ما ذكره حسين أفندي في أجوبته وما تناوله استيف لا يميط اللثام عن تفاصيل ذلك، وما أوردته سجلات الروزنامة عن رواتب لم تكن إلا على صورة بجملة كرواتب الكشاف والأمراء الصناجق والقبودنات وأغوات القلاع والجنود التي حوتها دفاتر عنوانها هو "قيد فرمانات صادرة عن الباب العالي در محروسة مصر، دفاتر خدمة القلاع، دفاتر مسموحات ومرتبات، دفاتر كشيدة ديوان مصر وقيد يه

---

[١] – سجل٩٠، سنة ١٠٥٥هـ ق٥٢.

أوامر شاهانية وأوامر عالية بتعيين ورفت موظفين وترتيب وصرف مرتبات ومعاشات، دفاتر كشيدة مصر ..الخ".

٣ – تمثل تلك الأرقام الرواتب الرسمية للدزدارة ورجال القلاع، وكان قانون نامة سليمان قد حرم على العسكريين العمل في التجارة والأسواق والصناعة[١] وغيرها، غير أن ثنائية الدور لدى العسكريين التي فرضت عليهم دوراً إدارياً وأمنياً إلى جانب مسئولياتهم العسكرية، وكذلك تراخي القبضة العثمانية وتعرض العملة الرسمية التي كانوا يتقاضون بها رواتبهم إلى تراجع في قيمتها الشرائية مما دفعهم إلى تعويض ذلك بفرض رسوم غير رسمية وأعباء لمصلحتهم وكذلك للعمل في شتى ألوان النشاط الإداري والاقتصادي وهو ما سوف نتعرض له تفصيلاً بعد ذلك[٢]

٤ – لم تشر تلك الأرقام الإجمالية إلى ما يحتاجه هؤلاء الجنود من نفقات عينية كحبوب ومختلف النفقات، غير أن وثائق أخرى أشارت إلى أن مسئولية ذلك كانت تقع على الجنود أنفسهم وعلى قادتهم، وعليهم شراء ما يحتاجونه من ذلك، ومن تلك الوثائق ما أشارت إليه إحدى الوثائق عن "تصادق فخر الأماثل عبد الله الرومي من طايفة الينكجرية مع الحاج أحمد العادلي وذلك لشراء ثمان ضرايب من الأرز[٣] من الأرز الشعير الفارسكوري وذلك لقاء ٨٤ دينار لبلوك ٢٤"، وكذلك ما أوردته وثيقة أخرى عن تعاقد أحد أفراد طائفة الجراكسة من بلوك ٣٨ مع تاجر أعلاف على شراء أعلاف بما قيمته ١٩ ديناراً وغير ذلك من الوثائق التي تدور في نفس المضمون[٤].

---

١ – أحمد فؤاد متولي: قانون نامة مصر، ترجمة وتعليق، القاهرة سنة ١٩٨٦م، ص٩-٢٠ ؛ عبد الحميد سليمان: الموانئ المصرية، ص١٠٦-١١٤.

٢ – لمزيد من التفاصيل حول مسئوليات الدزادرة في القلاع ودعوطم غير الرسمية وكذلك حول أسباب تفاقم الانفلات العسكري المتمثل في ممارسة العسكر لشتى الأنشطة الإدارية والاقتصادية يرجع إلى: عبد الحميد حامد سليمان: الحمايات والمغارم في مصر العصر العثماني، بحث تحت النشر، ألقي في المؤتمر العالمي السابع للدراسات العثمانية بتونس سنة ١٩٩٦، ص١٣-٢٤.

٣ – الضريبة تعدل الألف كيلو جرام.

٤ – سجل٦، سنة ٩٧٤هـ، ق٢٦٤ ؛ سجل٧، سنة ٩٧٤هـ، ق٥٣.

أما الشكل العام لتلك القلاع ومكوناتها فلم تسعفنا الوثائق بتفاصيل شاملة عنه، وإن وردت مواد متفرقة عن بعض الترميمات وغير ذلك، ومنها على سبيل المثال عملية ترميم القلعة الشرقية ٩٧٢هـ/١٥٦٤م، التي صدر بها أمر عالي واستلم بموجبه محمد جاويش من المعلم إبراهيم بن داود وكيل المعلم موسى بن اسحق الملتزم بمقاطعة الثغر من باطن أمير اللواء السلطاني مبلغ ٣١ ديناراً ذهباً سلطانياً عتيقاً ومن الذهب الجديد ٥٠ ديناراً وذلك لشراء ١٥٠ قطعة من الحجر السلطاني و٥٠٠ قطعة من الأعتاب وذلك لعمارة القلعة السلطانية الشرقية[١].

وأما تسليح القلاع فقد عثرنا على وثيقة تسليم وتسلم بين دزدار معزول ودزدار جديد وفيها بيان بعدد ونوعية الأسلحة الموجودة بقلعة عبد الصمد ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م ومضمونها:

"هذه صورة قايمة مشمولة بإمضاء مولانا علي أفندي زيد فضله، قايمة مباركة إن شاء الله تعالى تتضمن علم تسليم فخر أمثاله وذخر أقرانه رجب أغا دزدار القلعة الغربية الكائنة بالبر الغربي المعروفة بعبد الصمد أغا إلى كنعان أغا بموجب البيورلدي الوارد من مصر المحروسة في خصوص ذلك وما فيها من آلة الحرب والسلاح والذخيرة الموضوع ذلك بالقلعة المذكورة وجرى بيان ذلك وحرر في أول رجب سنة ١٠٦٥هـ وبيان ذلك:

مدافع شاة هجران نحاس		مدافع هجران نحاس	مدافع هجران سقط
٣		٣	١
مدافع زر بطان نحاس		مدافع حديد إنجليز	مدافع حديد سقط
٣		٥	١
شاهق نحاس	شاهق سقط	نادق	سيوف
١	١	١١	١٩

---

[١] - سجل٤، سنة ٩٧٢هـ، ق١٥٢.

غدارة	حربة	ملقف	تمساح رصاص	قطع مدافع	صناديق بارود
١	١	١	٤	٣	٣

حررها[١]

أحمد الدمياطي الشيخ عبد العاطي النفري"

وقد نقلت لنا وثيقة أخرى وصفاً لتوزيع تلك الأسلحة داخل القلعة فمن ذلك "بمتراس القلعة مدفعين والمتراس الوسطاني خمسة مدافع وعلوا القلعة مدفع سلام وثلاثة مدافع والسور الفوقاني ثلاثة مدافع .. الخ"، أما القلعة الشرقية فقد حددت إحدى الوثائق عدد الرماة باثنى عشر رامياً وزرد كاش[٢]، وتتم إجراءات التسليم والتسلم في حالات التقاعد أو العزل أو الانتقال وذلك بحضور أحد أغاة الحوالة وكتخدا القبودان وسردار الينكجرية وخطيب القلعة وجاويشها واليازجي لها[٣].

غير أن نظرة إلى وثيقة بيان الأسلحة ونوعياتها وتوزيعها تشير إلى الملاحظات التالية:

أ- اقتصار الغاية من القلاع على الدفاع الثابت والاستخدام المكثف للمدفعية مقارنة بالأسلحة التي يستعملها الأفراد وهذا يطرح إمكانيات كبيرة لنجاح عمليات اختراق المنطقة مع افتراض تعرض الأماكن الممتدة شرق القلاع وغربها لعمليات

---

١ - سجل١٠٥، سنة ١٠٦٥هـ، ق١٤٧.

٢ - سجل١٤٠، سنة ١٠٩٢هـ، ق٢٣٧ ؛ سجل١٦، سنة ٩٨٣هـ، ق١٨٦.

٣ - **أغاة الحوالة** هم جاريشية يرسلهم الديوان العالي من القاهرة لتوصيل الأوامر الإدارية والفرمانات إلى الأجهزة الإدارية والكشاف والملتزمين، ويرأسهم كتخدا الجاريشية.

سردار الأصل في الكلمة قائد الجيش أو السيد أو الرئيس ولقب بها الصدر الأعظم في اسلامبول "صدر أعظم وسردار أكرم"، وفي الوظائف العثمانية سردارية يعينون من قبل أغا أوجاق مستحفظان لأمور الضبط والربط في البنادر ويسمون بسردارية الينكجرية. القيناني، مصطفى بن الحاج إبراهيم: مجموع لطيف يشتمل على وقايع مصر القاهرة سنة ١١٠٠ إلى ١١٥٢، مخطوط بالمكتبة الوطنية بفينا رقم Ms. Hist. Osm. ٣٨، ص٣٥ ؛ أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٢٧-١٢٩.

إنزال بحرية بعيداً عن مرمى نيران الأسلحة الدفاعية في القلعة مع عدم كفاية المقاتلين للتصدى لذلك.

ب- لم تستعمل تلك القلاع مستغلة الموقع الإستراتيجي للثغر كنقطة تجميع للقوى العثمانية أو كقاعدة بحرية ومرفأ تلجأ إليه الأساطيل العثمانية لإجراء العمرات أو للتموين أو التزود بما يلزمها، وربما كان ذلك لابتعاد المنطقة نسبياً عن مناطق الصراع العسكري المكثف.

ت- يؤكد ما سبق على أن قلاع دمياط وثغر دمياط كانت تمثل في الإستراتيجية البحرية العثمانية موقعاً هامشياً على الرغم من التاريخ العسكري الحافل لذلك المكان وأهميته الإستراتيجية القصوى.

ث- يعكس هذا على الإجمال النجاحات التي حققتها البحرية العثمانية في شرق البحر المتوسط طول القرنين ١٦ و١٧م وخلال النصف الأول من القرن ١٨م.

ولا يمكن الحديث عن الدور العسكري دون الإشارة إلى الجانب الذي كان على الجنود العثمانيين وعلى قياداتهم الإطلاع به في دمياط كمسئولية أصلية تقف إلى جانب مسئولياتهم العسكرية، وهو الجانب الأمني، وعلى هذا اضطلع كبار رجال الجهاز الإداري بدمياط بالجانب الأمني ابتداء بالقبودان وكتخداه ثم الجاويشية والصوباشية[١] القائمين على الإشراف على إدارة وتنظيم الأمن، وبتعبير الوثائق "مراقبة الدرك ورجاله"، كما كان عليهم ضبط الأمن داخل أرصفة الميناء ومداخله، بحيث لا تخرج أو تدخل سفينة إلا بإذنهم[٢]، وهم المسئولون عن تنظيم دوريات للجند لإقامة

---

١ - **الصوباشي** من يعين لضبط أمور البلاد من قبل السلطان وقد اتسع مدلول تلك الكلمة فأصبح على شاغلها أداء أوامر الحكام والإشراف على الأمن والدرك. محمد علي الأنسي: الدراري اللامعات، ص٣٣٩.

٢ - سجل٧٥، سنة ١٠٣٥هـ، ق٤٤٥ ؛ سجل١٦، سنة ٩٨٣هـ، ق٧٠٥، ٧٤٨، ٧٠٥، ٧٩٣. لمزيد من التفاصيل عن عوائد القبودان والكتخدا والقضاة ودزادرة القلاع والمحتسبين ورجال الإدراك وغيرهم من أعضاء الجهاز الإداري بدمياط الرسمية وغير الرسمية يرجع إلى: عبد الحميد سليمان: الموانى المصرية، ص٦٩، ٨٦، ١٠٥-١٣٣ ؛ عبد الحميد سليمان: نظم إدارة الأمن في مصر العثمانية، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، عدد٥٧، ص٦٠-٦١.

الأمن في الثغر نهاراً، وهم من أسمتهم الوثائق باسم "مقدمي العسكر والرأس نوبيه"، ولهم الإشراف على ملتزمي أمن الإدراك وتحديد نواحي اختصاصهم، ومن هذا ما رصدته وثيقة عنوانها "صورة حكم" جاء فيها "حضر محمد جاويش للثغر وبصحبته المقدم زين الدين بن سلطان وأنهى أن عين غفير بالثغر للحفظ والحراسة بمقتضى حكم بيده وأنه من حين تعيينه في الخفر بالثغر وإلى الآن أخذ السراق إحدى وعشرين قاعة قمح وأنه نبهه بالدفعات فلم يظهر لذلك أثر وأنه كشف في السجلات عن أحواله .. الخ ويرفع هذا المقدم من الخفر ويعين مكانه من يرتضيه من الناس"[1].

وعلى حين كان ملتزمو أمن الإدراك يتقاضون رواتبهم من أفراد الجهات التي كان عليهم القيام بحراستهم وحراسة أموالهم، وكان على الجاويشية والصوباشية ومن معهم من الجنود أن يتقاضوا رواتبهم من ديوان الثغر ومقاطعة التزامه أسوة بزملائهم في القلاع ويرأسهم ضابط رتبته "رأس النوبة"، وإضافة لتلك الرواتب كان لهم بعض العوائد التي يتقاضونها على المراكب والبضائع والوكائل[2]، ولم يخل الأمر من وجود احتكاكات بين الأهالي وبعض جماعات العسكر بصورة لا يمكن أن تجعل ذلك حادثاً فردياً، مثلما رصدته إحدى الوثائق عن ما حدث بين أفراد طائفة التفكجية ومجموعة من الأهالي من احتكاكات، ومثله ما دار بين أرباب الدرك وأهالي السنانية، وهو ما استدعى تدخل أمير اللواء السلطاني وكتخداه وطائفة الجاويشية لإنهاء ذلك الخلاف[3]، على أنه تنبغي الإشارة إلى أن جهات محاسبة ومحاكمة العسكريين لم تكن هي الجهات المعتادة في مثل تلك الظروف في دمياط، وإنما كان الرجل يحاكم داخل أوجاقه، ومن ذلك الأمر الوارد من الديوان العالي في القاهرة يأمر بإحضار إسماعيل الينكجري المسجون بالقلعة وتجهيزه إلى الديوان وإرساله إلى أغا أوجاق الينكجرية

١
- سجل١٦، سنة ٩٨٣، ق٧٤٨.

٢
- عبد الحميد سليمان: الموانئ المصرية، ص١٢٣-١٣٥.

٣
- سجل١٦، سنة ٩٨٣هـ، ق٨٤٠-٨٤٩ ؛ سجل٧٥ سنة ١٠٣٧هـ، ق٤٢١.

"مستحفظان" بالقاهرة لمحاكمته[1]، أما ما قد يحدث بين جماعات العسكر وبين الأهالي فإن مثل هذه الاحتكاكات كانت أمراً وارد الحدوث في حالات اقتراب وتداخل المجتمعات المدنية بتواجد عسكري، وهذا في إطار ولاء الجنود لطوائفهم وأوجاقاتهم.

غير أنه جدير بالملاحظة أن المستويات العليا لإدارة الأمن المتمثلة في أمير اللواء السلطاني والكتخدا ودزادرة القلاع والمستويات الوسطى المتمثلة في الصوباشية ورأس النوبة والمقدمين على العسكر كانت حكراً على العسكريين من العثمانيين، أما المستويات الدنيا المتمثلة في رجال الإدراك وملتزميهم ومشايخ الحارات والمقدمين العاملين في الأسواق والوكائل كانت من الأهالي، ولعل الدافع وراء ذلك ينطلق من الفلسفة التي كانت عليها الإدارة العثمانية، وهي ضمان السيطرة على الحالة الأمنية مع التخفف من المستويات الدنيا للأهالي.

غاية القول أن الظروف العامة المختلفة على ما أسلفنا فرضت على الوجود العثماني السمة العسكرية الإدارية التي وإن بدت في شكلها تحصر ذلك الوجود في إطاره الرسمي، إلا أن ظروفاً أخرى سوف نتناولها بعد ذلك فتحت أبواباً عدة دلف منها الجنود والقادة العثمانيون إلى الحياة المدنية والاحتكاك المباشر مع المجتمع الدمياطي، وهو الأمر الذي فتح بدوره الطريق أمام هذه العناصر للاندماج ثم الانصهار في ذلك المجتمع كجزء أصيل منه وفيما يلي نتتبع ذلك.

ثانياً: الدور المدني

لم يكن عدم انشغال الحاميات العثمانية الموجودة في القلاع في صراعات عسكرية نتيجة لاختفاء النشاط العسكري في شرقي حوض البحر المتوسط، وحالة الاسترخاء الطويلة هو السبب الوحيد لانخراط العناصر العثمانية في مختلف الأنشطة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، مع الإشارة إلى أن ذلك كان سبباً هاماً، إلا أنه لم

---

[1] - سجل٣٥، سنة ١٠٠٤هـ، ق٣٩٨.

يكن السبب الوحيد من أسباب غلبة الدور المدني بشقيه الإداري والاقتصادي ونتائجه الاجتماعية على الدور العسكري، وقد اضطلع العثمانيون بجانب كبير من النشاط الإداري وذلك انطلاقاً من أن الصفة العسكرية والإدارية كانت اختصاصاً أصيلاً لهم، وذلك انطلاقاً من فلسفة الإدارة العثمانية للولايات والتي تزدوج فيها المسئوليات العسكرية والمدنية وبحكم مواقعهم من الجهاز الإداري في دمياط بدءاً بمستويات الإدارة العليا التي يمثلها شاغلو منصب:

القبودان، وسردار مستحفظان، والحاكم الشرعي المتولي لمنصب القضاء -والذي شغله في معظم الأحيان قضاة من الأروام باستثناء فترات متفاوتة شغله فيها علماء من المصريين- والكتخدا، وانتهاء بالمستوى الثاني من عناصر الجهاز الإداري من الملتزمين والجوربجية والصوباشية وغيرهم[١].

وكان ملتزمو المستوى الثاني يلتزمون بجهات مقاطعة الثغر العديدة من باطن الملتزم بمقاطعة الثغر، وهو أمير اللواء السلطاني القبودان، ويلزمونها من باطنهم للمستوى الثالث من العناصر الإدارية وهم من الأهالي وشيوخ الطوائف والحرف، وكان طبيعياً أن يكون هناك تصنيف فئوي وطبقي في ظل احتكار العناصر العثمانية على اختلافها لمستويات الإدارة العليا والوسطى، وأسهم تداخل عناصر مختلفة من غير العثمانيين في شغل بعض وظائف المستوى الأول من الإدارة، كمنصب الحاكم الشرعي الذي شغله في أحيان مختلفة مصريون، وكذلك ما حققته عناصر مختلفة من غير العثمانيين من ثروات ومكانة من خلال إدارتها لجهات الالتزام من باطن ملتزمي المستوى الثاني وكذلك عملها في إدارة الطوائف والحرف وفي نظارة الأوقاف، أسهم ذلك في جعل هذا التمايز تمايزاً طبقياً لا عرقياً، مثلما كان الدين الإسلامي الذي دان به الأغلب الأعم من الناس مانعاً لجعل هذا التمايز تمايزاً دينياً.

---

[١] - سحل٤٥، سنة ١٠١٥هـ، ق٦٦٧ ؛ سجل٧٧، سنة ١٠٤١هـ، ق٧٧٧، ومكرر ق١٥٠؛ سجل٨١، سنة ١٠٤٥هـ، ق٤٠٤ ؛ سجل١٦٥، سنة ١١١٣هـ، ق١٠١.

وبنظرة عامة إلى أوجه النشاط الإداري الذي باشرته العناصر العثمانية على اختلاف مستوياتها نجد أن البيورلديات والفرمانات والخطوط والأحكام التي كانت تصدر من القاهرة أو استنبول كان تخاطب كبار مسئولي الجهاز الإداري بصفاتهم كالحاكم الشرعي وأمير اللواء السلطاني وكتخداه، ثم تجمل ذلك بتعبير شائع في وثائق الفترة وهو "متكلمي الثغر"[١]، وقد انحصر هذا النشاط في جانبين:

تعلق أولهما بتنظيم وتدبير متطلبات الدولة العثمانية وتيسير وتشهيل نقل احتياجاتها.

وثانيهما تعلق بإدارة الثغر مالياً وأمنياً واجتماعياً.

وبتفصيل غير مسهب لما اكتظت به سجلات محكمة دمياط الشرعية من الوثائق التي تتناول ذلك وتبدو كالمكررة، وكان على الجهاز الإداري تجهيز الحرفيين من طوائف "القلافطة والنجارين في المراكب والحدادين والحبالين والدكاكين والبحارة والكركجية"، وطوائف القلافطة أهم الذين يعدون السفن بالقار والمشاق من الكتان حتى لا تخترقها المياه، والحبالين هم صانعو الحبال، والدكاكين من صناع البن، وكانوا يطلبون لدق البارود، والكركجية هم الجدافون، وذلك لإرسالهم وقت طلبهم لمختلف الترسخانات السلطانية في القاهرة أو السويس أو استنبول ومختلف معامل البارود، وذلك للعمل في صناعة السفن الحربية وصناعة البارود، والعمل على السفن السلطانية كبحارة وجدافين، وذلك لتقديم المساعدات المطلوبة للجيوش والأساطيل العثمانية في حروبها المتواصلة، وعلى سبيل المثال لا الحصر أوردت وثائق ٩٧٣هـ/١٥٦٥م أن الجهاز الإداري بدمياط جهز ما صدر لأجله "حكم شريف عالي من الباب العالي بالديار المصرية"، وذلك لتجهيز أفراد من "القلافطة والنجارين والحدادين للمهم السلطاني"، وقد سافر لذلك الغرض ١٤ نجاراً و١١ حداداً[٢] وقبضوا رواتبهم قبيل

---

[١] - لمزيد من التفاصيل حول الاختصاصات والمسئوليات والأجهزة الإدارية المعاونة والدخول الرسمية وغير الرسمية للحاكم الشرعي وأمير اللواء السلطاني وسائر عناصر الجهاز الإداري على اختلاف مستوياته. عبد الحميد سليمان: الموانئ المصرية، ص٦٣-١٤٣.

[٢] - سجل٥، سنة ٩٧٣هـ، ق٣؛ سجل٢٠، سنة ٩٨٥هـ، ق١٢٦ ، سجل ٤٦، سنة ١٠١٧هـ، ق٩٨-٩٩.

سفرهم، ولنفس السبب كلف عابدي جاويش ٩٩٥هـ/١٥٨٦م بإعداد وتسفير ٨٠ رجلاً تضمنت قائمة أسماؤهم، وجاء فيها "قايمة مباركة إن شاء الله تعالى تتضمن على أسماء طائفة الحدادين المطلوبين من ثغر دمياط إلى بندر السويس بموجب البيورلدي الوارد في خصوص ذلك من الديوان العالي بمصر المحروسة، المكمل بالختم الشريف على العادة المؤرخ في ثامن شهر تاريخه تحريراً في ٢٠ شعبان سنة ١٠٧٣ يتضمن المعلم عبد الصمد بن عمر الزيلع وتابعه غنيم المعلم عبد الرحمن الزيلع وأتباعه يوسف ولد أخيه وخليل المصري المعلم علي بن عبد العزيز وأتباعه مصطفى وعلي أولاد سليمان الغزاوي المعلم حجازي بن سليم وأتباعه صالح بن أحمد المصري ونقوله النصراني .."[1].

واستكمالاً لنفس الدور كان على العناصر الإدارية على مستوياتها تلبية متطلبات الدولة العثمانية من المواد الغذائية كالأرز والعدس والثوم والعسل والقمح والشعير والإشراف على نقله إلى حيث تأمر البيورلديات المعنية بذلك، ومن ذلك ما ورد بتمكين الزيني حسين بن عبد الله الرومي من شراء ألف إردب من القمح والشعير وتجهيزهم من دمياط إلى غزة، وتكليف حبيب جاويش بشراء ١٦٦ إردباً من الأرز للسلطنة الشريفة بلغ ثمنها من ديوان ثغر دمياط ألف دينار ذهباً[2]، وكذلك ما ورد بخصوص تمكين أحمد الينكجري من تجهيز القمح والأرز والعدس والثوم والبصل إلى خليل الرحمن بالقدس الشريف بما قيمته ٢٠ ألف نصف فضة و٥٠ فضة، وكذلك ما ورد من تمكين الأمير حسين جاويش من تنظيم عملية صناعة البكسماط اللازم

---

١ - سجل١٦١، سنة ١٠٧٣هـ، ق١٥٤ ؛ وسجل١٩٠، سنة ١١٣٠هـ، ق١٨.

٢ - سجل١١، سنة ٩٧٩هـ، ق١٧١؛ سجل٨، سنة ٩٧٥هـ، ق١٧٤؛ سجل ٤٦، سنة ١٠١٧هـ، ق٩٨-٩٩.

لتموين الجيوش السلطانية والأشراف على تجهيزه واستلامه من جماعة الطحانين وشيخهم وبلغ قدرها ٣١٤ قنطاراً[١].

وأما الشق الثاني من المسئوليات الإدارية المدنية فإضافة إلى الأمن وإرسائه على نحو ما أسلفنا كان عليهم المتابعة الإدارية للمشاكل الناشئة عن إدارة الالتزام وجهاته والعلاقة بين الملتزمين على اختلاف مستوياتهم وعلاقاتهم مع الأهالي الممثلين لعناصر تمويل مختلف جهات الالتزام والحرفيين وطوائفهم والتجار وأسواقهم ووكائلهم والميناء وإدارته والقادمين إليه من مسافرين وتجار والمرتحلين منه على اختلافهم واختلاف مشاربهم وكذلك متابعة أعمال الحفر السنوي لخليج النواري الذي يستقي من النيل جنوب الثغر وينتهي إلى شماله الشرقي والذي تقع عليه معظم بساتين الثغر[٢].

وعلى الإجمال ودون أن نتصدر لرصد جميع ألوان الأنشطة الإدارية إذ أن الأمر عندئذ يخرج عن نطاق ما أفرد هذا البحث له وهو رصد التداخل العثماني في المجتمع الدمياطي وتتبع تطور العلاقة بين التواجد العثماني وعناصر المجتمع وأنشطته وصولاً إلى صيرورة العثمانيين جزءاً مألوفاً ومنصهراً مع شتى عناصر ذلك المجتمع وفعالياته، وعلى ذلك فإن العثمانيين باعتبارهم المشكلين لمعظم عناصر المستويين الإداريين الأعلى والأوسط كان عليهم متابعة كافة الإجراءات الإدارية اللازمة لإدارة الثغر على اختلاف متطلبات الإدارة ونجمل الأمر في ذلك بما رصدته إحدى الوثائق على سبيل المثال لا الحصر والتي جاء فيها:

"حضر بمجلس الشرع الشريف قدوة الكرام الأمير علي بيك أمير اللواء الشريف السلطاني بالثغر والملتزم بمقاطعة الثغر حالاً ومولانا شيخ الإسلام وعمدة الأنام الحاكم الشرعي بالثغر حالاً وباش جاويش الجراكسة وبلوك باش الينكجرية وبلوك باش التفكجية وكتخدا أمير اللواء علي بيك المشار إليه وأنهوا أنه على تفتيش المراكب

---

[١] - سجل٤٧، سنة ١٠٠٨هـ، ق١٦٥ ؛ سجل٣٢، سنة ١٠٠٣هـ، ق٢٨٨. ولمزيد من التفاصيل حول النفقات لتمويل مثل تلك الأعمال والكميات المقرر نقلها بصفة دورية والظروف المحيطة راجع: عبد الحميد سليمان: الموانئ المصرية، ص٢١٥-٢١٩.

[٢] - سجل٣١، سنة ١٠٠٠هـ، ق٣٧٦.

الرومية والشامية بالبراني لديوان الثغر كل ركب فضة ٩٠ والذي لأغاة القلعة الشرقية عن المراكب الشامية بين كل مركب فضة ٣٢ نصف وعن المراكب الرومية كل مركب فضة ٤١ نصف بغير زايد وعادة الحوالة بالثغر كل مركب فضة ١٠ قروش بغير زايد وتمكين البوغاز لكتخدا القبودان فضة ١٧ نصف والتمكين لكتخدا القبودان بالهدية فضة ١٠ نصف وعلى ما جرى وقع التحرير في ١٨ جمادى الأولى سنة ١٠٤١"[1]. وبنظرة سريعة إلى تلك الوثيقة تبدو الملاحظات التالية:

١-مشاركة مختلف العناصر الإدارية للمستويين الأول والثاني في متابعة الإجراءات وصياغة الحلول وضمان الالتزام بها.

٢-الامتيازات غير الرسمية لعناصر الإدارة كل بحسب موقعه وتأثير وأهمية ذلك الموقع.

٣-تنظيم وتفاوت عملية تحصيل الرسوم من السفن المتعاملة مع ميناء دمياط، وذلك بحكم الميناء القادمة منه وجنسية أصحابها.

٤-غياب الطرف الثاني من المعادلة في الأمر وهم المحكومون، واستئثار عناصر الإدارة في مستواها الأول والثاني بصياغة القرار رغم كونهم أطراف أصيلة في القضية وما تتناوله تلك القضية يتعلق بمنافعهم وامتيازاتهم الشخصية بما يطرح إمكانية الاستغلال للنفوذ في حالات غياب المراقبة أو تغيبها.

غير أن هذا الشطر على اتساعه من النشاط الإداري الذي أضطلع به العثمانيون بحكم موقعهم الإداري والعسكري توازى مع الشطر الثاني من النشاط المدني غير الرسمي والذي كان بمثابة النتيجة الواقعية للتواجد العثماني العسكري والإداري، وقد أسهمت عناصر وأسباب متعددة في فتح الباب أمام هذا النشاط بما أدى إلى تقارب عثماني مع الأهالي ازداد مع الأيام ومع الأجيال التالية للأجيال التي بدأت تواجدها في

---

[1] - سجل٧٧، سنة ١٠٤١هـ، ق٨٠٩.

دمياط من خلال الصفة العسكرية والرسمية بوجه عام حيث أثمرت عدة أسباب عن ذلك نوجزها فيما يلي:

١-تضاءل النشاط العسكري العثماني لأسباب تم التنويه عنها سابقاً مما أدى إلى شبه استرخاء عسكري تبعه تزايد الدور الإداري على المسئولية العسكرية في ضوء ثنائية الدورين، وهي أساس في صياغة الأهداف من وراء هذا التواجد لدى الدولة العثمانية المركزية، وقد كان ذلك باباً دلف منه العثمانيون إلى الحياة العامة في دمياط بمختلف أنشطتها.

٢-أسهمت سياسات الدولة العثمانية التي قامت في شق منها على ارتزاق أصحاب المناصب الإدارية من مناصبهم واعتبار ذلك جزءاً من دخولهم المعترف بها إضافة إلى مشاكل تخفيض العملة العثمانية ٩٩٧هـ/١٠٨٩م إلى النصف وما نتج عن ذلك من انخفاض في قيم العملات الحقيقية والشرائية، ثم ما قام به أويس باشا سنة ٩٩٨هـ/١٥٨٨م من ضغط للنفقات مما أدى إلى حرمان العسكر في مصر من الزيادات التي كانوا يتقاضونها على رواتبهم مما أسهم في توفير ٢٤ مليون بارة سنوياً للدولة المركزية والخزينة السلطانية[١].

وقد كانت تلك السياسات وما أسفرت عنه دافعاً للدولة العثمانية للتغاضي عن نشاطات عديدة للعناصر العثمانية سمحت لها فيها بالعمل بالتجارة والالتزام والدخول في الحرف والطوائف كمحاولة لاسترضاء تلك العناصر وضمان سكوتها في ظل شبح ثورات الإنكشارية المشهورة في أسيا الصغرى وثورات الجند في ريف مصر[٢] والتي هددت بزوال السيطرة المركزية وفي الولايات على الموقف وانفلات الأمر من أيديها بما تهدد الدولة العثمانية بأوخم العواقب.

---

١ - SHAW : Op . Cit, p 284 -

٢ - يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ص٤٢٨-٤٣١ ؛ عبد الحميد سليمان: الحمايات والمغارم في مصر، ص١٣-١٥.

وقد أسهمت الامتيازات والدخول العالية خاصة في جانبها الرسمي للعناصر العثمانية الرسمية وشغلها لوظائف المستويين الأول والثاني الإداري وكذلك للعسكريين من العثمانيين من الجاويشية والجنود في ولوج تلك العناصر الحياة العامة من خلال مستويات متميزة من الأنشطة الاقتصادية، وسوف نضرب أمثلة على سبيل التمثيل دون الحصر الإحصائي لذلك من خلال عدد من العثمانيين ممن يمثلون جميع المستويات التي شغلتها العناصر العثمانية على اختلاف زمن التواجد لتلك النماذج ومن هؤلاء:

أ- عبد الصمد أغا بن رزيق الذي نسبت إليه القلعة الكائنة على الضفة الغربية لفرع دمياط الذي التزم بإحدى جهات مقاطعة التزام ثغر دمياط وهى "بحيرة الهداوي بظاهر الثغر"، حيث استصلح أراض جديدة واسعة واتسعت ثرواته وأصبحت له حواصل كثيرة للتجارة وثروات واسعة[1].

ب- البدري حسين بن عبد الله الرومي وقد التزم بمقاطعة الثغر من باطنه أمير اللواء السلطاني حسن بك إضافة إلى عمله بخدمته، حيث سجلت إحدى الوثائق أنه التزم بالثغر من باطن أمير اللواء ثم ذكرت وثيقة أخرى تسلمه ٨١ إردباً من الأرز لحساب أمير اللواء حسن بك[2].

ت- مصطفي أفندي جاويش زاده الحاكم الشرعي والذي عين ١٠١٥هـ/١٦٠٦م بدلاً من تاج الدين أفندي الذي كثرت شكاوى الأهالي منه، ويحيى أفندي قاضي قضاة الثغر ١٠٤١هـ/١٦٣١م، وحسن أفندي المعين على قضاء دمياط ١٠٠١هـ/١٥٩٢م[3].

---

١ - سجل٥٠، سنة ١٠٢٠هـ، ق٦٩ ؛ سجل٥١، سنة ١٠٢٢هـ، ق٩٧ ؛ سجل٥٣، سنة ١٠٢٣هـ، ق٩٦ ؛ سجل٥٧، سنة ١٠٢٦هـ، ق٢٥٣.

٢ - سجل٦، سنة ٩٧٤هـ، ق٢٤١-٢٧٣ ؛ سجل٣١ سنة ١٠٠١هـ، ق٤٨٢ ؛ سجل٧٧، سنة ١٠٤٢هـ، ق٧٠-٩٩.

٣ - سجل٤٥، سنة ١٠١٦هـ، ق٦٦٧.

ث-نور الدين بن عبد الله الينكجري من بلوك ٢٤ الذي التزم ببعض جهات الثغر والتزم منه، كما نصت إحدى الوثائق الحاج زين بن الحاج علي بن محمد النبوي بالتحدث على جهة الحرش نظير مبلغ ٣٦ ديناراً مقسطة كل ثلاثة أشهر[1].

ج-الناصري محمد بن محمد درغت الرومي الذي شارك المعلم حسن بن الحاج علي السيوفي في مشيخة جماعة الصباغين.

ح-الشهابي أحمد بن يوسف الرومي أحد رجال أوجاق متفرقة الذي عمل في جهة الاحتساب مع الصارمي إبراهيم بن الحاج علي النقار والشهابي أحمد بن محمد العبدلاوي وجمال الدين بن الحاج شهاب الدين عرف بابن كحال[2].

خ-سليمان جاويش مستحفظان و حسن جاويش مستحفظان اللذان تشاركا في الالتزام بمقاطعة وكالة زيت دمياط ١١٦٩هـ/١٧٥٥م وذلك مصطفي جاويش الذي التزم مع آخرين بمقاطعة "بحيرة سمك در بندر دمياط" وإبراهيم كتخدا مستحفظان الذي التزم بمقاطعة "كيالة أرز بياض" والذي أناب عنه فيها مصطفى جاويش[3].

د-عبد الله الرومي متفرقة مستأجر أوقاف الحرمين الشريفين بدمياط، والزيني بن عبد الله الرومي من طائفة الينكجرية ناظر وقف جامع النعمان بمنية طيب من ضواحي الثغر، وسنان بن عبد الله الرومي من طائفة التفكجية من بلوك ١٣٠ ناظر وقف الجامع العتيق بدمياط "وهو جامع فاتح بن الأسمر الذي يعرفه الناس في دمياط باسم أبي العطاء أو أبو المعاطي"، وعلم الدين بن الناصري ناصر الدين من جماعة المتفرقة

---

[1] - سجل١٠، سنة ٩٧٨هـ، ق٣٢٦

[2] - سجل٣٢، سنة ١٠٠٢هـ، ق٢

[3] - دار الوثائق: دفاتر أصول مال اسكلها ومقاطعات، رقم ٤٢٥٨، سنة ١١٩٩هـ، عين ٥٤ تركي ١ ٤ دفتر ميزان وإيرادات مال وخراج أراضى مال وأسكلها مقاطعات تابع قلم شهر سنة ١١٤٥هـ، رقم ٢١٢٩ نوعي ٢٤ عين ٢٩ تركي ١

ناظر وقف الأشراف قايتباي[١]، وعثمان جوربجي سردار التفكجية الذي تولى نقابة الأشراف بالثغر.

ذ-عبد القادر بن شمس الدين الشهير بابن زوين متفرقة والذي كان شيخاً لطائفة التجار في الأقمشة بسوق القماش بالثغر، ورأس إلى جانب ذلك مشيخة طوائف الدلالين والخلعيين بالثغر سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م، وأحمد جاويش بن علي القادري نقيب طائفة القادرية -وهي إحدى الطرق الصوفية- والسيد محمد متفرقة نقيب السادة الأشراف، وشعبان الينكجري شيخ طائفة الحلاقين الأروام "المزينين"، وقد شملت مشيخته عدة طوائف سجلتها الوثائق وهي "طائفة الجرايحية والمجبرين والمزينين وأهل الدكاكين من ترك وأولاد عرب"، ويتضح من الجزء السابق أن أولاد الترك وهم الأروام العثمانية كانوا يمثلون جزءاً هاماً من تلك الطوائف، ومحمد الشهير بالخولاني الينكجري شيخ طائفة السماسرة في الدخان، ومحمد الشهير بالعسال أحد رجال القلعة الشرقية والذي استخدم بناً مغشوشاً فشكاه البعض فتحرى الأمر شيخ طائفة القهوجية المعلم خليفة بن محمد الأحميمي وأمره بإغلاق مقهاه والتوجه إلى القلعة حيث عمله الرسمي[٢].

ر-رضوان بلوك باشي الذي وصل إلى رتبة سردار طائفة الينكجرية بدمياط وكان ذا ثروة واسعة، وقد أسس المدرسة الرضوانية وأوقف عليها وكالة وأراض وحوانيت ورتب لها مدرسين ومؤدبين للأطفال وقراء للقرآن الكريم[٣]، وعبد الرحمن بن أحمد

---

[١] - سجل٤٥، سنة ١٠١٦هـ، ق٩ ١٠٤ ؛ سجل٦، سنة ٩٧٤هـ، ق٥٦- ٣٦٨ ؛ سجل١٥، سنة ٩٨٣هـ، ق٣٤ ٥ ؛ سجل١١٦، سنة ١٠٧٣هـ، ق١٦٨.

[٢] - سجل٧٥، سنة ١٠٣٧هـ، ق١٢٥ ؛ سجل٨١، سنة ١٠٤٥هـ، ق٢٨١ ؛ سجل٩١ سنة ١٠٥٥هـ، ق٣٢١-٨٧، سجل ١٢٣ سنة ١٠٧٨هـ، ق٨-٣٠٦ ؛ سجل١٠٥ سنة ١٠٦٥هـ، ق١٦٠

[٣] - سجل٧٧، سنة ١٠٤١هـ، ق١٠٨-١٨٥.

الشهير بالشبطاني المتقاعد والده في بلوك الينكجرية، وقد بنى أبوه مسجداً عرف بالشبطانية بالثغر ورعى الابن ذلك واتسع المسجد فشمل مدرسة[١].

وباستعراض ما سبق يتضح اتساع وشمولية التداخل العثماني الرسمي وغير الرسمي في كافة الأنشطة الإدارية والإنسانية[٢] وقد كان طبيعياً أن يسهم ذلك مع مالهم من امتيازات أسسها لهم وضعهم الرسمي ثم ما حققوه من وراء ذلك من ثروات[٣] واتساع في الأنشطة في إفراز وضع طائفي ومهني متميز لهم وامتياز فئوي جعل من العسير على معظمهم التضحية بذلك والعودة إلى حيث أتي، ولكن هذا لم يجعل العثمانيين يتأثرون بوضعيتهم الفئوية كأرستقراطية حاكمة فينعزلون عن المجتمع، وإنما دشنت تلك الامتيازات بتداخل مع المجتمع بالزواج والمصاهرة المتبادلة، ومن ذلك زواج حسام الدين بن محمد السنباطي عرف بابن زقزق على سكر ابنة فرحات الرومي من طائفة التفكجية، وكانت زوجاً لحسن بن عبد القدوس عرف بالفارسكوري، ومن ذلك أحمد بن شهاب الدين المعروف بالرصاصي والذي كان متزوجاً من المرأة فخر ابنة عبد الله الرومي، وعلى العكس من ذلك زواج البدري حسن ابن محمد الينكجري بمخطوبته الحرمة آمنة ابنة المرحوم شهاب الدين الحفصي، وزواج ابنة الشهابي أحمد المعروف بابن القمص لمصطفى بن عبد الله من طائفة الجراكسة، وزواج أحد رجال قلعة الطينة من امرأة من دمياط. وقد رصدت سجلات

---

١ - سجل١٢٠، سنة ١٠٧٥هـ، ق٢٩ ؛ سجل١١٦، سنة ١٠٧٣هـ، ق٢٦٣ ؛ سجل ١٦٤، سنة ١١١٣هـ، ق١٣٢.

٢ - سجل١٣، سنة ٩٨١هـ، ق٦٢ ؛ سجل٣، سنة ٩٧٢هـ، ق٥٧ ؛ سجل٤ سنة ٩٧٢هـ ؛ دار المحفوظات: سجل ١٧٦٤، ق٩ ؛ سجل٨، سنة ٩٧٥هـ، ق٨٨ ؛ سجل٨٢ سنة ١٠٤٨هـ، ق٢٤٦، سجل٨٨، سنة ١٠٥٣هـ، ق٩٧، ١٠٩، ١١٠، ١١٩، ٢٠٨.

٣ - سجلت على سبيل المثال إحدى وثائق حصر تركات الموتى ثروة أحد العثمانيين بأربعمائة دينار من الذهب بخلاف ما تركه عيناً ومتعلقاته الشخصية، وبنفس المعنى رصد نفس السجل حالات مشابهة. دار الوثائق:سجل٨٣،سنة ٩٨١هـ، ٦٢

محكمة دمياط حالات عديدة وكثيفة[١]، ولا يكاد يخلو سجل واحد من عشرات الزيجات كما توضح المواد التي تتناول مواريث هؤلاء الناس كيف أن أجيالاً عديدة نشأت وتزاوجت واختلطت بدورها وتفاعلت بالزواج من الأهالي والعثمانيين في أمر من الممكن أن يزعم أنه يمثل ظاهرة المصاهرة المتبادلة بين العثمانيين والأهالي. ويقودنا تتبع بعض تلك الأجيال إلى أن نؤكد ذوبان واختلاط العناصر الرومية العثمانية في المجتمع والعناصر المشكلة لأهالي دمياط منذ النصف الثاني من القرن ١٦م، وسوف نكتفي بذكر بعض أرقام المواد في عدد قليل من السجلات[٢]، والأمر من الكثافة بحيث يشكل أمراً مألوفاً في وثائق محكمة دمياط الشرعية حتى يمكننا القول أننا نرى من خلال الوثائق أجيالاً من المولدين -إن صح التعبير- ممن ينحدرون من أب عثماني وأم من أهالي دمياط والعكس، ومع سنوات القرن ١٧ و١٨م أصبح في دمياط أجيال جديدة من ثمرة هذا الامتزاج والتصاهر لا تعرف لها وطناً ولا مجتمعاً سوى دمياط ولا تختلف في كثير أو قليل عن أجيال انحدرت وانتمت إلى أسر عاشت وتتابعت في دمياط منذ قرون عديدة خلت.

مما سبق يتضح بجلاء كيف أن قواسم مشتركة بين طبيعة المجتمع والتركيبة الإنسانية فيه وبين العناصر الوافدة إثر قدوم العثمانيين إلى مصر كالدين وطبيعة النشاط الإنساني العام وما افترضته سياسة إدارة الولايات عند الإدارة العثمانية في استنبول، وكذلك ظروف متعددة جمعتها إلى طول المدة أسباب وعوامل مختلفة أسهمت جميعاً في تقبل البناء الاجتماعي في دمياط لتلك العناصر واستيعابه لها وصبغها بصبغته حتى غدت جزءاً مألوفاً منه برغم ما قد تهيأ لها من ظروف التميز الطبقي والانزواء الفئوي

---

[١] - لم نتعرض في هذا البحث لنشاط العثمانيين من غير المقيمين في الثغر من التجار الذين أطلقت عليهم الوثائق صفة (التجار السفارة) والذين ارتبطوا مع تجار الثغر بتعاملات كثيرة كالبيع والشراء والمبادلة والوكالة وغيرهم من مختلف الحرف التي ارتبطت مع أهالي ثغر دمياط بأنشطة وقتية وأقاموا بالثغر ريثما تقضي مصالحهم وارتباطاتهم ثم رحلوا. ومثل هذا الموضوع يحتاج إلى تناول مستقل.

[٢] - سجل٣، سنة ٩٧٢هـ، ق٥٧؛ سجل٤، سنة ٩٧٢ ؛ دار المحفوظات: ١٧٦٤هـ، ق٩، سجل٨، سنة ٩٧٥هـ، ق٨٨؛ سجل٨٢، سنة ١٠٤٨هـ، ق٢٤٦؛ سجل ٨٨، سنة ١٠٥٣هـ، ق٩٧، ١٠٩، ١١٠، ١١٩، ٢٠٨

المرتكن على وضعية إدارية واقتصادية متقدمة قياساً لمختلف عناصر التركيبة الاجتماعية لدمياط. غير أننا يجب أن نشير إلى استمرارية الابتعاد التقليدي للمصريين ومنهم أهل دمياط محل تلك الدراسة عن المستويات الفاعلة في الحكم والإدارة في العصر العثماني ونأيهم كالعادة عن العسكرية وابتعادهم أو إبعادهم عن طبقات رجال الحكم والإدارة واكتفائهم بالنشاط التقليدي الحرفي والمهني، وهو ما كان سائداً زمن المماليك ومن سبقهم ممن حكموا مصر عبر قرون متتالية.

الحياة الثقافية في عصر إسماعيل

(١٨٦٣-١٨٧٩م)

أ. د. سمير محمد طه

جامعة جنوب الوادي

تولى إسماعيل الحكم في يناير سنة ١٨٦٣م، وأنشأ مجلس شوري النواب سنة ١٨٦٦م وواجه في فترة حكمه تمكن نظام الامتيازات، والتدخل الأجنبي من الرقابة على المالية، إلى إنشاء صندوق الدين، والمراقبة الثنائية، وأدت في النهاية إلى تأليف الوزارة المختلطة برئاسة نوبار باشا دخلها وزيران أوربيان، واشتددت وزارة نوبار في تحصيل الضرائب، مما أدى إلى مظاهرة فبراير ١٨٧٩م، وتشكيل وزارة شريف، على أن يكون جميع أعضائها من المصريين. كانت مهمة شريف بناء على تكليف الخديوي وضع لائحة أساسية أو دستورية تقرر مبدأ المسئولية الوزارية، وقبل أن يفرغ مجلس النواب من مناقشة اللائحة الأساسية التي تقدم بها شريف باشا في ٨ مايو ١٨٧٩م، كان إسماعيل قد عزل في ٢٦ يونيو من نفس العام، بناء على ضغط الدول الأوربية على السلطان العثماني، ونفي إسماعيل إلى نابولي، وتولي ابنه محمد توفيق باشا خديوية مصر في نفس اليوم[١]، وقد توفى إسماعيل بالقسطنطينية في ٢ مارس ١٨٩٥م.

ويهمنا في هذا البحث الحياة الثقافية في عهد إسماعيل، ولا شك أن الأحداث السياسية أثرت على الحياة الثقافية، فانتشرت الصحف، وأدى نظام الامتيازات والتدخل الأجنبي إلى قوة هذه الصحف ووقوفها ضد التدخل الأجنبي، وأدت زيادة

---

١ - أحمد عرابي: كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية عام ٩٨-١٢٩٩هـ/١٨٨١ و١٨٨٢م، مخطوط، ج١، ص ٩، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٤.

التعليم في عصر إسماعيل إلى زيادة قاعدة قراء الصحف[١]، إلى جانب وجود "جمال الدين الأفغاني" في مصر وكانت مدة إقامته من سنة ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٩م شهد فيها التدخل الأجنبي وكان نشاطه التعليمي ذا شعبتين دروس علمية منظمة يلقيها في بيته في خان الخليلي و دروس يلقيها بين زواره في بيته وفي "قهوة البوستة" بالقرب من "العتبة"، وكان له تلاميذ من علماء الأزهر ومن المثقفين وتلقى دروسه الشيخ محمد عبده، ومحمود سامي البارودي وعبد السلام المويلحي، وإبراهيم اللقاني، وسعد زغلول وسليم نقاش، وأديب اسحق وغيرهم[٢]. و قد أدى الانفتاح على أوربا على يد إسماعيل إلى نمو الحياة الثقافية في عصره وخاصة أنه أوفد إلى فرنسا في بعثة سنة ١٨٤٤ في عصر محمد علي[٣].

الصحافة في عهد إسماعيل

لقد كانت "الوقائع المصرية" أقدم جريدة للحكومة المصرية أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٨م[٤]، وقد قامت فكرة الوقائع على الدعاية الواسعة لمحمد علي وجهوده في سبيل الإصلاح و النهوض بالبلاد، وان كانت تضم موضوعات أخرى كالبحوث العلمية وإذاعة أنباء الجيش وترقيات الضباط والإشادة بانتصاراتهم[٥].

وقد عمل في تحرير هذه الجريدة بعض رجالات العصر كرفاعة رافع الطهطاوي وأدهم بك مدير المدارس، و قد اقتسمتها اللغتان التركية و العربية، و تغلبت الأولى

---

١ - خليل صابات وسامي عزيز ويونان لبيب: حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨-١٩٢٤، القاهرة ١٩٧٣م، ص٤٦.

٢ - أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت ١٩٧٩م، ص٦٤، ٦٧.

٣ عمر طوسون: البعثات العلمية في عهد محمد على ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، الإسكندرية ١٩٣٤م، ص ١٧٢، ١٧٣.

٤ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية - أربعة أجزاء، دار الهلال، بدون تاريخ، ج٤، ص ٥٢.

٥ - عبد اللطيف حمزة: الصحافة المصرية في مائة عام وزارة الثقافة ، المكتبة الثقافية ١٤، ص١٣، ١٤.

مرة والثانية مـرة أخرى إلى أن صدرت كـل منهمـا في صورة منفصلة[١]، ثـم عربيـة خالصه[٢]. ثم اختص محمد علي الجيش بجريدة له سميت الجريدة العسـكرية وأن مضت الوقائع المصرية تنشر تنقلاته و ترقيات ضباطه، بيد أنها لم تتمكن من أن تلم بكـل مـا يتصل بحياة جيش يبلغ زهاء ثلاثمائة ألف جندي وضـابط، وقـد طبعـت هـذه الجريـدة العسكرية في مطبعة ديوان الجهادية في سنة ١٨٣٣م[٣].

ثم جاء عصر عباس وسعيد، وفي عهدهما أصـاب الحيـاة المصريـة مـن الركـود الشيء الكثير، فأغلق ديوان المدارس وأغلقت المصانع والمعامل، ثم كـان مـن الطبيعـي أن تتوقف الوقائع المصرية[٤] الجريدة العسكرية[٥]، فقد لقيت الوقائع من الضيق في عهـد عباس ما حجبها عن القراء معظم أيـام حكمـه، وأراد سـعيد أن يتخلـص مـن مطبعـة بولاق وتكاليفها، بعد أن قامت بالأعباء الملقاة عليها خير قيـام منـذ إنشـائها متخطيـة كثيراً من الصعاب، فلقيت المطبعة في عهده عناء أثر في نشاطها واضطرت إلى التوقـف من يوليو ١٨٦١ إلى ١٩ أغسطس ١٨٦٢.

تعطلت الوقائع المصرية سنة كاملة بوقف مطبعة بولاق ثم عادت إلى الحياة بعد أن وهبها سـعيد هـي ومطبعـة بـولاق هديـة لصفيـه عبـد الرحمـن رشـدي بـك مديـر الوابورات البحرية، وهكذا أصبحت الوقائع هيئة غير رسمية، و بقيت في كنف رشدي بك زهاء ثلاثة أعوام، حتى سنة ١٨٦٥م فإذا إسمـاعيل يشـترى المطبعـة الأميريـة مـن صاحبها ويضع للصحافة الرسمية تاريخاً يبرز تاريخها في عهد أسـلافه جميعـاً، ويجـدد في

---

١ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية و أثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، القاهرة ١٩٤٤م، ص٤٠، ٤١.

٢ - دي طرازي، الفيكونت فيليب :تاريخ الصحافة العربية، ج١، بيروت ١٩١٣م، ج١، ص٤٩.

٣ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٤٣.

٤ - عبد اللطيف أحمد حمزة: الصحافة المصرية في مائة عام، ص١٨.

٥ - وزارة المعارف العمومية: إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، القاهرة ١٩٤٥م، ص٣٦٣.

مناحيها[١] . وتعد الوقائع المصرية في عصر إسماعيل سجلاً يصور لنا حياة مصر السياسية والاجتماعية في هذا العصر[٢] .

و يرجع اهتمام إسماعيل بالوقائع، بسبب مواجهة صحفية ليجييت L'Egypte له فور توليه الحكم، وكان نطوان موريس قد أنشأها في الإسكندرية في سنة ١٨٦٣ فأخذت تقاوم أفكاره وتسفه مشروعاته وتنبه الأجانب إلى سوء نواياه نحوهم، فكان الاهتمام بالوقائع المصرية لكي تستطيع الوقوف في وجه ليجييت[٣] .

وضح لإسماعيل وجوب الاهتمام بالصحافة، وأقدم صحيفة مصرية صدرت بعد الوقائع المصرية هى يعسوب الطب[٤] ، وهى مجلة كانت تقصر عنايتها على العلوم الطبية[٥] ظهرت في القاهرة ١٨٦٥م لصاحبها محمد علي باشا الحكيم رئيس الأطباء بمصر وإبراهيم السوقي. وهى أول مجلة من نوعها باللغة العربية، وكانت تطبع في مطبعة بولاق الأميرية على نفقة الحكومة[٦] ، ولكن هذه الصحيفة لم تعمر طويلاً[٧] ، وكانت صدى لنشاط الحكومة في النواحي الطبية. وإلى جانب هذه الصحيفة أنشأت حكومة إسماعيل الجريدة العسكرية المصرية في سنة ١٨٦٥م، وهى الصحيفة الرسمية الثانية باستثناء الوقائع المصرية[٨] ، وتولى تحريرها ضباط الجيش المصري وكان الغرض

---

١ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٥١-٥٤.

٢ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، القاهرة ١٩٣٢م، ج١، ص٢٦٠.

٣ - خليل صابات، سامي عزيز، يونان لبيب: حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨-١٩٢٤، ص٢٥.

٤ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص٥٥.

٥ - عبد اللطيف أحمد حمزة : الصحافة المصرية في مائة عام ص ١٩.

٦ - الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج١، ص ٦٧.

٧ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، القاهرة ١٩٣٢م، ج١، ص٢٦٠.

٨ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٥٧.

منها تثقيف عقول التلاميذ والضباط[1] قد أذنت الجريدة العسكرية للأدباء والفنانين أن يعرضوا معارفهم على صفحاتها مهما يختلف الموضوع عما يوحي به اسمها[2].

ونشأت في عصر إسماعيل الصحافة الشعبية بتوجيه منه، وتنحصر الصحافة الشعبية في تلك الفترة في جريدتي وادى النيل ونزهة الأفكار.

وجريدة وادى النيل مجلة سياسية علمية أدبية أنشأها سنة ١٨٦٦م عبد الله أبو السعود ناظر المدرسة الكلية التي أسسها محمد علي باشا في القاهرة[3]، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع[4]. والحقيقة أن جريدة وادي النيل كانت جريدة شعبية اسماً رسمية فعلاً، يقول في ذلك الدكتور إبراهيم عبده "ازدحمت معظم صفحاتها بأخبار الخديو ورجال حكومته. ولولا أنها أعلنت شعبيتها لظن متصفحها أنها صحيفة رسمية، فهى صورة للوقائع في تفكيرها واتجاهها، يعرف أسلوبها الأدبي رواية الخبر ويتعلق محررها بالسجع فهى تحاكي الوقائع وتخطو على أثرها في الشكل والموضوع معاً[5].

وقد عاشت جريدة وادي النيل اثنتي عشرة سنة حتى تعطلت سنة ١٨٧٨م بوفاة صاحبها[6]، ويذكر الأستاذ/ عبد الرحمن الرافعي أن هذه الصحيفة ألغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م[7]، ولو أننا نستبعد ذلك فقد كان الخديو إسماعيل من

---

١ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج١، ص١٩٠.

٢ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٥٩.

٣ - الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج١، ص٦٩.

٤ - عبد اللطيف أحمد حمزة: الصحافة المصرية في مائة عام، ص٢٨.

٥ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٧٦، ٧٧.

٦ - الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج١، ص٦٩.

٧ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج١، ص٢٦٢.

أكبر مشجعيها لأنها كانت تخدم أفكاره بـإخلاص تـام[١]. تلـك هـى الجريـدة الشـعبية الأولى في مصر إن صح تسميتها بذلك، أما الصحيفة الثانية فهى جريدة نزهة الأفكـار وهى أسبوعية ظهرت في القاهرة سنة ١٨٦٩م[٢]، وقد أنشـأها إبراهيـم بـك المويلحي ومحمد بك عثمان جـلال، ولم يصدر منهـا إلا عـددان ثـم عطلهـا إسمـاعيل بنصيحـة شاهين باشا وزير الحربية، إذ حذره عواقب لهجتها وما تؤدي إليه من إثارة الخواطـر[٣]، وذلك بالرغم من الطابع الأدبي الذي امتازت به[٤].

لقد بدأت الصحافة الشعبية أولاً اسمية فقط في وادى النيل وحينما تحولت شعبية حرة فعلاً في نزهة الأفكار ألغاها الخديو بعد عددها الثاني.

وإلى جانب الصحافة الشعبية وجدت أيضاً مجلة ثقافية أنشأها علي مبـارك هـى مجلة "روضة المدارس" في سنة ١٨٧٠م -وكان إذ ذاك مديراً لديـوان المـدارس- فهـى صحيفة ديوان المدارس تنفق عليها الحكومة، وكان الغرض من إنشائها النهوض باللغـة العربية وإحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة[٥]. وقد ابتعدت المجلة عن الناحيـة السياسـية كما تذكر المقدمة "وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى مـا يخص نشـر فـائدة علميـة ومحمدة أثرية مما يقع عليه الاختيار ولا ضرر فيه ولا ضرار فليـس مـن وظائفهـا تقييـد الأحوال السياسية الوقتية والأفعال الرئاسية و الإدارية". أمـا موضوعـات هـذه المجلـة وكتابها فقد ذكرت المقدمة أنه "قد تكفل لهـا عـدة مـن العلمـاء الأسـاتذة والفضـلاء الجهابذة بإمداد رسائل مؤلفـة جديـدة ونبـذ مصنفـة مفيـدة مـن فنـون وعلـوم مختلفـة

---

١ - الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج١، ص٦٩.

٢ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص٥٥.

٣ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج١، ص٢٦٣.

٤ - عبد اللطيف حمزة: الصحافة المصرية في مائة عام، ص٢٩.

٥ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٦١، ٦٢.

ومسامرات من مستحسن الحكايات والأخبار مقتطفة وبعض تراجم من لغات أجنبية واخراجها في قالب سهل من أساليب العربية، وصار كل منهم برسم عضو تأسيس يتشكل به جسم هذه الصحيفة مندوباً من طرف الديوان لرفع منارات شعائرها المنيفة"[١]. وقد كتب في هذه المجلة العديد من العلماء منهم أحمد أفندي نده ومجال تخصصه الطبيعة و الكيمياء[٢]، وعبد الله بك فكري ومجال تخصصه الأدب[٣]، والمسيو بروكش ناظر مدرسة اللسان المصري القديم ومجال تخصصه التاريخ القديم، وإسماعيل بك الفلكي ومجال تخصصه علم الفلك[٤]. وقد أسندت رئاسة هذه المجلة إلى رفاعة الطهطاوي ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس[٥]، وقد تولى تحرير مجلة روضة المدارس علي بك فهمي رفاعة -ابن رفاعة الطهطاوي- وكان مدرساً للإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن وقتئذ[٦]. وقد احتوت هذه المجلة إلى جانب بعض قصائد الشعر والقصص القصيرة والمقالات العلمية على مؤلفات هؤلاء العلماء تنشر فيها فصلاً فصلاً، حتى إذا اكتملت هذه الفصول كونت كتاباً مفيداً في أي علم من العلوم العملية أو الأدبية، ولم يظهر فهرست لهذه الموضوعات إلا ابتداء من العدد الثالث[٧]. وقد نشر في العدد

---

١ - روضة المدارس: السنة الأولى، العدد الأول، السبت ١٥ محرم ١٢٨٧هـ/١٧ إبريل ١٨٧٠م، ص٥، ٦.

٢ - دار الوثائق: دفتر ٤٢٧، ج٣، صادر الفروع والدواوين بديوان المدارس، ص٦٥، رقم٢٩٥. إلى أحمد أفندي نده خوجة الطبيعة والكيمياء في ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٨٦هـ/٢٠ مارس ١٨٧٠م.

٣ - دار الوثائق: دفتر ٤٢٧، ج٣، صادر الفروع والدواوين بديوان المدارس، ص٧٨، رقم٣٠٢: إلى حضرة عبد الله بك فكري في ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٨٦هـ/٢٢ مارس ١٨٧٠م.

٤ - روضة المدارس، السنة الأولى، العدد الأول، الست ١٥ محرم سنة ١٢٧٨هـ/١٧ إبريل ١٨٧٠م، ص٦.

٥ - دار الوثائق القومية: محفظة الوقائع المصرية، رقم٥ تعليم، العدد ٣٥٨، بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٨٧هـ/٢٣ مايو ١٨٧٠م.

٦ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج١، ص٢٤٦.

٧ - روضة المدارس: السنة الأولى، العدد الثالث، الاثنين ١٥ صفر سنة ١٢٨٧هـ/١٧ مايو ١٨٧٠م.

الأول من هذه المجلة على سبيل المثال بعض فصول من الكتب الآتية: "حقائق الأخبار في أوصاف البحار" لعلي باشا مبارك، و"آثار الأفكار ونثور الأزهار" لعبد الله بك فكري، و"الصحة التامة والمنحة العامة" لمحمد بدر أفندي مدرس علم الأمراض الباطنية بالمدرسة الطبية، و"المباحث البينات فيما يتعلق بالنبات" لمحمد أفندي ندا المدرس بالمدرسة الطبية[١] .

لقد كانت روضة المدارس ميداناً رحيباً من ميادين الفكر والأدب يتبارى فيه أولئك الأدباء والعلماء بموضوعاتهم الطريفة وأساليبهم الرفيعة في الأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات، وكانت تصدر حافلة بذلك مرتين في كل شهر، وكانت توزع مجاناً على التلاميذ فعودتهم ملكة المطالعة والبحث وفتحت صحائفها للنابغين منهم فكان ذلك يشجعهم ويدفع هممهم إلى البحوث والمجهودات المستقلة عن دروسهم[٢] ، وقد دأب علي باشا مبارك على أن يضم الكتاب للروضة حتى بعد صدورها[٣] ، كما أرسل الديوان إلى المدارس يطلب منها أن يبادر النظار والأساتذة بإرسال ما يرون نشره وذلك أولاً بأول لديوان المدارس ويقوم الديوان بإرساله للصحيفة[٤] . وليس أدل على قيمتها الأدبية والعلمية من أن يطلب قلم الوقائع من ديوان المدارس نسختين أو ثلاث منها مجاناً باسم العلم لأخذ بعض مواد منها لإعلانها

---

١ - روضة المدارس: السنة الأولى، العدد الأول، السبت ١٥ محرم سنة ١٢٨٧هـ/١٧ إبريل ١٨٧٠م.

٢ - إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، ص٦٢.

٣ - دار الوثائق: دفتر ٤٢٨، ج٤، صادر الفروع والدواوين بديوان المدارس، ص٩، رقم ٣٦٦، إلى حضرة مصطفى بك وهبي ناظر أقلام الداخلية في ٢٧ محرم سنة ١٢٨٧هـ/٢٩ إبريل ١٨٧٠م ؛ دفتر ٤٢٨، ج٤، ص٤٧، رقم ٣٨٠، إلى حضرة محمد أفندي عثمان مترجم ديوان بحرية بإسكندرية، في ٧ صفر سنة ١٢٨٧هـ/٩ مايو ١٨٧٠م.

٤ - دار الوثائق: دفتر ٤٢٨، ج٤، صادر الفروع والدواوين بديوان المدارس، ص٣٧، رقم ١٢٤، إلى مدرسة إسكندرية في ٧ صفر سنة ١٢٨٧هـ/٩ مايو ١٨٧٠م.

بصحف الوقائع المصرية[١]. وكانت الروضة تصدر مرتين في الشهر ويطبع من كل عدد منها ٣٥٠ نسخة[٢]، زيدت فيما بعد إلى سبعمائة[٣]. وقد استمرت الروضة في صدورها ثماني سنوات أفادت فيها أبناء الوطن فائدة جليلة فهى أول مجلة مصرية تعنى بالعلوم والآداب إلى جانب العناية بشئون المدرسين وأخبار الامتحانات والحفلات الخاصة بها وكذلك الإعلانات عن بيع الكتب وفتح المدارس. ولا شك أن وجود هذه المجلة في عصر إسماعيل، رغم ابتعادها كلية عن السياسة، فأنها كانت لها تأثيراتها الثقافية العميقة على تقديم جيل من القراء والدارسين والباحثين في عصر إسماعيل.

كان لاندلاع الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٧م أثر بعيد في تطور أمور الصحافة، إذ وردت الأنباء بتوالي الهزائم ضد الأتراك، وكانت الصحف الأوربية تصل إلى البلاد مليئة بأخبار الحرب، وطالع الأهالي فيها ما لم يكونوا يعرفونه عن البلاد التي كانت مسرحاً للقتال، ورأى المصريون أن الخديوي يصرح بإصدار الصحف العربية وصدرت خمس صحف في ذلك العام هى "حقيقة الأخبار، أبو نظارة زرقاء، الوقت، مصر، الوطن"، ثم طرأ تطور خطير في علاقة إسماعيل بالصحف إذ أطلق لها حرية الخوض في غمار الحرب حتى يجد تكأة يستند إليها للتخلص من بعض التزاماته تجاه الباب العالي[٤]، وكان أديب اسحق قد أصدر صحيفة مصر بناء على رأي جمال الدين الأفغاني وكان يرسم له خط السير فيها، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار

---

١ - دار الوثائق: دفتر ٤٣٣، ج٣، وارد بديوان المدارس، ص٢، رقم ١٨، من قلم الوقائع إلى ديوان المدارس، في ٣ صفر سنة ١٢٨٧هـ/٥ مايو ١٨٧٠م.

٢ - دار الوثائق: دفتر ٤٣٧، مدارس عربي، صادر ص١٩٣، رقم ٣٢٠، إلى ناظر الكتبخانة في ٧ صفر ١٢٨٨هـ/٢٨ إبريل ١٨٧١م.

٣ - عبد اللطيف حمزة: الصحافة المصرية في مائة عام، ص٢٠.

٤ - خليل صابات، سامي عزيز، يونان لبيب، حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨-١٩٢٤، ص٣٥، ٣٦.

هو "مظهر بن وضاح"، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية وأنشأ بها صحيفة يومية اسمها التجارة[١].

ولا نغفل أيضاً دور الشوام في النهضة الثقافية في عصر إسماعيل، وأول صحيفة صدرت منها هى الأهرام سنة ١٨٧٦م.

وكان إسماعيل يعتقد في أواخر عهده أن من الأفضل منح الصحافة حرية تامة لتساعده ضد التدخل الأجنبي، ولم يفكر قط في أن هذه الصحافة ستقوم بنقد تصرفاته الشخصية وإسرافه وطريقته في الحكم، وكانت الصحف في الوقت نفسه تهتم بالسياسة الخارجية، وقد أدى ذلك إلى تحطيم الحواجز والسدود أمام التفكير المصري السياسي ومكنه ذلك من متابعة الأحدث السياسة العالمية. وقد ترك إسماعيل الحرية للصحفيين في كتابة المقالات عندما كان يريد مساعدة من الصحافة، ولكنه ما يكاد يشعر بشيء من استعادة القوة أمام الدول الأوربية حتى يصدر أمره بمعاقبة الصحفيين، وإغلاق صحفهم[٢]. وقد صرح إسماعيل في مايو سنة ١٨٧٩م بأن مجلس النواب ينظر بعين الاعتبار لحرية الصحافة وأنها وسيلة الاتصال بالأهالي، وكذلك سيفتح مجلس الشورى أبوابه أمام أصحاب الصحف حتى تصبح أعمال ذلك المجلس ظاهرة أمام الناس، ولكن الظروف السياسية التي أدت إلى خلع إسماعيل وضعت حداً لتلك الغاية التي نادى بها إسماعيل قبل أن يوضع تحقيقها موضع التجربة.

ولكن على أية حال فإن الصحف تجاوزت في عهده الثلاثين صحيفة بين عربية وإفرنجية، وبين جريدة ومجلة، ومن بينها ما كان له مع الحكومة مواقفاً لتأييد أو المناهضة[٣]، وبالرغم من الصعاب الكثيرة التي واجهتها، وبالرغم من التوزيع الضئيل

---

١ - أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت ١٩٧٩م، ص٦٩.

٢ - سامي عزيز: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، القاهرة ١٩٦٨م، ص٢٤، ٢٥، ٢٩.

٣ - خليل صابات، سامي عزيز، يونان لبيب: حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨-١٩٢٤، ص٢٦، ٢٧، ٤٥.

للصحف الواقعة تحت رقابة شديدة، فإن نسخ الصحف كانت تتناولها الأيدي من يد إلى أخرى، وسرعان ما استطاع الأهالي معرفة ما يقرؤون بين السطور، مما أدى إلى نهضة ثقافية واسعة في عصر إسماعيل.

دار الكتب المصرية

يعتبر إنشاء دار الكتب المصرية من أهم الأعمال الثقافية في عصر إسماعيل، ويجدر أن نلقى ضوءاً على نظام حفظ الكتب في مصر قبيل إنشاء هذه الدار في سنة ١٨٧٠م.

فلتأسيس دار الكتب مقدمات ترجع إلى عهد محمد علي، وقد اجمع الكتاب على إن محمد علي أنشأ مستودعاً لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم خلف المسجد الحسيني[١]، وذلك عندما تكاثرت الكتب التي تم طبعها في المطبعة الأهلية[٢].

ومعنى ذلك إن هذا المستودع لم يكن سوى مكان لبيع مطبوعات الحكومة، ولكن بالرجوع إلى وثائق عصر محمد علي نجد إن التفكير في إنشاء دار الكتب يرجع إلى ذلك العصر، وان محمد علي كان يتعجل إنشاءها -والتي تقرر إنشاؤها- ويأمر بجمع الكتب المشتتة في مكان واحد لحفظها من الضياع، بل إنه رسم طريقة لحفظ هذه الكتب وطريقة أعارتها و إعادتها إلى مكانها وذلك في أمر له إلى مختار بك في ٣٠ ديسمبر ١٨٣٥م[٣]، ثم طلب محمد علي تحرير كشف بأسماء الكتب الواردة من

---

١ - عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج١، ص٢٤٦ ؛ الياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا، القاهرة ١٩٢٣م، مج١، ص٢٤١.

٢ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص١٠٠.

٣ - دار الوثائق: ملخصات ترجمة دفاتر معيه تركي، دفتر ٧١ معيه تركي، ترجمة الأمر العالي رقم ٦٥، بتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٥١هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٨٣٥م أمر كريم إلى مختار بك.

أوروبا[١]، والخاص منها بالفنون الحربية والبحرية[٢]، وقد أنشئت هذه المكتبة في تاريخ لاحق لهذه الإجراءات التي أمر بها محمد علي ونقلت الكتب الموجودة في خزينة الأمتعة إلى الكتبخانة الجديدة[٣]. وكانت هذه الدار تابعة لديوان المدارس[٤].

يتضح من ذلك أن هذا المستودع -الذي ذكر الكتاب أنه لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم خلف المسجد الحسيني- لم يكن سوى دار الكتب التي أنشأها محمد علي واستمرت إلى عصر إسماعيل، والدليل على ذلك أن وثائق عصر عباس الأول تذكر هذه المكتبة في نفس المكان بجوار مسجد سيدنا الحسين، "بما أنه يوجد في مكتبة خزينة أمتعتنا بعض كتب موقوفة وردت إليها من جهات فتقضي إرادتنا أن تفرزوا أمثال هذه الكتب الموقوفة على أن توضع في المكتبة الكائنة بجوار مسجد سيدنا الحسين ووضعها في مكان مأمون بالمكتبة المذكورة وتقرير نظام حسن يكفل وقايتها من التلف والضياع بإعارتها إلى هنا وهناك وآنا أبلغناكم إرادتنا هذه للعمل على تنفيذها"[٥].

ونستخلص من النص السابق انه كانت هناك بالفعل دار للكتب وكانت تعير الكتب، وان لم نجد ما يؤيد هذا الرأي، إلا أن إصرار عباس كما جاء في النص السابق

---

١ - دار الوثائق: ملخصات ترجمة معية تركي، دفتر رقم ٧١ معية تركي، ترجمة الأمر العالي رقم ٧١، بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٥١هـ/ ٣١ ديسمبر ١٨٣٥م. من الجناب العالي إلى مطوش بك.

٢ - دار الوثائق: ملخصات ترجمة دفاتر معية تركي، دفتر ٧١ معية تركي، ترجمة الأمر العالي رقم ٧٠، بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٥١هـ/ ٣١ ديسمبر ١٨٣٥م. من الجناب العالي إلى بوغوص بك.

٣ - دار الوثائق: محفظة ١١٤ أبحاث، دفتر ٨١ معية تركي، ترجمة الأمر العالي رقم ٣١٩، بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٥٣هـ/١١ إبريل ١٨٣٧م. من الجناب العالي إلى باقي بك.

٤ - دار الوثائق: محفظة ١١٤ أبحاث، دفتر ٣٩٧ معية تركي، ترجمة الوثيقة رقم ٦٦ مسلسلة، بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٦١هـ/١٥ يناير سنة ١٨٤٥م. إفادة من ديوان المدارس إلى المعية السنية.

٥ - دار الوثائق: محفظة ١١٤ أبحاث، دفتر ٤٨٠ معية تركي، صادر ص٤٣، ترجمة الأمر العالي رقم ٢٤/٢٧٢ مسلسل/ أصلي، بتاريخ غاية المحرم ١٢٦٨هـ/٢٥ نوفمبر ١٨٥١. من الجناب العالي إلى الباشا الكتخدا.

بإيقاف إعارة الكتب خوفاً عليها من الضياع يؤكد هذا الرأي، أي أنها كانت تتبع نظام الإعارة، وإن كان ذلك في حدود ضيقة. وقد استمرت دار الكتب القديمة هذه -أن صح هذا التعبير- إلى عصر إسماعيل، وان أوقف نظام الإعارة بها منذ عصر عباس، حتى أصبحت أشبه بمخزن لحفظ الكتب من الضياع.وقد أضاف إسماعيل إلى هذه الدار القديمة -أو الكتبخانة كما كان يطلق عليها- نحو ألفي مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسية، اشتراها من تركة حسن باشا المانسترلي أحد كبار رجال عباس الأول[1].

ومن هذه الكتبخانة القديمة التي قامت في عصر محمد علي واستمرت إلى عصر إسماعيل، و من تركة حسن باشا المانسترلي من الكتب تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب.

والواقع إن أول من فكر في إنشاء دار جديدة للكتب هو علي مبارك، و بدأ تفكيره أولاً في إنشاء مكتبة للمعلمين للاستعانة بها على التعليم، ثم تطورت إلى دار عامة للكتب، حيث.يقول في خططه "ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما في مدارس البلاد الأجنبية، أنشئ محل بجوار المدارس من داخل سراي درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض، وصرف عليه من مربوط المدارس فجاء محلاً متسعاً يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم، وقد كان الخديوي إسماعيل يرغب في إنشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة في الجهات الميرية وجهات الأوقاف في المساجد ونحوها وأمرني بالنظر في ذلك فوضعت له المحل الذي أنشئ فعين لمعاينته جماعة من الأمراء و العلماء فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة"[2].

١
- إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل،.مج١، ص٢٤١.

٢
- علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة، ج ٣، ٩ القاهرة ١٣٠٦هـ، ج٩، ص٥١.

يفهم من هذا النص رغبة إسماعيل في إنشاء دار عامة للكتب وان سبقه علي مبارك إلى هذا التفكير فأنشأ مكاناً داخل سراي درب الجماميز يرجع إليه المعلمون زاد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم، وحينما التقت وجهات النظر بين علي مبارك و إسماعيل تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب.

ولكني أرجح أن فكرة إنشاء دار الكتب هذه إنما ترجع إلى علي مبارك وحده متأثراً بالثقافة الغربية وخاصة فرنسا، مما جعله يفكر في إنشاء تلك الدار أسوة بما شاهده في فرنسا، و اعتمادنا في ذلك على نص واضح يقول فيه "ظهر لي أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية أضاهي بها كتبخانة مدينة باريز فاستأذنت الخديو إسماعيل باشا في ذلك فأذن لي"[١].

ورغم وضوح هذا النص من أن علي مبارك قد عرض على الخديوي إسماعيل إنشاء دار للكتب، إلا أن بعض الكتاب يعزون إنشاء هذه المكتبة إلى إشارة بذلك صدرت من السلطان عبد العزيز إلى إسماعيل وأنه حينما زار مصر[٢]، وذلك في سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م[٣]، وشاهد مساجدها وآثارها ورأى الكتب العديدة من مخطوطات ومطبوعات مبعثرة في خزاناتها، أشار على إسماعيل بإنشاء مكتبة عامة تجمع شتاتها، ليستفيد الناس بمطالعتها، وأن هذه الإشارة وقعت وقعاً جميلاً من نفس إسماعيل[٤].

ونحن لا نوافق تماماً على هذا الرأي، بل نرى أن علي مبارك هو صاحب فكرة إنشاء دار الكتب وأن هذه الفكرة راودته بعد زيارة قصيرة لفرنسا أطلع فيها على معالم تلك المدينة، فقال في خططه "وفي شهر جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين أحيلت

---

١ - علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٣، ص١٤.

٢ - إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، مج١، ص٢٤١.

٣ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص١٠٠.

٤ - إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، مج١، ص٢٤١.

إلى وكالة ديوان المدارس .. وبعد قليل انتدبني الخديوي إسماعيل للسفر إلى باريس في مسألة تخص المالية، فكانت مدة غيابي ذهاباً وإياباً وإقامتي بها خمسة وأربعين يوماً، وكانت سفرة مفيدة اغتنمت فيها فرصة الإطلاع على ما بهذه المدينة وتفقد من المدارس والمكاتب الجمة واستحوذت على فهارس تعليماتهم والإطلاع على كتبهم المطبوعة هناك"[1].

وأعتقد أن هذه الزيارة كانت دافعاً له للتفكير في إنشاء دار للكتب يضاهي بها مكتبة باريس على حد قوله، وخاصة لما كان يراه في مصر من الإهمال في حفظ الكتب، وافتتحت هذه الدار بعد أقل من ثلاث سنوات من هذه الزيارة (رجب سنة ١٢٨٧هـ/أكتوبر ١٨٧٠م)، أما قول علي مبارك نفسه بأنه فكر في إنشاء هذه الدار بناء على أمر الخديوي إسماعيل فيعتبر نوعاً من التقرب إلى الخديوي خصوصاً و قد عهدنا علي مبارك يميل دائماً إلى إرضاء الحكام.

على أية حال فإنه بعد صدور الأمر بإنشاء الكتبخانة الخديوية كلف علي مبارك الشيخ "راشد أفندي شيخ رواق الأتراك ونائب المحكمة الشرعية" في ذلك الوقت بتجميع كتب مساجد الأوقاف، وذلك بجمعها من مكاتب المساجد في مكان واحد، حتى إذا فرغ من ذلك، أمر السيد "علي الببلاوي" فقام بتصنيفها وترتيبها ووضعها في الأمكنة التي أعدت لها في الكتبخانة[2]، التي أختير مقراً لها الطابق الأسفل "البدروم" من سراي مصطفى فاضل بدرب الجماميز، وهو القصر الذي كان يشغله في ذلك الوقت "ديوان نظارة المعارف" كما قام علي مبارك بجمع المخطوطات التي سبق أن أوقفها السلاطين و الأمراء والعلماء على المدارس ومعاهد العلم[3]. وكذلك

١
- علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٩، ص٤٩.

٢
- محمد عبد الجواد: تقويم دار العلوم، العدد الماسي لمرور ٧٥ عاماً على المدرسة ١٨٧٢-١٩٤٨م، القاهرة د.ت.، ص٤.

٣
- دار الكتب: دار الكتب في عهد الثورة، يوليو ١٩٥٢، يوليو ١٩٦٤م. القاهرة ١٩٦٤م، ص٥.

أدمج دار الكتب القديمة في دار الكتب الجديدة حتى صارت عدد مجلداتها نحو ثلاثين ألف مجلد، كما أقام معرضاً للآلات الطبيعية وغيرها من أدوات العلوم الرياضية لكي يتمرن عليها التلاميذ حتى تكون معلوماتهم مبنية على المشاهدة والاختبار[١]، ويقول علي مبارك في ذلك في خططه "ولأجل تمام الفائدة ألحقت بهذا المحل محلاً للآلات وغيرها من آلات العلوم والرياضة اللازمة للمدارس وصرف لمشترى تلك الآلات نحو أربعة آلاف جنيه[٢].

وبعد أن أتم علي مبارك إنشاء هذه الكتبخانة الجامعة عرض على الخديوي ما أتمه من أعمال وطلب إحالة الكتبخانة على عهدة ديوان الأوقاف على أن تبقى تحت نظارة مدير المدارس وذلك حتى لا يطرأ على الكتب الموقوفة على ذمة الأوقاف أدنى تبديل ولا تغيير، وأن لا تكون هذه الإحالة قاصرة على كتب الأوقاف وحدها بل جامعة لكافة ما يدخل بها من سائر كتب الكتبخانة القديمة وكتبخانتي الأشغال والمدارس وغيرها مع ما يرد إليها تباعاً من الكتب بأي نوع وأي لغة من أي جهة وتكون جميعها تابعة لديوان الأوقاف وموقوفة من طرف الخديوي على المنفعة العامة.

ويرى علي مبارك أن بقاءها تحت نظارة مدير المدارس فذلك لوجود قاعة للمحاضرات العامة يقبل فيها كل من أراد الاستماع إلى تلك المحاضرات[٣].

وقد وافق الخديوي على ما طلبه علي مبارك وأصدر أمراً بذلك وأصبحت الكتبخانة تابعة لديوان الأوقاف وتحت نظارة مدير المدارس، كما ألحق بها محل

---

١ - جرجي زيدان: مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، جزءان، القاهرة ١٩٠٢، ١٩٠٣م، ج٢، ص٣٧.

٢ - علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٩، ص٥١.

٣ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٧، بتاريخ ٤ رجب سنة ١٢٨٧هـ/٢٩ سبتمبر ١٨٧٠م، من مقدمة قانون الكتبخانة الخديوية.

للتدريس العمومي "قاعة للمحاضرات العامة"[١]. وقد قام الخديوي بزيارة الكتبخانة في إبريل ١٨٧٠م وذلك قبل افتتاحها بعدة أشهر وسر كثيراً من حسن النظام ولاشتمالها على المؤلفات المطبوعة وجميع المخطوطات النفيسة والتي كانت متفرقة في المساجد القديمة[٢] ولا ريب أن تجميع الكتب والمخطوطات في مكان واحد مما يسهل عمل الباحثين والكتاب، ويعد في هذا الوقت في حد ذاته عملاً يدعو إلى الإعجاب.

وقد اجتمعت لجنة بديوان المدارس وذلك لوضع قانون بشأن موظفي الكتبخانة وطريقة القراءة والاستعارة وذلك برئاسة علي مبارك وعضوية: وكيل ديوان الأوقاف ووكيل ديوان المدارس، وناظر قلم الهندسة بديوان الأشغال، ووكيل إدارة المدارس، ومفتي ديوان الأوقاف وشيخ الجامع الشريف بالقلعة ومأمور فرز كتبخانة الأوقاف وناظر الكتبخانة الخديوية المصرية[٣]. وقد اشتمل هذا القانون[٤] على ثلاثة فصول: الأول يختص بموظفي الكتبخانة ومسئولياتهم، والثاني يختص بالقراءة والكتابة بداخل الكتبخانة و الشروط الواجبة في القراء والمستعيرين، والثالث خاص بالخرائط والرسوم، ويقع هذا القانون في ثلاثة وثمانين مادة، وتوضح المادة الأولى تقسيم الكتبخانة إلى أربعة أقسام واضحة حسب مكانها ووضعها طبقاً لما يلي:

أولاً: الكتب المطبوعة عربية كانت أو أجنبية والخرائط.

ثانياً: الكتب المنسوخة بخط اليد.

---

١ - دار الوثائق: دفتر ١٩٣٤ أوامر عربي، صادر رقم ٦٦، ص٣٥، بتاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٨٦هـ/٢٣ مارس ١٨٧٠م، إلى ناظر ديوان عموم الأوقاف.

٢ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٥٢، ٩ محرم ١٢٨٧هـ/١٠ إبريل ١٨٧٠م.

٣ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٨١، ٢ شعبان ١٢٨٧هـ/٢٧ أكتوبر ١٨٧٠م.

٤ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، وقد نشر هذا القانون تباعاً في الأعداد التالية من الوقائع المصرية: العدد ٣٧٧، ٤ رجب ١٢٨٧هـ/٢٩ سبتمبر ١٨٧٠م ؛ العدد ٣٧٨، ١١ رجب ١٢٨٧هـ/٦ أكتوبر ١٨٧٠م ؛ العدد ٣٧٩، ١٨ رجب ١٢٨٧هـ/١٣ أكتوبر ١٨٧٠م ؛ العدد ٣٨٠، ٢٥ رجب ١٢٨٧هـ/٢٠ أكتوبر ١٨٧٠م ؛ العدد ٣٨١، ٢ شعبان ١٢٨٧هـ/٢٧ أكتوبر ١٨٧٠م.

ثالثاً: أرانيك الآلات (نماذج).

رابعاً: الآلات الهندسية والطبيعية والكيماوية.

وينص القانون على فتح الكتبخانة في جميع أيام السنة ما عدا أيام الجمع والمواسم والأعياد[١] وأن مدة المطالعة لا تزيد على ست ساعات وذلك على فترتين متساويتين قبل الظهر وبعده[٢]. وجعل لكل قسم من أقسام الكتبخانة معاون ومغير للكتب وفراش[٣].

وقد حرص علي مبارك على اختيار الموظفين الأكفاء للكتبخانة وجعل تعيينهم وفصلهم بمعرفة مدير المدارس[٤]، كما شكل مجلس من ناظر دار الكتب ووكيلها ومغيرين الكتب بالأقسام واختص هذا المجلس بالبحث في حل ما يواجه الكتبخانة من مشكلات والعمل على حسن انتظام العمل فيها، وكان هذا المجلس يعقد كل شهر مرة، طبقاً لما جاء في القانون المشار إليه[٥] وحرص علي مبارك على إثبات "موجودات الكتبخانة" فعلى الكاتب تحرير دفتر واضح البيان بذلك وعليه تسجيل كل ما يستجد بها[٦]، وحفاظاً على الكتب فقد نص القانون على أن يقوم المعاونون بختم جميع الكتب والخرائط والمخطوطات والرسوم الواردة إلى أقسامهم بختم الكتبخانة الخديوية المصرية

---

[١] - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٧، ٤ رجب ١٢٨٧هـ/٢٩ سبتمبر ١٨٧٠م، المادة ٤ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

[٢] - نفسه: المادة ٥، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

[٣] - نفسه: المادة ٦، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

[٤] - نفسه: المادة ٧، من الكتبخانة الخديوية المصرية.

[٥] - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٨، ١١ رجب ١٢٨٧هـ/٦ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ١٢ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

[٦] - نفسه: المادة ١٣، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

قبل دخولها[١]. ونص القانون على عدم دخول خدمة القسم المشتمل على الآلات لتأدية أعمالهم إلا مع أحد المعاونين[٢]، وذلك حتى لا تتعرض هذه الآلات لأي سوء.

وحفاظاً على الكتب فقد جعلت تذاكر "بطاقات" بتوقيع ناظر الكتبخانة لكل من يريد الخروج بكتاب، وعند انتهاء العمل يقوم العامل المنوط به المحافظة على أبواب الكتبخانة الخارجية بجمع هذه البطاقات في نفس اليوم ويسلمها للناظر[٣].

وقد حرص علي مبارك على الكتب النفيسة المنسوخة بخط اليد وجعل قراءتها بإذن خاص[٤]، كما منع استعارة الرسوم والصور الموجودة بالكتبخانة، وذلك قبل جمعها وتجليدها[٥]، وجعل القانون يومي الاثنين والخميس لمن يريد التفرج على الكتبخانة، إلا إذا وجد مانعا لذلك[٦]، أما من يتردد عليها فيجب أن يكون معه بطاقة يأخذها من الناظر مشتملة على اسمه ووظيفته ومحل سكنه وذلك بالنسبة لأبناء الوطن، أما الأجانب فعليهم أن يأتوا بتوصية من أحد الأعيان المعروفين، وفي تلك الحالة تصرف لهم بطاقات[٧]. وقد ترك القانون لمعاوني أقسام الكتبخانة عند الضرورة أن يعفوا الأجانب من هذه الوصايا إذا تحققت عندهم معرفة كل من تردد من هؤلاء

---

١ – دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٨، ١١ رجب ١٢٨٧هـ/٦ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ١٧ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٢ – نفسه: المادة ٢٧، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٣ – نفسه: المادة ٣٣، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٤ – نفسه: المادة ٤١، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٥ – نفسه: المادة ٤٣، من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٦ – دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٨، ١١ رجب ١٢٨٧هـ/٦ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ٤٧ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٧ – دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٩، ١٨ رجب ١٢٨٧هـ/ ١٣ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ٥١ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

الأجانب[١]. ونص القانون على أن يحافظ القراء على الهدوء داخل المكتبة[٢]، كما منعهم من وضع ما يكتبون فيه أو يرسمون عليه فوق ما يعطى لهم من "موجودات الكتبخانة"[٣]، كما منعهم من شرب الدخان في أي جهة من جهات الكتبخانة[٤]، وسمح للقارئ الإطلاع على خمسة مجلدات في اليوم[٥].

ومنع القانون القراء من نسخ الكتب المنسوخة بخط اليد أو أخذ هذا المخطوط لطبعه إلا بإذن من مدير المدارس[٦]، وإذا كان هذا النسخ بغرض طبعه أو أخذ النسخة نفسها لطبعها فعليه في الحالتين توريد نسختين منه بعد الطبع إلى الكتبخانة[٧]. وأما بالنسبة للخرائط والرسوم والأشكال فنص القانون على عدم استنساخ شيء منها إلا بعد إذن ناظر الكتبخانة وذلك بعد الحصول على إذن مدير المدارس وأن لا يستعمل في حالة الموافقة سوى الأقلام الرصاص والورق النباتي[٨]، ومنع القانون[٩] إعارة هذه الرسوم والخرائط خارج الكتبخانة. ونص القانون على إعارة الكتب المطبوعة إذا كان

---

١ – نفسه: المادة ٥٢ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٢ – نفسه: المادة ٥٦ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٣ – نفسه: المادة ٥٨ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٤ – نفسه: المادة ٦٠ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٥ – دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٩، ١٨ رجب ١٢٨٧هـ/١٣ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ٦٣ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٦ – دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٨٠، ٢٥ رجب ١٢٨٧هـ/٢٠ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ٦٨ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٧ – نفسه: المادة ٦٩ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٨ – نفسه: المادة ٧١ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٩ – دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٨١، ٢ شعبان ١٢٨٧هـ/٢٧ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ٧٥ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

منها نسختان على الأقل، على ألا تكون من الكتب الغالية الثمن ولا من القواميس ولا من إعداد الوقائع والجرائد ولا من المجلدات أو المؤلفات المحتوية على خرائط[١]. أما بالنسبة للكتب المنسوخة بخط اليد فيجوز إعارتها إلا إذا كانت من الكتب النادرة أو كانت بخط مؤلفها أو مشتملة على رسوم[٢]. ولا يجوز للشخص استعارة أكثر من مجلد في المرة الواحدة إلا بعد الحصول على تصريح من مدير المدارس[٣]، وتحدد المدة المحددة للإعارة في دفتر خاص بالكتب المستعارة ولا تمد هذه المدة لأكثر من شهر ولناظر الكتبخانة أن يطلب هذه الكتب قبل مضي هذه المدة لصالح القراء وإن رفض المستعير يشطب اسمه من دفتر الاستعارات[٤]، وكل من رد كتاباً واتضح أنه أتلف منه شيئاً فهو ملزم باستبداله فإن تعذر عليه ذلك يدفع ثمنه[٥].

تلك هي بعض ما ورد من مواد ذلك القانون الذي سنه علي مبارك ليحفظ تراث مصر القومي من المؤلفات والمخطوطات، وليسهل للقراء الجو الملائم للبحث العلمي، وقد صدر هذا القانون في غرة جماد أول ١٢٨٧هـ/٣٠ يوليه ١٨٧٠م. وما أن سن هذا القانون وأكملت دار الكتب حتى ظهر الإعلان الآتي في مجلة روضة المدارس عن قرب افتتاح دار الكتب "انه بناء على ما استقر عليه قرار سعادة مدير المدارس المصرية وناظر الأوقاف الخيرية وبأوامر سعادة السنية أن يكون من المعلوم العلم التام للخاص والعام أنه من ابتداء يوم الاثنين غرة شهر رجب الفرد القابل سنة

---

١ - نفسه: المادة ٧٦ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٢ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٨١، ٢ شعبان ١٢٨٧هـ/٢٧ أكتوبر ١٨٧٠م، المادة ٧٧ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٣ - نفسه: المادة ٨٠ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٤ - نفسه: المادة ٨١ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

٥ - نفسه: المادة ٨٢ من قانون الكتبخانة الخديوية المصرية.

١٢٨٧ هجرية (١٨٧٠/٩/٢٦م) سيصير افتتاح الكتبخانة المصرية المؤسسة بالعناية الخديوية بسراي درب الجماميز بداخل ديوان المدارس والأوقاف والأشغال العمومية بقاهرة مصر المحمية، بحيث يباح لأي أحد أياً كان الدخول فيها والانتفاع بها قراءة ومراجعة واستعارة واستنساخاً في الأوقات المعينة بكل يوم أو لمجرد التفرج عليها في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع على حسب الأصول المقررة في قانونها المطبوع لها ولأجل أن يكون ذلك معلوماً لكل إنسان لزم الإعلان في غرة جمادى الثانية سنة ١٢٨٧ هجرية"[١].

وفي سنة ١٨٧٦م أضاف الخديوي إسماعيل إلى هذه المكتبة مكتبة أخيه مصطفى فاضل باشا بعد وفاته بالأستانة سنة ١٨٧٦م. وتبلغ هذه المكتبة ٣٤٥٨ مجلداً كلها من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب[٢]، وذكرت بعض المراجع أن عدد مجلداتها بلغ ٣٣٠٥[٣]، وقد اشتراها إسماعيل بثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات وأهداها إلى المكتبة الخديوية[٤]. لقد كانت هذه الكتب وما جمع من المساجد والأضرحة، النواة الأولى لدار الكتب المصرية من المجموعات العربية والشرقية، وتكونت نواة الكتب الإفرنجية في عهد إسماعيل سنة ١٨٧٣م، مما أهدته الجمعية المصرية التي كونها بعض العلماء الأجانب بمصر سنة ١٨٣٦م[٥]. وقد ظلت تتزايد مقتنيات دار الكتب عاماً بعد عام وتمتلئ بالقراء والمستعيرين، ولا شك أنها كانت شعلة للمعرفة أضاءت بنورها الحياة الثقافية في مصر في عهد إسماعيل.

---

١ - روضة المدارس: السنة الأولى، العدد الحادي عشر، الأحد ١٥ جماد ثان ١٢٨٧هـ/١٢ سبتمبر ١٨٧٠م، ص٢.

٢ - دار الكتب المصرية: نبذه وجيزة عن دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٩م، ص١٤.

٣ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص١٠١.

٤ - إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، مج١، ص٢٤١.

٥ - وزارة المعارف العمومية: إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، ص٣٩٠.

قاعة المحاضرات العامة

يرجع التفكير في إنشاء قاعة للمحاضرات العامة في عصر إسماعيل إلى علي مبارك، وذلك أثناء إنشائه لدار الكتب، وهذا ما دعاه بعد أن أتم إنشائها أن يطلب من الخديوي أن تكون دار الكتب تحت نظارة مدير المدارس[١]، ووافقه الخديوي على طلبه وألحق بدار الكتب محل للتدريس العمومي "قاعة المحاضرات العامة" وجعل دار الكتب تحت نظارة مدير المدارس وإن كانت تابعة لديوان الأوقاف[٢].

وقد عرفت قاعة المحاضرات العامة بأسماء مختلفة كمدرسة الكتبخانة أو محل التدريس أو دار العلوم أو المدرج أو الانفتياتر[٣]. على أن هذه القاعة ظلت بعد افتتاح دار الكتب مكاناً للاحتفال فيه بالامتحانات وتوزيع الهدايا على التلاميذ، وكان علي مبارك يحضر بنفسه هذه الاحتفالات[٤]. وكانت هذه القاعة تظل خالية بعد الامتحانات العامة في سائر شهور السنة[٥]، فأعد علي مبارك عدته للاستفادة من هذه القاعة في إلقاء الدروس العامة. فاستأذن الخديوي في تسميته محل التدريس العام بدار العلوم مع تعيين من يلزم للتدريس بهذه القاعة من أفاضل العلماء في جميع الفنون وذلك لإفادة من يريد الاستفادة ولتعليم تلاميذ المدارس المتقدمين فيها ويكون لهم استعداد ليصبحوا مدرسين بعد ذلك، ويكون هؤلاء التلاميذ دائمين وينضم عليهم من يحضر من الخارج والأهالي والأجانب لمجرد الحضور في بعض الأوقات، وقد وافق

---

١ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية ٨، الوقائع المصرية، العدد ٣٧٧، ٤ رجب ١٢٨٧هـ/٢٩ سبتمبر ١٨٧٠م.

٢ - دار الوثائق: دفتر ١٩٣٤ أوامر عربي، صادر رقم٦٦، ص٣٥، ٢٠ ذي الحجة ١٢٨٦هـ/٢٣ مارس ١٨٧٠م، إلى ناظر ديوان عموم الأوقاف.

٣ - حسين فوزي النجار: علي مبارك أبو التعليم، القاهرة ١٩٦٧م، ص١٠٣.

٤ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية رقم ٥ تعليم، الوقائع المصرية، العدد ٣٩٠، ١٣ شوال ١٢٨٧هـ/٥ يناير ١٨٧١م.

٥ - وزارة التربية والتعليم: إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، ص٣٨٧.

الخديوي على ما طلبه علي مبارك[١]، ورتبت هذه الدروس في ربيع الثاني ١٢٨٨هـ/ يوليو ١٨٧١م[٢]. واختير لهذه القاعة عدد من الأساتذة يحاضرون في الأدب والتفسير والحديث والفقه والفلك والطبيعة والعمارة والسكك الحديدية والتاريخ والنبات[٣].

وسمح بحضور كل من أراد بدون قيد أو شرط[٤]، وكان يحضر هذه الدروس كبار موظفي الحكومة وخاصة موظفي نظارة المعارف وطلبة المدارس العالية وفريق من طلبة الأزهر[٥]، كان علي مبارك قد طلب من شيخ الأزهر اختيار عشرة من نجباء الطلبة بالأزهر يحضرون بعض دروس دار العلوم العربية والشرعية -ولهم الحق في حضور الدروس الأخرى كالفلك والطبيعة- على أن يختار منهم المدرسون عند الحاجة، وقد وافق شيخ الجامع الأزهر على طلب علي باشا مبارك[٦].

أما أسماء المدرسين وأوقات محاضراتهم فقد تعين الشيخ "حسين المرصفي"، لتدريس علوم الأدب وكانت محاضراته يومي الأحد والأربعاء ودرسه يبدأ من الساعة الثامنة إلى العاشرة، و"إسماعيل بك الفلكي" وتعين لتدريس علم الفلك باللغة العربية يوم الثلاثاء في نفس الوقت المذكور، و"منصور أحمد أفندي"، وتعين لقراءة علم الطبيعيات مع التجاريب على الآلات باللغة العربية يوم السبت في الوقت المذكور[٧].

١
- دار الوثائق: دفتر ١٩٣٦ أوامر، ص٤، رقم ٦، أمر إلى ديوان الأوقاف في ٩ ربيع ثان ١٢٨٨هـ/٢٨ يونيه ١٨٧١م.

٢
- أمين سامي: التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤، ١٩١٥، القاهرة ١٩١٧م، ص٢٣.

٣
- دكتور حسين فوزي النجار: علي مبارك أبو التعليم، ص١٠٣.

٤
- دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية رقم٥ تعليم، الوقائع المصرية، العدد ٤١٤، ١١ ربيع ثان ١٢٨٨هـ/٢٩ يونيو ١٨٧١م.

٥
- عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج١، ص٢٤٧.

٦
- محمد عبد الجواد: تقويم دار العلوم، ص٧.

٧
- دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية رقم ٥ تعليم، الوقائع المصرية، العدد ٤١٤، ١١ ربيع ثان ١٢٨٨هـ/٢٩ يونيو ١٨٧١م.

وكان إسماعيل بك الفلكي ناظراً للمهندسخانة ومنصور أحمد أفندي مدرساً بها[١]، كما تعين المسيو "ويدال" لتدريس فن السكك الحديدية باللغة الفرنسية، وذلك يومي السبت والاثنين ودرسه يبدأ من الساعة الثالثة والنصف حتى الخامسة، كما تعين "فرانس بك" لتدريس فن الأبنية باللغة الفرنسية يومي الأحد و الثلاثاء في نفس الوقت المذكور، ومسيو "جيجون بك" لتدريس فن الآلات البخارية باللغة الفرنسية يوم الأربعاء في الوقت المذكور، ومسيو "بروكش" لقراءة التاريخ العمومي باللغة الفرنسية يوم الخميس في الميعاد المذكور[٢]. وكان مسيو ويدال ناظراً لمدرسة الإدارة والألسن أما فرانس بك فكان مدرساً بالمهندسخانة، ومسيو جيجون بك فكان ناظراً لمدرسة العمليات، أما مسيو بروكش فكان ناظراً لمدرسة اللسان المصري القديم، ويذكر الأستاذ أمين سامي أن دروس هؤلاء الأساتذة كانت تترجم إلى العربية[٣]. وقد أضيف إلى هؤلاء الأساتذة بعد ذلك الشيخ "عبد الرحمن البحراوي" لقراءة الفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان يومي السبت والاثنين من الساعة الثامنة، كما تعين الشيخ "أحمد المرصفي شرف الدين" يومي الثلاثاء والخميس من الساعة الثامنة[٤]، وقد تعين أحمد المرصفي بعد أن طلب علي مبارك من شيخ الجامع الأزهر تعيين بعض العلماء للتدريس بدار العلوم[٥]، كما أنضم إلى أساتذة قاعة المحاضرات العامة المسيو "بكنيت" لتدريس علوم الطبيعيات مع شرح الآلات باللغة الفرنسية، والمترجم "أحمد أفندي منصور" بقاعة الطبيعيات وذلك يوم الأربعاء من العاشرة إلى الحادية عشر، وكذلك

---

١ - أمين سامي: التعليم في مصر، ص٢٤.

٢ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية رقم ٥ تعليم، الوقائع المصرية، العدد ٤١٤، ١١ ربيع ثان ١٢٨٨هـ/٢٩ يونيو ١٨٧١م.

٣ - أمين سامي: التعليم في مصر، ص٢٤.

٤ - دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية رقم ٥ تعليم، الوقائع المصرية، العدد ٤١٧، ٢ جماد أول ١٢٨٨هـ/٢٠ يوليو ١٨٧١م.

٥ - محمد عبد الجواد: تقويم دار العلوم، ص٧.

"أحمد أفندي نده" مدرس علم النباتات بمدرسة الطب لتدريس علم النباتات مع استحضارها وذلك يوم الخميس من التاسعة إلى العاشرة[١] . وفي نهاية هذه الدروس عقد امتحان عام بين الطلبة الذين سبق اختيارهم من طلبة الأزهر لحضور دروس دار العلوم، وذلك إلى جانب من يريد الامتحان العام، وكانت مدة الامتحان ثلاثة أيام[٢] .

تلك هى قاعة المحاضرات العامة التي أراد بها علي مبارك أن يقدم لبني وطنه ثقافة كاملة عن طريق محاضرات تعطى في كل علم من العلوم، وترك باب القاعة مفتوحاً ليدخله كل متعطش للعلم فيرتوي على يد كبار أساتذة العصر. ولكن حاجة المدارس والمكاتب للمعلمين، جعلت علي مبارك يفكر في أن يتخذ من قاعة المحاضرات هذه منبعاً لتخريج المعلمين. فمن هؤلاء التلاميذ العشر الذين اختيروا من الأزهر ومن محاضري دار العلوم كانت النواة لإنشاء أكبر معهد علمي في عصر إسماعيل وهى "مدرسة دار العلوم". كان من أثر هذا الاتجاه الثقافي العام، أن صدرت العديد من المؤلفات في الفنون المختلفة، تقف شاهدة على الحياة الثقافية في عصر إسماعيل.

١
- أمين سامي: التعليم في مصر، ص٢٤.

٢
- دار الوثائق: محفظة الوقائع المصرية رقم ٥ تعليم، الوقائع المصرية، العدد ٤٢٦، ١٨ رجب ١٢٨٨هـ/٣ أكتوبر ١٨٧١م.

Figure 12

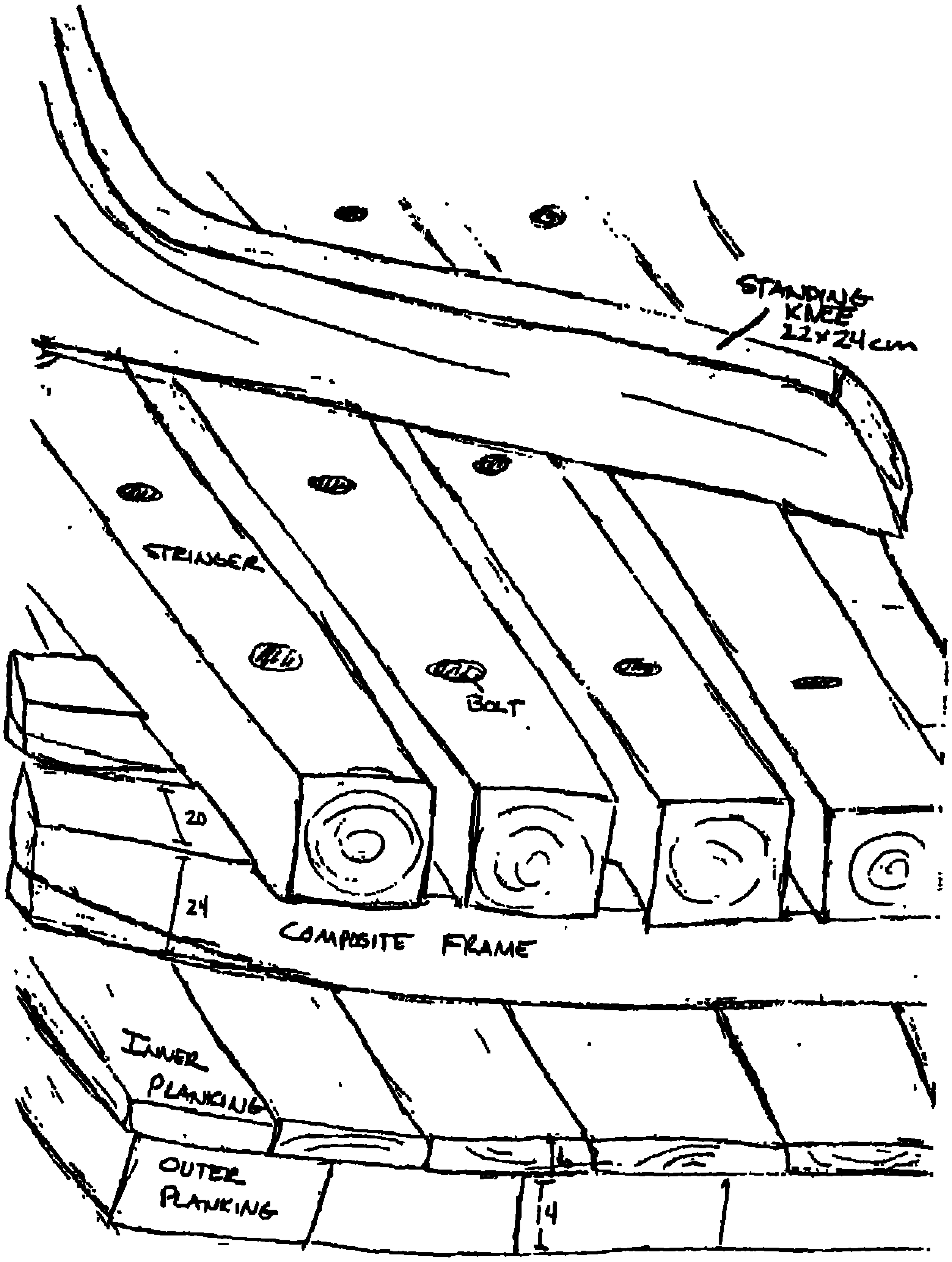
STANDING KNEE 22x24cm
STRINGER
BOLT
20
24
COMPOSITE FRAME
INNER PLANKING
OUTER PLANKING
14

Figure 11

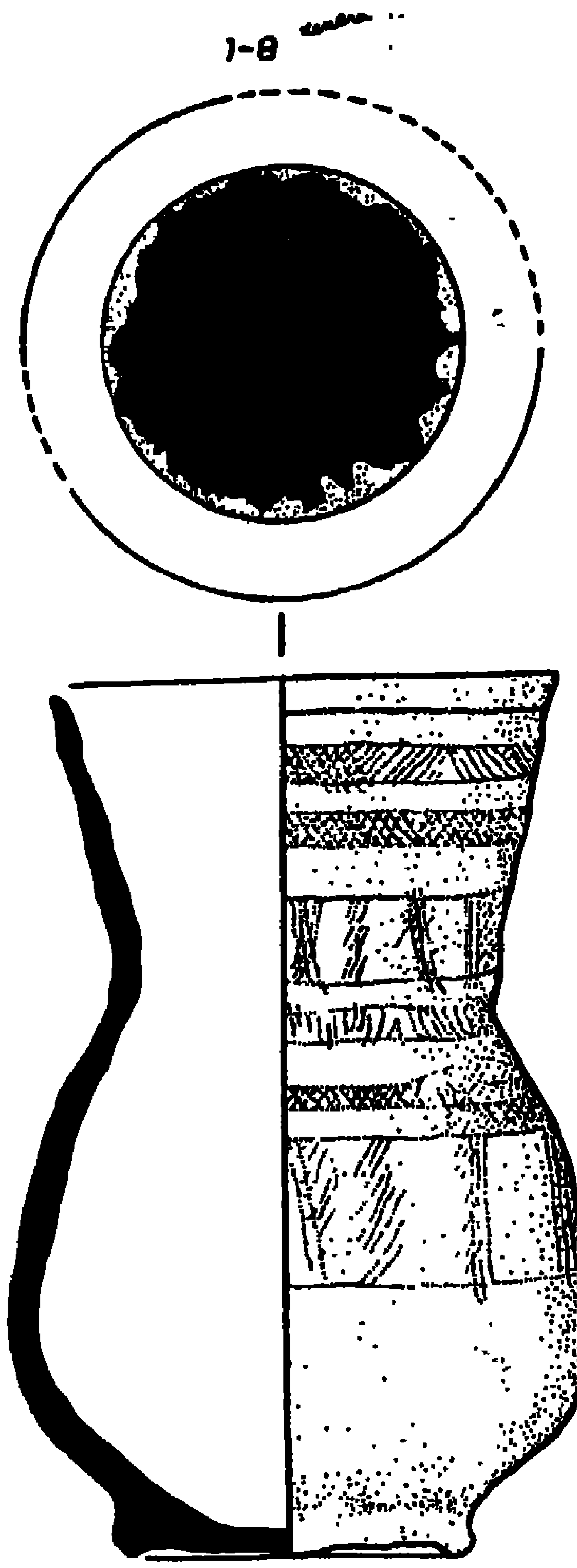

Figure 10

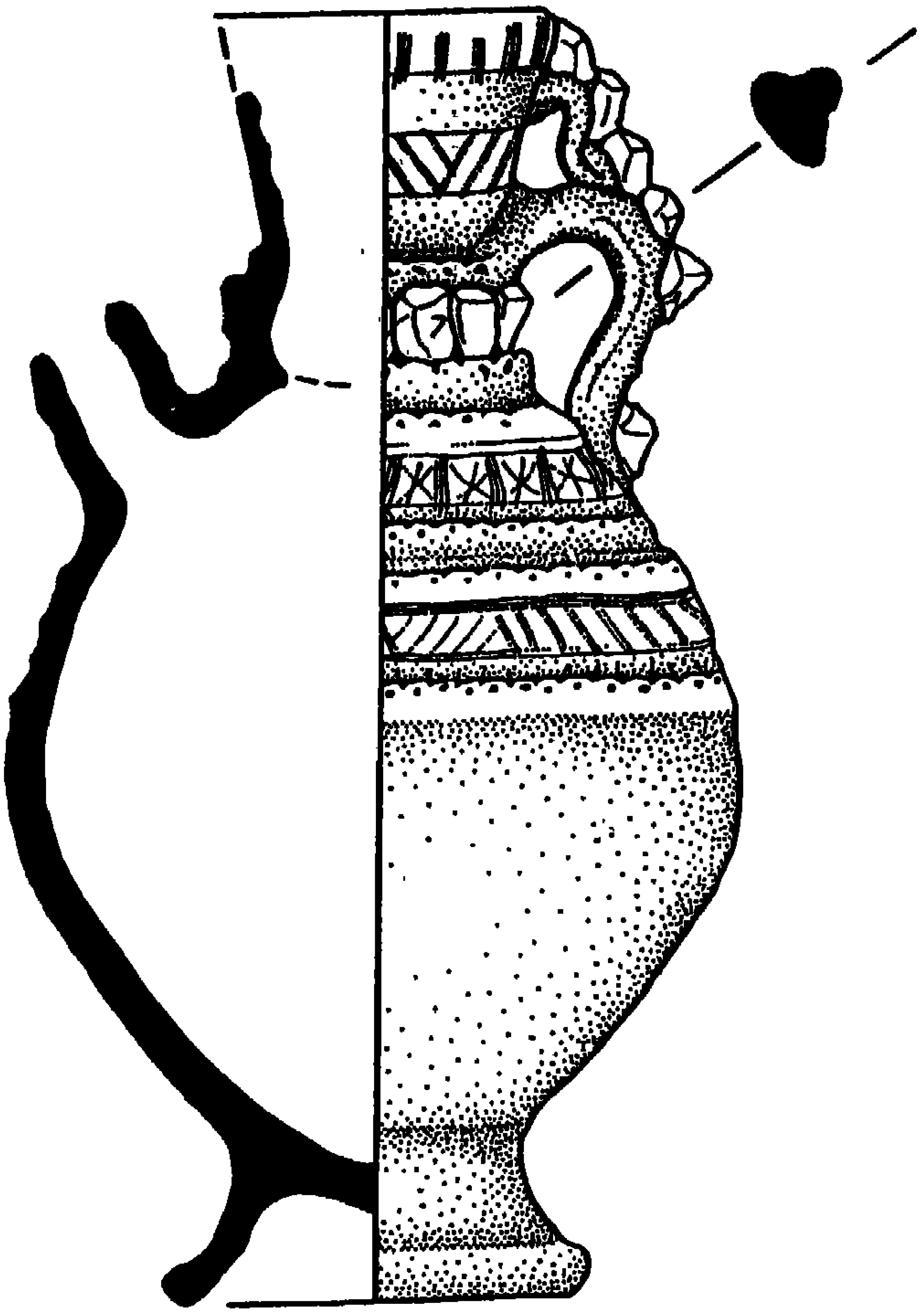

1-643

Figure 8

Figure 9

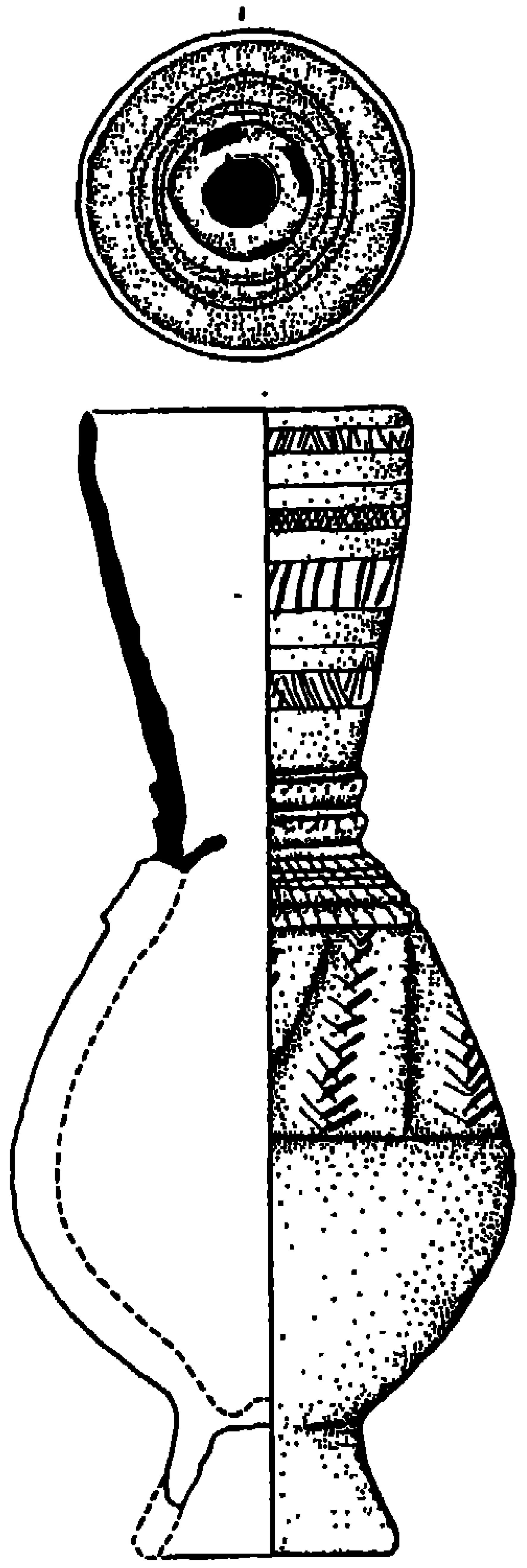

Figure 7

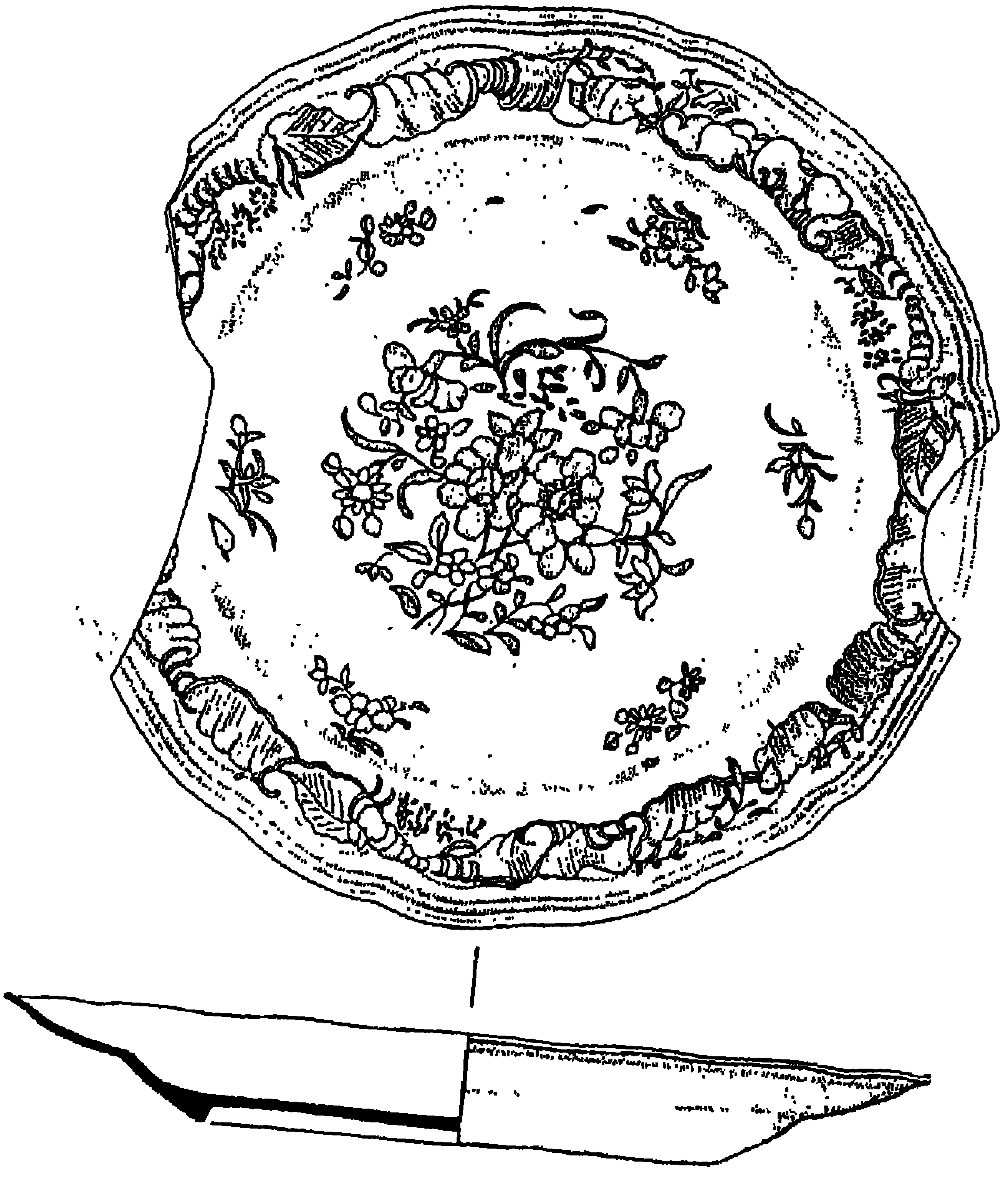

2·348

Figure 6

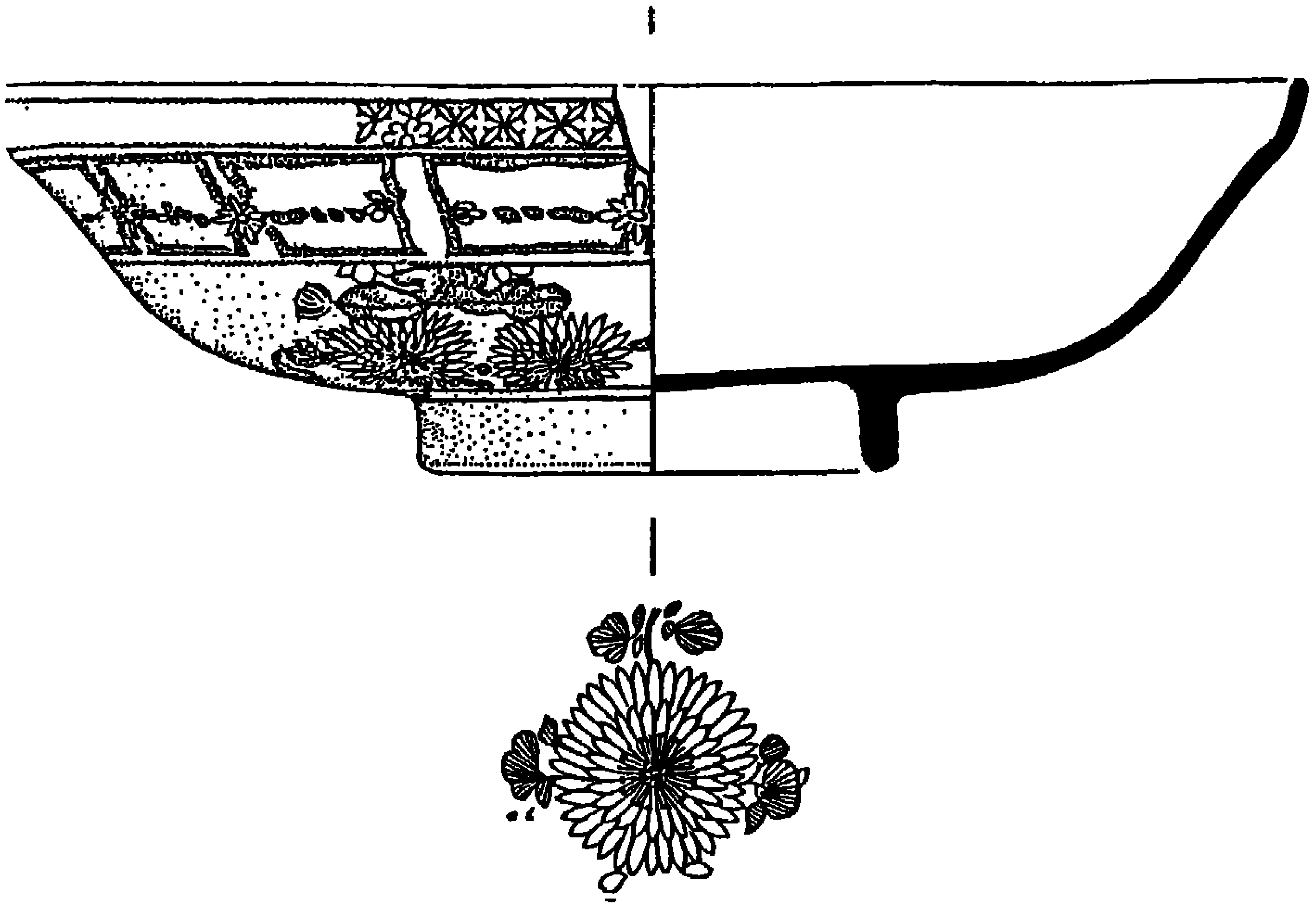

Figure 4

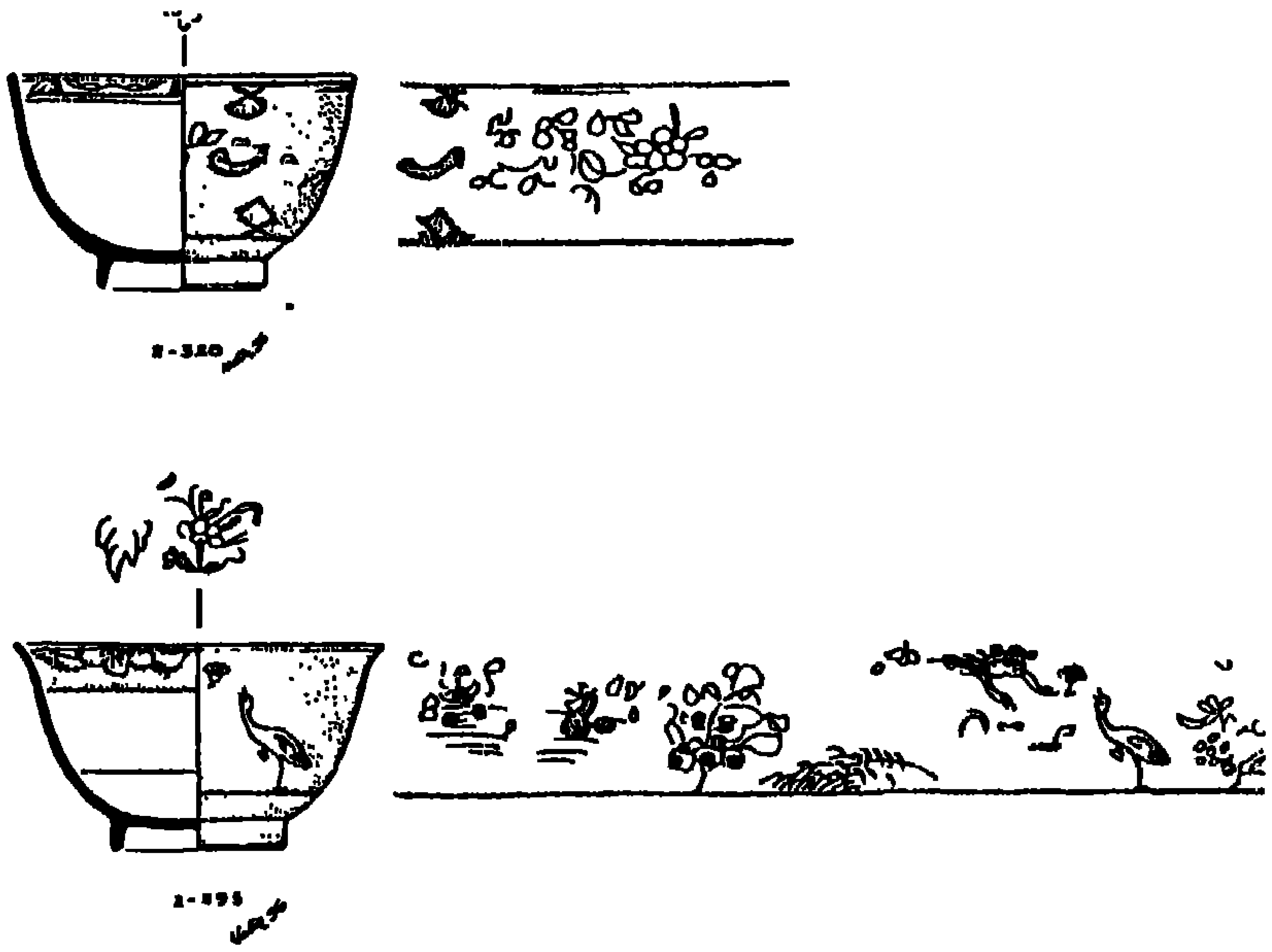

Figure 5

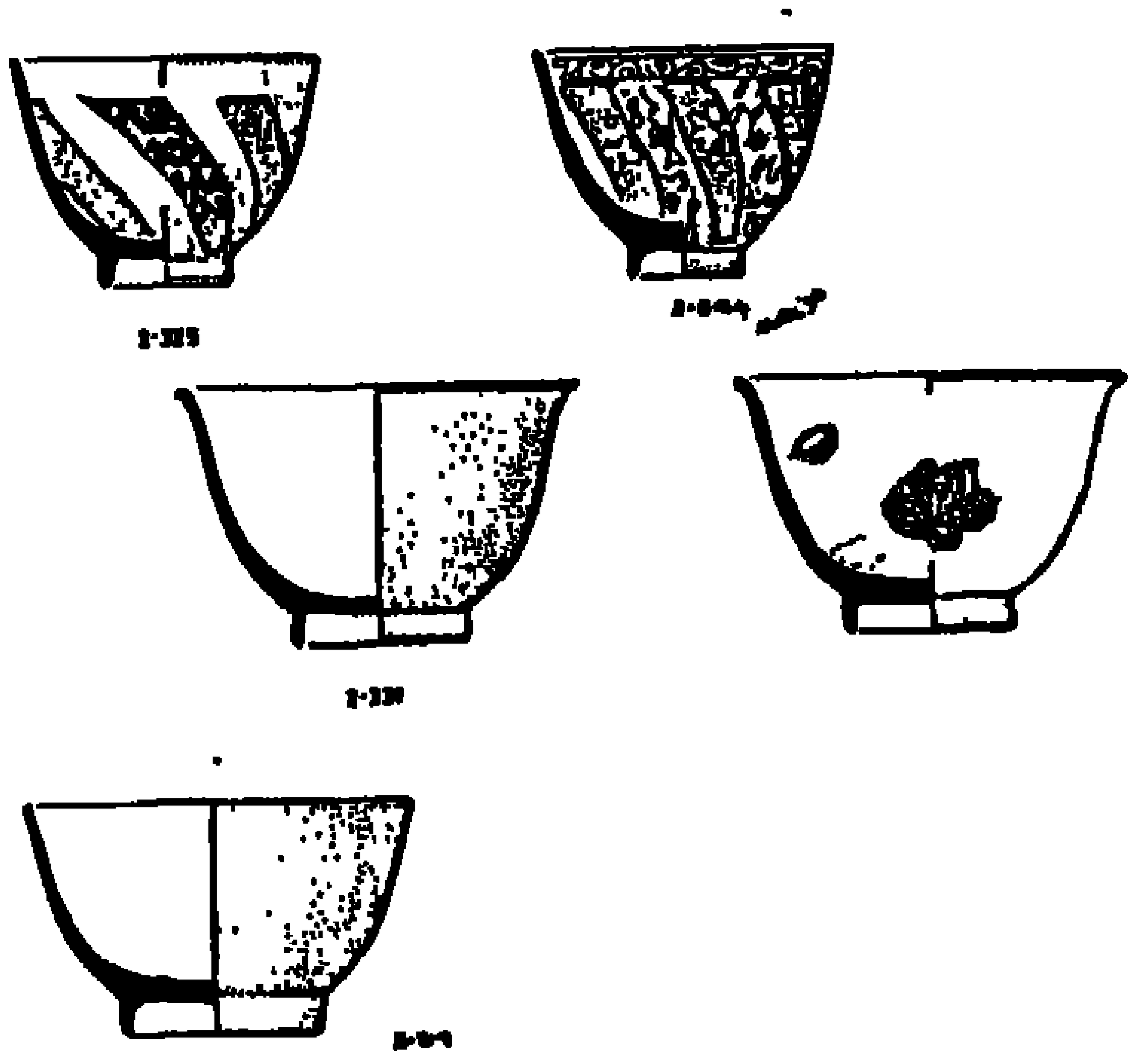

Figure 2

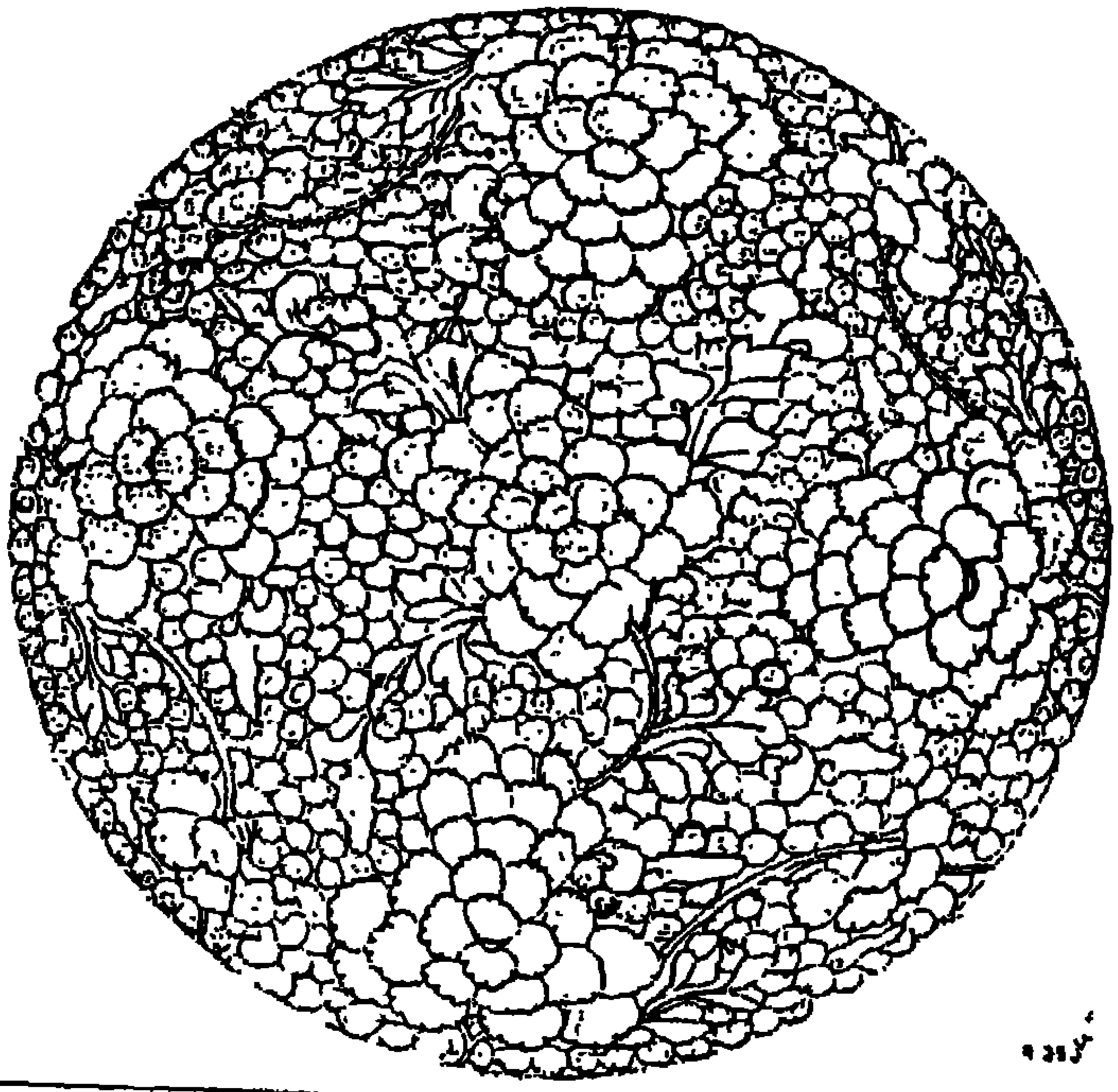

Figure 3

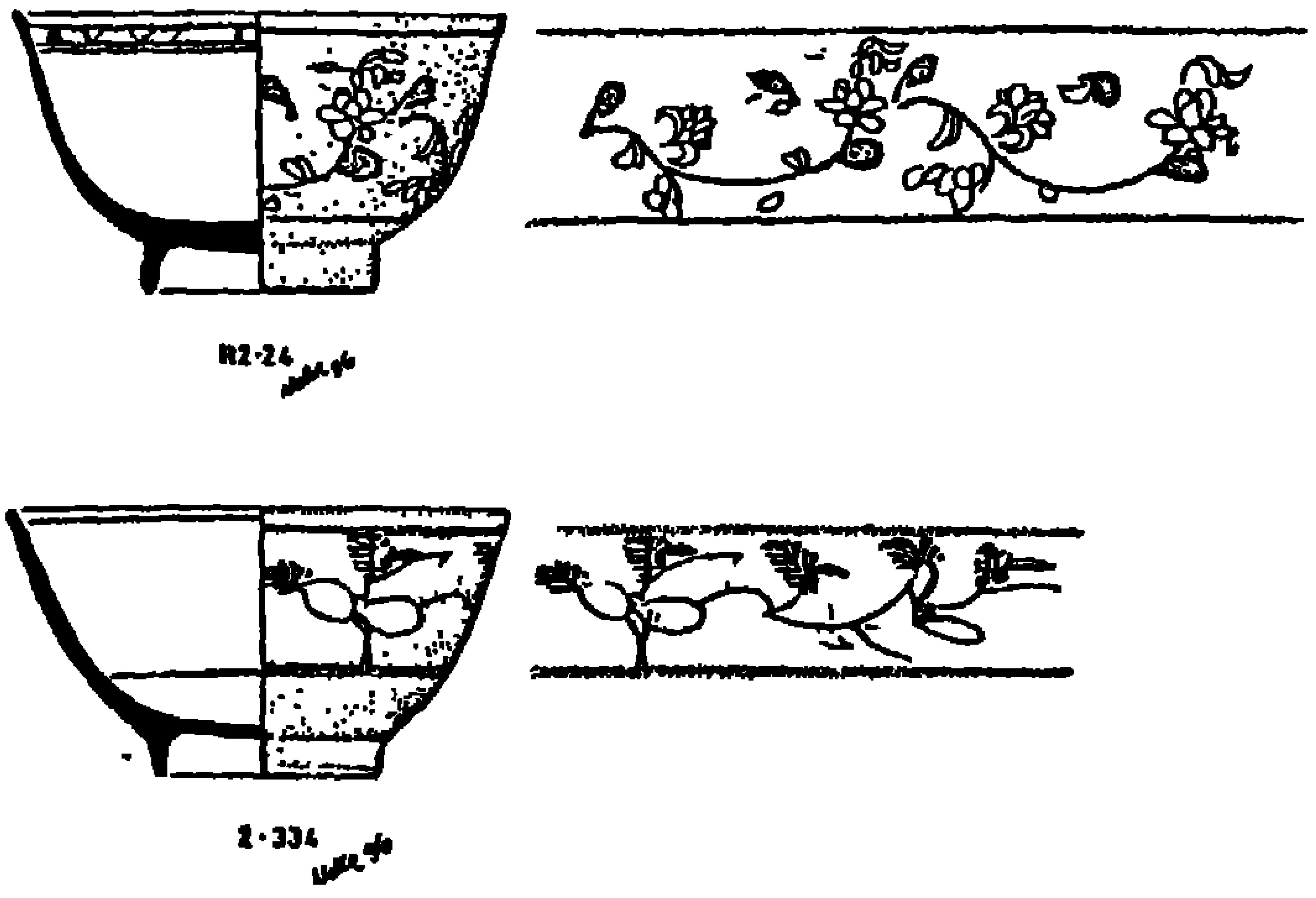

Figure 1

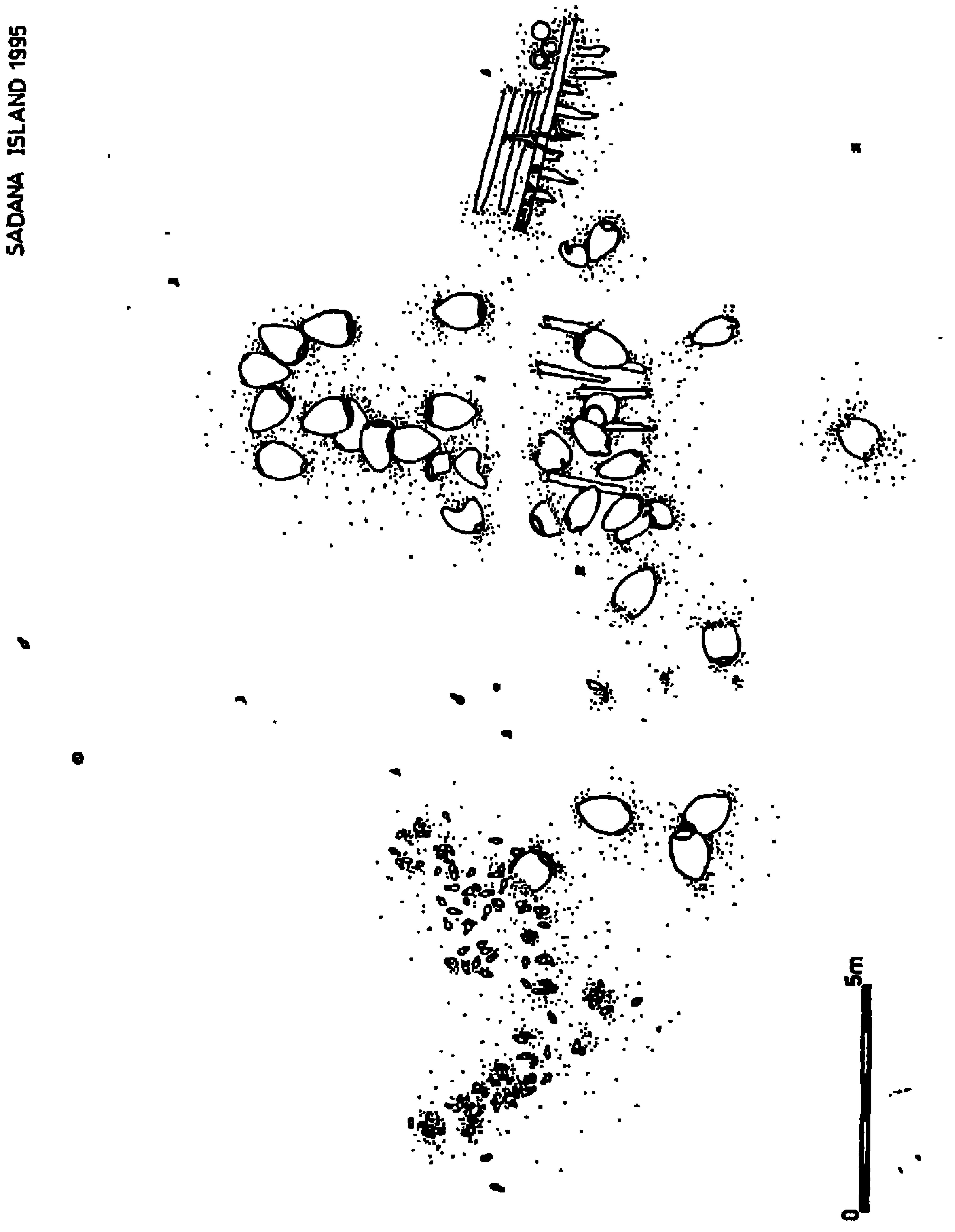

peninsula in addition to Dutch and Portuguese controlled vessels.[13]

Indian ships were known to carry goods north to Suez for French and other merchants periodically during the 17th and 18th centuries. In 1670 the *ra'is* Ahmed owned two Indian ships at Suez, and in 1682, port chronicles mention a *markab hindi*, or Indian sailing ship, anchored in the harbor there.[14] In 1762, a foreign visitor noted that of the 14 ships that operated between Suez and Jidda, most were built in Suez where the industry was flourishing, but by the later 18th century, a French traveller commented that most Arab ships in the Red Sea were built in India.[15] For much of the 17th and 18th centuries, strong commercial ties existed between Egypt and India, and it would not be surprising to find that Indian shipbuilding techniques were adopted by local Egyptian builders.

Could the Sadana Island ship be Indian or of local Egyptian construction? We know only that the Sadana ship was not built according to traditional Mediterranean or European construction practices at the time. It does not resemble Dutch, Portuguese, or English ships active in the Indian Ocean, and it is unlike what we know of Indian Ocean sewn ships of the time. When the wood used in building the ship is identified, we may learn more about where the materials for shipbuilding came from, but in a wood-poor region like the Red Sea, even wood was transported long distances by ship, either from Alexandria or further ports to the east, so it is not a reliable indicator of origin.

The continuing excavation of the Sadana Island shipwreck furnishes an opportunity to explore the nature of the ship, its cargo, and its crew and master. It also ensures that this part of Egypt's nautical heritage will be investigated and preserved.

---

[13] C.G. Brouwer, "Non-western Shipping Movements in the Red Sea and Gulf of Aden during the 2nd and 3rd Decades of the 17th Century, According to Records of the Dutch East India Company, Part I," *Die Welt des Islams*, Vol. 31, 105-167; "Part II," *Die Welt des Islams*, Vol. 32, 6-40.

[14] A. Raymond, *Artisans et Commerçants au Caire au XVIII^e siècle*, (Damascus: 1973), Vol. I, 110, n. 5.

[15] *Ibid.*, 110.

from the Red Sea," according to Captain Alexander Hamilton, writing in 1723.[9]

Carsten Niebuhr's travel records in the Red Sea in 1762 will be important in gaining perspective on the Sadana Island ship's role in the region's commerce.[10] Niebuhr describes the ships of the Red Sea, and notes that many were built in Suez shipyards of wood, iron and rope brought in from Cairo and Alexandria. Such ships could carry up to 1,000 tons, and as many as 600 passengers (typically pilgrims to Jidda). Another traveler notes the presence of Arab-run ships that were of Indian construction and far more expensive to build than comparable Nile or Mediterranean ships. Between 30 and 40 ships made the trip between Suez and Jidda each year; of these, 15 to 20 could carry more than 900 tons. Yet another traveler points out that the French and other European traders sent the red dye cochineal, paper, European fabrics and foods, and bullion to the Red Sea in exchange for coffee, spices, drugs, myrrh and incense, Indian cotton fabrics and Chinese silk and porcelain. It is thus clear that the Sadana Island ship was headed north on its last voyage with a cargo intended for trans-shipment to Cairo and beyond.

The presence of large (30-50 meter long) porcelain-carrying shipwrecks at Sadana Island, Sharm al Shaykh[11] and another looted site near Hurgada in the northern Red Sea suggests that there was a strong interest in moving Chinese porcelain and other goods by sea north of Jidda, a point traditionally seen as the terminus of the sea trade from the Indian Ocean during this time.[12] Egyptians under Ottoman suzerainity controlled what was effectively internal trade until the late 18th century when European shipping began operating between Suez and Jidda.

Much of the Red Sea trade reached Egypt by a complicated route. Ships obtained cargoes in China and Indonesia, and often transshipped their goods at other centers such as Surat in India. From there, Indian and other ships caught the spring monsoons and headed for Mocha and other Red Sea ports, carrying local products as well as Far Eastern luxuries such as porcelain. In the first part of the 17th century, Mocha and Jidda were the destinations of ships from Arabia, East Africa, Southeast Asia, and, especially, from both sides of the Indian

---

[9] A. Hamilton, *A New Account of the East Indies* (Edinburgh: 1723), 41-42.

[10] C. Niebuhr, *Beschreibung von Arabien* (Copenhagen: 1772); Niebuhr, *Reisebeschreibung nach Arabien und andern umliegenden Landern*, Vol. I (Copenhagen: 1774); and T. Hansen, *Arabia Felix: The Danish Expedition of 1761-1767* (London: 1964).

[11] A. Raban, "The Shipwreck Off Sharm-el-Sheikh," *Archaeology* Vol. 24, No. 2 (1971), 146-155.

[12] B. McGowan, "The Age of the Ayans, 1699-1812," in H. Inalcik and D. Quataert (eds.), *An Economic and Social History of the Ottoman Empire: 1300-1914* (Cambridge: 1994), 637-758; J. Raby, "The Porcelain Trade Routes," in R. Krahl and J. Ayers (eds.), *Chinese Ceramics in the Topkapi Saray Museum* (Istanbul: 1986), Vol. I, 55-63.

length of the hull from keel to upper deck are unusual for their robustness.

During the 1996 season, we identified three levels of knees that probably supported deck beams and may indicate that the ship had three separate decks. A separate stowage compartment sectioned off by bulkheads was documented just aft of midships; the large transport jars (*zila'*) seem to have been stored here. At what seems to be the midships section, an arrangement of transverse planking supported a large shaft fastened to it by two large iron bands. Large quantitites of rope up to 5 cm thick surrounded this assembly.

Summary and Conclusions

The Sadana Island excavations have allowed us a far better understanding of both Red Sea trade and a single ship represen-tative of the largest type of ship active in the Ottoman Red Sea of the second half of the 18th century. An inscribed copper basin with a date equivalent to 1755/6 CE gives us a firm link for exploring the historical aspects of Red Sea trade during this period although slightly earlier documents are also important in its study.

The Sadana Island shipwreck is exciting to work on because it reveals a mini-history of Red Sea trade that dovetails into the greater scheme of international commerce between East and West. Richard Kilburn, a private scholar who examines the papers of England's famed East India Company, shared an excerpt from a letter of instruction to the men who would purchase the cargo for the *Princess Amelia*. The supercargoes bought Chinese porcelain in Canton to be sold in Mocha, a principle port for Red Sea and East African traders, in the fall of 1724.

> CHINAWARE 300 to 350 chests. Tis impossible to give particular or full Instructions for providing this Article...One General Rule must always be observed, and that is, never to pack a peice of Ware that hath the figure of Humane Species, or any Animal whatsoever, and as formerly the Color'd ware prevailed, so it is more than probable that it still doth, the red and gold used to be most in esteems, & three quarters of the colour'd Sortments with one quarter of blew & white was the customary package of the whole parcel.

This letter could be, with the exception of the amount of porcelain, a description of the Sadana ship's porcelain cargo as it exists today. Mocha, *Princess Amalia*'s destination, is one of two likely loading points for the ship, the other being Jidda, the port of Mecca. Contemporary accounts of Mocha describe a busy harbor populated with "English Free Merchants, Portugueze, Banyans and Moors, and by Vessels from Bossorah, Persia and Muskat in Arabia petrea," all of whom sought to trade in coffee and, "some Drugs, such as Myrrh, Olibanum or Frankincense from Cassin, and Aloes Soccatrina from Socotra, liquid Storax, white and yellow Arsenick, some Gum Arabick and Mummy; with some Balm of Gilead, that comes

of the ship. They almost certainly carried stores of dry foods or water for the crew and passengers, and originally were closed with wooden lids, one of which has been recovered. Three different shapes have so far been recorded. Clay pipes, a red-slipped tobacco holder, incense burners, handled jars, and a small spouted pot also survived to help us understand the vessel's final voyage.

Other containers on the site included green and brown glass (square case bottles and round wine bottles, respectively). Archaeologists recovered copper cooking and food serving wares; a coffee pot, two tripod grills lined with a ceramic insulator, a kettle, ewers, and cooking pots that probably were used aboard the vessel. Copper metal also was used in the manufacture of a large pulley wheel and a lidded box, possibly an expanding lantern.

Finds of large and small container lids, rope, wood, charcoal, and coconut shells demonstrate the variety of organic materials that were well preserved on site. These finds are especially important as we suspect that much of the ship's original cargo was organic. Archaeobotanical studies contribute tremendously to our understanding of shipping activity from all periods because they provide hard evidence for cargo, shipboard life, trade routes and even seasonality, and we incorporate such studies throughout the excavation.

Separating organic remains from sediment is a tedious but simple procedure known as bucket flotation; gross morphological features and sections of recovered seeds are compared to modern ones for identification just as pottery designs can be compared to known examples. Systematic examination of all jar contents and dark-colored deposits produced pepper, cardamom, nutmeg, coriander, coffee beans, hazelnuts, olive stones, aromatic resin and weed seeds from the ship's last voyage. In addition, bones from several animals, including sheep or goat and domestic fowl, inform us about shipboard diet.

The Hull

The largest artifact at the Sadana Island site is the ship itself. Because the ship split open along its central longitudinal axis, we can look at its interior construction relatively easily, once the heavy sand overburden is removed. By studying its construction details and features, we are producing a record of an unknown ship type. Despite a long history of contact between Europeans, Egyptians, and others who sailed the western Indian Ocean and Red Sea, separate shipbuilding traditions continued. The Sadana Island ship is an example of a type that is non-European, non-Arab, and non-Mediterranean. The massive timbers used to build it suggest ample supplies near its home shipyard; wood identifica-tion may help to pinpoint the geographical origin of hull components.

The hull is characterized by the use of massive timbers joined by iron fastenings (Fig. 12). All that remains of the fastenings are the empty molds where the iron has completely decayed, but we can recover the measurements and locations of such fastenings. In so doing, we find the ship to be fastened rather lightly. Frames and floor timbers are spaced somewhat farther apart than those seen in other contemporary hulls, and the stringers that transverse the

similarities with examples from the Topkapi collection.

In the Topkapi collection, a bowl with vine-leaf-shaped medallions and another with spiralling blue panels from Sadana are dated to the second half of the 18th century and 1730-60 respectively.[7] Parallels for Sadana Island bowl 2-65 and its lid are dated to 1725-30, however, and the conflicting dates demonstrate some of the problems in dating Chinese export wares of this period (Fig. 6). Topkapi Saray Museum bowl TKS 4099 and cover TKS 4062 feature day lilies and chrysanthemums in a framework of underglaze blue leaves, flowering grasses, and panels and, though 15% larger, are otherwise almost identical to the Sadana example.[8]

More than 70 smaller bowls of two styles also featured colors applied after firing. On one, a fence, decorative rocks, and floral elements are easily seen in blue; the other is decorated with flowers and floral sprays on the outside while inside a central rosette of 10 alternating light and dark "petals" and, at the rim, a now-invisible diaper border enclosing blue-flowered panels complete the design. The catalogue of enamelled wares also embraces shallow dishes and plates of three sizes, now only white, but originally possessing a floral border and design brilliantly painted with other colors (Fig. 7). The plates and dishes with bracket-lobed and ridged rims have six pendants that extend to the cavetto.

Dates for Sadana Island porcelain span a century according to traditional interpretations, but it is unlikely that the porcelain itself was made over such a long period and traded only after 1750. Because porcelain wares within this period rarely bear reign marks that could provide a precise date, it is likely that the Sadana Island ship's cargo eventually will help resolve new and existing questions about Qing Dynasty chronology. An exciting find in 1996 offers new evidence for dating the porcelain as an inscription on copper pot 6-48 includes the AH date 1169, equivalent to 1755/6 AD (Fig. 8).

Less finely made than the porcelain, but as varied, are more than 850 earthenware water vessels (*qulal*) of at least 20 different designs and shapes. Some pieces seem to imitate the shapes of metal objects (Fig. 9); applied strips and dots of clay enhance an elaborate pitcher (Fig. 10). Some shapes resemble waterpipe bowls or goblets (Fig. 11); still others have filters at the junction of neck and body. All are made of a thin, gray/brown fabric designed to allow water to evaporate through it quickly, thus cooling the remaining water.

Jars glazed with either green or brown, large and small glazed and plain clay bowls and a yellow and brown glazed bowl with a central spiral and lotus-like blossoms on "arms" extending from the center illustrate a variety of shapes whose origin has not yet been determined. More than 40 *zila'*, storage jars about 90 cm high, were stored in the central part

[7] Krahl and Ayers, *op. cit.*, 1296, No. 3343; 1339, No. 3525.

[8] Ibid., 1216, No. 3011.

Summary of Finds

Ceramic objects, both earthenware and porcelain, comprise the largest single class of artifacts excavated to date. About 500 porcelain objects represent a special class of export wares created by kiln centers in China for the Middle Eastern market. Religious injunctions against the representation of human figures meant that most porcelain sold in the Middle East featured floral designs, and agents for cargoes destined for the Red Sea were strongly warned against buying any other type. The Topkapi Saray Museum in Istanbul offers the closest comparative collection for the Sadana porcelain; many pieces are virtually identical.[4] Monochrome glazed, enamelled, and blue-and-white decorated wares allow us to look at the variety of Chinese porcelain known and used in the Ottoman world.

The Sadana collection includes the popular blue-and-white porcelain traded to Europe and elsewhere in large numbers. So far, about one-quarter of the porcelain excavated is decorated solely with underglaze blue. About 160 large blue-and-white, often referred to as *bakdounis*, or "parsley", dishes decorated with a floral motif on the interior and two bare branches on the exterior measure either 34.4 cm or 37.8 cm in diameter (Fig. 2). These dishes are the same size as those represented in the Topkapi collection and elsewhere.[5] Two other saucer-shaped dish designs also at Sadana are common in the Topkapi as well as other collections of Chinese export ware.[6]

Small, handleless cups for coffee drinking make up the next largest class of porcelain objects (Fig. 3-5). Nearly 200 cups of about 20 different designs include cobalt blue, celadon and monochrome brown glazed examples, one brown glazed type having a quatrefoil medallion filled by an underglaze blue plum-family blossom. On many of the cups, only the underglaze blue decoration remains of a pattern once bright with enamelled colors such as red, yellow, green or gold, a style sometimes called Chinese Imari.

Enamel colors rarely are found on pieces that come from the sea, but with patience and raking light, it is possible to trace their original location on the porcelains because they last long enough to protect the glazed surface from the effects of salt water. This kind of work must be done after the object has been desalinated and partially dried, so only some of the Sadana pieces have had their "ghosting" defined. Intricate ghosting on several pieces again show strong

---

[4] R. Krahl and J. Ayers, *Chinese Ceramics in the Topkapi Saray Museum Istanbul III, Qing Dynasty Porcelains* (London: 1986).

[5] *Ibid.*, 1026, No. 2208. See also, J. Carswell, *Chinese Ceramics in the Sadberk Hanim Museum* (Istanbul: 1995), 94.

[6] Krahl and Ayers, *op. cit.*, 1072, No. 2405 and 1073, No. 2408; B. Westfeld, B. Gyllensvord and J. Weibull, *Porcelain from the East Indianman Gotheborg* (Wiken: 1991), 256 ff; Carswell, *op. cit.*, 86.

Ottoman-period vessel near Safaga,[2] whose excavation began in 1995.[3] In addition to offering information about a poorly documented period in the northern Red Sea, the Sadana Island shipwreck provides a large and diverse collection of well dated artifacts of the mid- 18th century, decades significant as the Ottomans reasserted their control of the Red Sea.

Chinese export porcelain of the Qing Dynasty's Kangxi period had made the site attractive to unsanctioned visitors, and it had apparently been used by a local diving center as a laboratory for teaching underwater archaeology. Pressure on the site was increasing, and recent finds of over 100 porcelain artifacts buried on the beach suggests that looting was fairly large scale. Our 1994 visit showed us that the technology used to build the ship was clearly an undocumented tradition, unlike Mediterranean, European, or "Arab" (i.e., a dhow) construction techniques, and therefore important in understanding cultural contact and exchange.

The Site

The Sadana Island shipwreck lies in 28-40 meters of water at the sandy base of a coral reef about 15 kilometers north of Safaga. The ship sank and settled to port, parallel to the reef, with its bow pointed inland. With time, the starboard side of the ship broke away and fell into deep water. Today, the ship's internal timbers lie just centimeters beneath the sand or are well exposed. Three, 4-meter-long, grapnel anchors mark the bow, and the port frames can be traced along the 50 x 20 meter area (Fig. 1).

After two excavation seasons, the ship seems empty. Large storage jars once clustered in the middle of the site and porcelain and copper objects spread along the central axis have been removed, and the site's major feature is the largest artifact, the ship itself. Although more than 2,000 artifacts are now under conservation in the Alexandria Laboratory for the Conservation of Submerged Antiquities, a joint project of the SCA and INA-Egypt, we suspect that much of the original cargo was lost to natural processes in the sea. Foodstuffs, textiles or even pilgrims returning from Mecca may once have been carried on the Sadana Island ship.

Scientific archaeological excavation techniques are applied to the site in order to retrieve as much contextual information as possible about all classes of artifacts. Measurements taken on the bottom are converted into three-dimensional plans so that we can learn about the ship's final voyage and the people who sailed this immense ship.

---

[2] C. Haldane, "INA-Egypt's Red Sea Survey," *Institute of Nautical Archaeology Quarterly*, Vol. 21, No. 3, 4-9.

[3] C. Haldane, "Sadana Island Shipwreck, Egypt: Preliminary Report," *IJNA*, Vol. 25, No. 2, 83-94.

An Ottoman Period Shipwreck off Egypt's Red Sea Coast[1]

Cheryl Haldane
Alexandria, Egypt

A 1994 shipwreck survey by the Institute of Nautical Archaeology - Egypt (INA-Egypt), in cooperation with the Supreme Council of Antiquities for Egypt (SCA), documented an

---

[1] We are grateful for the opportunity to work in cooperation with the Supreme Council for Antiquities (SCA) of Egypt, and thank its past general secretary Abdel Halim Nur el Din and the Permanent Committee for their generous assistance in 1996. Our gratitude to the sponsors and volunteers for the 1996 season cannot be fully expressed here, but we would like to acknowledge the following supporters of the excavation: The Amoco Foundation, the John and Donnie Brock Foundation, the Institute of Nautical Archaeology and George F. Bass, Danielle Feeney, His Royal Highness Prince Khalid Ibn Sultan, Uwatec/Dynatron, Harry Kahn, Richard and Mary Rosenberg, British Gas - Egypt, ScubaPro and Lucien D'Hondt, Banyan medical suppliers, DHL, Kodak - Egypt, Scubadoo Diving Center, Barbara Mertz, Dr. Samuel Rentsch, Dr. Alan Stein, Robert and Fran Vincent, Mark Scott, Jim Bayuk, William Remsen, Jim Stewart, Dan and Ann Coster, Mark Easton and all friends who brought and sent care packages to the site.

Egyptian Naval Lts. Tarek Abu el-Ela, Khalid Shiraki, Ahmed O. Arafat, Muhammad Samir, Muhammad Riga' and Ahmed Rida Helmi joined SCA inspectors Maher Masoud Sidhom, Ahmed Sameh Ramses, Muhammad Mustafa Mohammed Abd El-Magid and Muhammad El-Sayyid Muhammad El- Sayed on site. INA-Egypt's co-director, Douglas Haldane, worked tirelessly to ensure our safety, ability to work, and comfort, as did our general manager Adel Farouk and Emad Khalil and chef Shehat Saied Hilal. Conservator Howard Wellman and artists Netia and Lara Piercy added their valued skills to the documentation and preservation of objects.

Thanks especially to volunteers Saad Ahmed Ahmed, Jan Borg, Julie Eklund, Louise Fischer, Josetein Gundersen, Nicolle Hansen, David Haskiya, Taimour Muhammad Ismail, Meredith Kato, Benjamin Kaubisch, Michael Lambertson, Martin Mainberger, Colin Mckewan, Andreas Olsson, Ipek Ozkaya, Ibrahim Ozkaya, Leslie Perkins, Charles Pochin, Robin Rentsch and Dr. Samuel Rentsch, Tanja Roskar, Dr. Alan Stein, Norman Thomas, Melissa Zabecki and Maria Zagoreos for unstinting devotion to the cause.

Beryl Joyce, Richard Kilburn, Regina Krahl and John Carswell have all graciously shared their expertise on the subject of Chinese export porcelain and have my deepest appreciation for their assistance.

وأطيعوا/ خيراً لأنفسكم فإن التقوى هى السبب الأقوى، وبا لله المستعان فكونوا على بصيرة يا عباد ا لله، واخشوا الملك الجبار أناء الليل وأطراف النهار/ ولا تخالفوه والكف الكريم والختم الفخيم عليهما الاعتماد وصدرت سابع عشرين شهر ذا الحجة الحرام ختام سنة ١٢٠٩.

ورفع الحوادث المستجدة وإجراء القوانين القديمة على مقتضى القوانين القويمة ليحصل بذلك النفع لكافة العباد والتزموا أن لا يتعرض/ أحد منهم إلى الأشراف القاطنين جميع البلاد لا بشكوى ولا بأذية ولا بضرر بوجه من الوجوه المضرة بهم وأن ينهوا أمرهم وحوادثهم الخاصة إلى أفنديهم ونقيبهم/ في ساير الأقطار والأزمان وأن يقوموا بعمارة السواقي الموصلة إلى القلعة وإدارتها بحضرة الوزراء والفقراء وشرب المسلمين القاطنين بها وعدم إنزال الفارين/ من الديار المصرية إلى بلاد الكفرة والمشركين أعداء الدين وأن لا تحدث حادثة من الآن امتثالاً لقول الخالق الآن خفف ا لله عنكم يا أيها الذين آمنوا أطيعوا ا لله/ والرسول وأولي الأمر منكم [..][١] ومن يتعد حدود ا لله فقد ظلم نفسه والظلم أقرب سبيل إلى الردا [هكذا] قال ا لله تعالى ولا يظلم ربك أحداً/ والإتباع في الأوامر سمة الأخيار ولا تحسبن ا لله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. فكونوا عباد ا لله إخواناً في رفع هذه الحال/ لقوله عليه الصلاة والسلام لا تجتمع أمتي على ضلالة والوارد لكل عاقل نبيه ا لله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وكتب من النصوص الملموس/ المؤمنون كالبنيان المرصوص المرفوع، المؤمنون كأسنان المشط يشد بعضهم بعضاً، فلا تكونوا كمن يعض على يديه عضاً، ومما كتب وسطر الظلم/ إن دام دمر والعدل إن دام عمر، فعاقبة الاستقامة حسن السلامة فمن خالف أو سعى في نقض شروط من تلك المنهيات المذكورة كان ا لله خصمه/ حيث كان سيما في دار القرار يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، فيا عصابة الإيمان وأهل هذا الشأن تعاونوا على البر/ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا ا لله حق تقاته في كل أمر قويم ومن يعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم، وتسجلوا هذا/ الرقم بالسجل المحفوظ بالشرع القويم بالباب العالي زاد ا لله تعالى علاه إلى يوم الدين واتقوا ا لله ما استطعتم واسمعوا

---

[١] - تراجع الآية من المصحف.

دامت سيادتهم وأحوالهم المرضية وجميع مشايخ الطايفة الأزهرية وحضرة أولادنا الأمراء الكرام أمراء اللواء الشريف السلطاني أمير اللواء إبراهيم بيك وأمير اللواء/ مراد بيك وأمير اللواء أيوب بيك دفتردار مصر حالاً وساير الأمراء المصرية دام عزهم واختيارات البلوكات السبعة وساير الحكام والأعيان والخواص والأمراء/ دام توقيرهم أنهوا إلينا بديواننا السعيد عرض محضر ممضي ومختوم بأختامهم يعرب مضمونه أن حضرة موالينا العلماء الأعلام والسادات العظام/ والمشايخ الكرام ومشايخ الطايفة الأزهرية وغيرهم من عصابة المسلمين طلبوا من الأمراء الكرام المومى إليهم تنزيل جوامك المسلمين المطلوبة من المال الميري وإجراء جرايات المستحقين وعلى/ الفقراء والمساكين وإجراء شوربة الجامع الأزهر ومحفل العلم الشريف الأنور وجرايته من وقفه الخاص به ولا يوجد له شيء من المكوس والمظالم وإجراء ملايل الحج وتعلقاته حكم قديمها/ على ما هى عليه من زمن الملوك والسلاطين والأمراء المؤمنين السابقين ومنع التقارير عن البلاد والرعايا والفقراء ومنع نزول الكشاف الجايرة في بلاد الله التي خربوها ونهبوها و../ معالمها ودمروها وإزالة الغليونجية الكفرة من مصر القديمة ودوايرها ولا يتجاوزوا بر الجيزة لإيزايهم المسلمين وتعرضهم بالفواحش وإهانة الدين، فذلك هو الخراب/ المبين، وأن لا يزاد على دفتر المرحوم محمد بيك في رفع المظالم وأن جميع ما أحدثه إسماعيل بيك وغيره يزال من أصله، بالكلية وأن ترفع المكوس الحادثة في البنادر والموارد وما/ جعل على المأكل والمشرب وإزالة جميع الحوادث والمظالم من جميع الأقطار المصرية. فأجابوا بالسمع والطاعة وعدم مخالفة الجماعة، وأن يبطلوا هذه المظالم الحادثة/ التي أضرت بالإسلام والمسلمين، وأبادت أحوال الفقراء والمساكين وحصل بسببها العسف والجور المبين وامتثلوا جميع ما طلب منهم وأشير بهم عليه، وعاهدوا الله سبحانه/ وتعالى على أن لا يعودوا إلى تلك الأفعال وقابلوا الأوامر المطلوبة منهم بالامتثال والتمسوا منا إصدار فرمان شريف وحكم ديواني منيف باللغة العربية بإجراء هذه الأمور/ المطلوبة ورفع المظالم المرهوبة

Appendix

باب عالي، سجل ٣١٨، م١، ص١

لما كان في اليوم المبارك الموافق لثامن شهر القعدة الحرام سنة تسع ومايتين وألف حل فيه ركاب سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام ملك العلما الأعلام قاموس البلاغة ونبراس الإفهام الواثق بلطف ربه المعيد المبدي، مولانا عبد الرحيم مدحي زاده أفندي قاضي القضاة بمصر المحروسة حالاً زاده ا لله عزاً وإجلالاً ونايبه في الحكم العزيز سيدنا ومولانا فخر قضاة الإسلام كمال ولاة الأنام الواثق بلطف ربه المعيد المبدي مولانا عثمان أفندي النائب بمصر المحروسة حالاً زاده ا لله عزاً وإجلالاً وجعل ا لله قدومهما خيراً.

صورة فرمان شريف ورد مكمل بالختم والعلامة على العادة من حضرة مولانا الوزير الأعظم والدستور المكرم والمشير المفخم مولانا الوزير الحاج صالح باشا كافل الديار المصرية حالاً زاده ا لله عزاً وإجلالاً مضمونه حمداً/ لمن أقام الحكام وتنفيذ الأحكام ونصبهم بالعدل والإحسان في ساير الأقطار والبلدان والممالك المحمية المحروسة جعلهم ا لله تعالى دايماً محفوظاً ومحروساً فامتثلوا للأمر/ بالمعروف والنهي عن المنكر واتعظوا بالموعظة الحسنة التي لا تحصى ولا تحصر وأجابوا بالقبول والرضوان فهذا كله بلطف الملك المنان وصلاة وسلاماً على من بعثه/ للعالمين برحمته القايل كل راع مسئول عن رعيته وألهم التابعين بسنته وشريعته وكل خليفة في خليفته. أما بعد فقد صدر هذا الفرمان الشريف المطاع/ الواجب القبول والتشريف والإتباع بديوان مصر المحروسة العالي دامت له المفاخر والمعالي خطاباً إلى ولاة الأمور الإسلامية وحكام الشريعة المطهرة المحمدية بمصر/ المحمية وموالينا العلماء الأعلام منارات الإسلام وهداة الدين المبين من الأيمة الصالحين ومشايخ العلم الراسخين السادة المفتين نفعنا ا لله بهم أجمعين/ وافتخار السادات الكرام الفخام أصحاب الفضل والكلام موالينا السادات وفخر الأشراف العظام نقيب الأشراف بمصر المعزية وحضرة السادات الوفائية/ والبكرية

Murad Bey had no intention of keeping this agreement. In remarkably similar language, both al-Khashshab and al-Jabarti note that the agreement brought calm for about one month only. "Then everything which was mentioned returned and even more," lamented al-Jabarti.[28] According to al-Jabarti, Murad then descended upon Damiette to impose a new range of heavy taxes.[29]

For good reason, al-Khashshab remains a little known and unappreciated historian, but al-Jabarti has a well-deserved positive reputation for his extensive and generally accurate use of official documents to which he had access through his association with the diwans of the governors and the beys. He sometimes reports the full text of firmans, reveals the stipulations of *waqfiyyat*, and recounts the contents of agreements such as the one reported here, but often, for the sake of brevity, he synopsizes or reports only half of documents, as he did in this case. In this case both historians capture the essence of the agreement and recount the most important stipulations of the written document, but al-Jabarti's account is more coherent and informing; al-Khashshab does not date the agreement, even to a particular year, and appears imprecise with his information. Because neither reports the entire agreement, neither offers a complete understanding of the incident or the wide range of grievances against the ruling beys. Whenever possible, therefore, it is wise to compare these contemporary chronicles with the original documentation to be found in the registers of the *shari'a* courts or in the *waqfiyyat* preserved in various archival collections.

[28] Al-Jabarti. *'Aja'ib al-Athar*, Vol. II, 259. Compare with al-Khashshab, *Khulasat ma yurad*, folios 26a-26b, "but after only about 30 days the situation returned to what it had been before."

[29] Al-Khashshab relates Murad Bey's new impositions on the people of Damiette in the sentence following the remark cited in footnote 24, but he places this incident in February, 1798, three years later than what al-Jabarti implies.

wealthy Turkish, Maghribi and Syrian merchants were also abandoning Egypt because of the tyranny of the beys.

Al-Khashshab and al-Jabarti offer some background to the signing of this agreement, which required three days of deliberations to complete, that is not apparent from the court document. They explain the genesis of the crisis in the excessive demands made by Muhammad Bey al-Alfi on the inhabitants of a village in Sharqiyya Province in which Shaykh al-Azhar 'Abdallah al-Sharqawi held an *iltizam*, how various meetings were held at the house of the Shaykh al-Sadat and Murad Bey's villa in Ghiza, and how the agreement was finally drawn up, in the presence of the governor, the chief judge, Ibrahim Bey and other amirs in Ibrahim Bey's residence. There are some slight variations in the two accounts, however. Both report that the beys agreed to pay a sum of 750 purses spread over three payments. While al-Khashshab indicates that this sum was only for the poor, al-Jabarti seems to imply that it was the sum covering items 1-3 of the agreement, that is, the sums owing the poor, the pilgrimage and the *haramayn*. Neither historian makes any specific reference to the reopening of al-Azhar's soup kitchen.

Al-Jabarti makes reference to items 1-2 (payments owing the poor and the religious cadre, the pilgrimage expenses and the *haramayn*), item 4 (no new *mazalim*), item 5 (the dispatch of the *hajj* caravan and the sending of grains and payments to the *haramayn*), item 6 (no seizure of the property of the villagers), item 7 (no new impositions on the villages), and in a very general way to those items in which the amirs promise to conduct themselves properly. He makes no reference to items 8-14, such as Murad Bey's promise to confine his marines to Ghiza (on the opposite side of the Nile from Cairo, Old Cairo and Bulaq); to the bey's promise that taxes would not exceed those in Muhammad Bey's *daftar*; to the abolition of taxes on food and beverages; to the relief of the inhabitants of the ports; to their return of the affairs, and revenues, of the descendants of the Prophet to their *naqib*; to the amirs' promise to repair the *saqiyyas* of the aqueduct to the citadel; and their promise not to protect those trying to flee to non-Muslim lands.

Al-Jabarti offers other information not contained in the document recorded in the Bab al-'Ali register. He notes that Murad Bey had refused to include in the agreement any reference to the accounts of the Nile port of Bulaq and that he agreed to pay the salaries of the *'ulama'* only for the current year, refusing to pay those salaries that were in arrears.[26] Al-Khashshab mentions the same items, but in a rather vague and hurried manner. He, too, makes no reference to items 8-14. He does, however, accurately note that the customs of Bulaq were held out of the agreement.[27]

132.

[26] Al-Jabarti, *'Aja'ib al-Athar*, Vol. II, 258-259.

[27] Al-Khashshab, *Khulasat ma yurad*, folio 26a.

Item 10 abolished the new taxes in the ports and on imported goods and foodstuffs.[22] The tyrannies against the merchants and artisans of Egypt's Mediterranean ports had reached such an extent that many inhabitants had abandoned these towns.[23] The French remarked that these towns had lost half their populations, not as much to the plagues and droughts that struck in the mid-1780s and early 1790s as to the tyranny Murad Bey imposed on them. Damiette and Rosette, both of which had grown to equal or exceed the population of Alexandria, were reduced by half. The rich agricultural lands surrounding these Nile-side ports were abandoned and uncultivated. Damiette was said to be in ruins and Alexandria, which was reduced to perhaps 8,000 inhabitants on the eve of the French invasion, was surrounded by an expanding desert and bedouin clans.[24]

The beys also promised to abolish taxes on food and beverages (item 11). They further agreed not to harm the *ashraf* and to return the administration of their affairs to their *naqib* (item 12). This item speaks to the beys' usurpation of salaries assigned to the descendants of the Prophet in various budgets.

The beys also promised to repair the *saqiyyas* (item 13) that brought water to the citadel and its surrounding area. These had been damaged years earlier in factional fighting. It appears that this was an item which the governor, whose residence was in the citadel, added to the demands for his personal benefit.

Finally, the amirs promised not to protect those trying to flee to non-Muslim territories (item 14). This last item might be a veiled reference to some of the rich Melkite customs agents and merchants who transferred their considerable wealth to French or Italian ports. The powerful chief customs agent Antoine Qassis Phara'un had set a precedent in late 1783 when Ibrahim Bey gave him permission to undertake a pilgrimage to Jerusalem. Instead, he had fled Egypt with his immense fortune and established a trading house in Trieste.[25] Hundreds of less

---

[22] Among the unauthorized taxes which the beys imposed on the merchants were those demanded on goods coming from other Ottoman ports on which the merchants had already paid the required taxes to the central government. In particular, the European merchants complained, but to no avail, of having to pay a second time on merchandise they transferred to Egypt from other Ottoman ports. In ignoring the capitulatory rights of the Europeans and in collecting taxes a second time the Qazdughli amirs were acting as independent rulers.

[23] Many Lebanese merchants had fled from Egypt as early as 1784 to avoid Murad's ruinous exactions. Because of Murad's neglect, the aqueduct to Alexandria had been cut by bedouins. See Haus-Hof-und Staatsarchiv (Vienna), Türkei II, 85, folios 38-39.

[24] Quai d'Orsay (Paris), Memoires et Documents - Turquie, Vol. 9 (1718-1824), folio 135.

[25] Daniel Crecelius, "The Attempt by the Greek Catholics to Control Egypt's Trade with Europe in the Second Half of the Eighteenth Century," in Abdeljelil Temimi (ed.), *La vie sociale dans les provinces arabes a l'epoque ottomane* (Zaghouan, Tunisia: 1988), Vol. 3, 121-

in 1791.[19]

European sources report that Lower Egypt was devastated by Murad's excesses. Only a few villages were left in some of the Delta provinces and bedouins dominated the area. It was reported that the entire area outside the walls of Alexandria was abandoned. The agricultural lands were not cropped and bedouins controlled the area, forcing travellers between Alexandria and Cairo to take the river route between Rosette and the capital. Even then, Nile boats had to be armed to fight off bedouins and bandits who roamed the river banks.[20]

Item 8 demanded the withdrawal of the marines (*ghalyunjiyya*) from Old Cairo and its environs and their confinement to Ghiza since they did so much harm to the Muslims. This is a veiled reference to the approximately 300 Greek mercenaries whom Murad Bey had hired to man the Nile fleet he had constructed. Jabarti noted that these marines, who were commanded by Niqula Reis, moved around Cairo like a mamluk force.[21]

Item 9 was a reiteration of item 4; it stated specifically that taxes should not exceed those in the *daftar* of Muhammad Bey Abu al-Dhahab's *raf' al-mazalim*. Muhammad Bey had consolidated the previous range of taxes imposed in excess of the *mal al-miri* and had churlishly called his consolidation "abolition of the tyrannies" tax. His successors, including Isma'il Bey, had made new and higher demands, so the *'ulama'* insisted that the taxes be rolled back to the levels imposed by Muhammad Bey in the mid-1770s.

---

[19] When the French forces disembarked in 1798 Ibrahim Bey and Murad Bey sent letters to the villagers of the Delta to send men to help defend Cairo. "But," wrote al-Khashshab, "none of the villages sent a single person because of the earlier way in which they had been treated." See *Khulasat ma yurad*, folio 28a.

Shaykh al-Azhar 'Abdallah al-Sharqawi, held agricultural *iltizams*.[16]

The expedition of Ghazi Hasan Pasha of 1786-87 had forced Ibrahim Bey and Murad Bey into temporary refuge in the Sa'id and had caused them enormous financial losses which they sought to recoup after reclaiming power in 1791. They withheld the traditional payments to Istanbul and even to the *haramayn*. In some years the pilgrim caravan could not depart because the beys had seized the monies set aside for the equipping, provisioning and defense of the caravan. Or the beys might send the caravan but not make the necessary payments to the bedouins along the route to guarantee safe passage, with the result that the caravan was attacked and people lost their goods and lives. In item 5, therefore, the *'ulama'* insisted that the beys resume support for the pilgrimage and all things connected to it according to the traditions of the Mamluk sultans and their predecessor amirs.[17]

Items 6 and 7 sought to extend protection and security to the villagers. Item 6 stated specifically that there would be no retribution against the villages or their inhabitants, while item 7 prohibited the provincial governors (*kushshaf*) from continuing their destruction of villages they administered. If item 4 sought to protect the villagers from excessive and illegally imposed taxes, items 6 and 7 sought to put an end to the physical destruction of their villages and to offer the *fallahin* security to work their lands and not fear attacks from their *multazims*. Murad Bey, who was assigned the villages of Lower Egypt, had for years made such excessive demands on the peasants that they frequently abandoned their villages or went into revolt against him and his agents. Many of the villagers supported Ghazi Hasan Pasha's forces upon their arrival in 1786, trusting his promises to reduce the land tax to a low level.[18]

Murad Bey had not disbursed the usual funds to maintain the facilities that supported agriculture in the Delta, hence the dykes were not repaired and channels were not periodically cleaned, with the result that villagers did not even receive sufficient water to irrigate their lands. Security was also neglected, which permitted the bedouins to penetrate the settled areas and to impose their own harsh exactions on the peasants. When the villagers could not meet Murad's demands for taxes he ordered his agents to kill the inhabitants of certain villages as an example to others, or to raze their villages to the ground. Murad had initiated these tyrannies prior to Ghazi Hasan Pasha's expedition in 1786 and had resumed this policy after returning to power

---

16 See Marsot, "Political and Economic Functions of the 'Ulama," 152-154, for references to lands held by al-Sharqawi, Abu Anwar al-Sadat, and 'Umar Makram.

17 On the organization and expenses incurred in sending the pilgrimage, see Michel Tuchscherer, "Le pèlerinage de l'émir Sulayman Gawis al-Qazdughli, *sirdar* de la caravane de La Mekke, en 1739," *Annales islamologiques* 24 (1988), 155-206; Shaw, *Organization*, 184-271.

18 See Daniel Crecelius, "Orders of Ghazi Hasan Pasha to the Egyptians, 1200-1201 AH/1786-1787 AD," paper delivered to the VIIth International Symposium on Ottoman Studies, Zaghouan, Tunisia, October 18-22, 1996.

was soon joined by Ibrahim and Murad who, according to al-Jabarti, apportioned the revenues of the endowed village of Quwaysna between themselves so that the majority of the functions of the religious complex were suspended within one year of the founder's death.[13]

Ibrahim Bey and Murad Bey were chased from Cairo in mid-1786 by Ghazi Hasan Pasha, who seized their wealth and confined them in Upper Egypt. They returned to the capital after the great plague of 1791 wiped out the regime which Hasan Pasha had left in place in Cairo when he departed in late 1787 and were intent upon recovering the massive losses they had sustained. Certain that the Ottoman central government could not assemble the financial and human resources to send a second expedition, Ibrahim and Murad imposed an unrestrained tyranny on all segments of Egyptian society and ignored most of Egypt's obligations to the empire. The agreement of 1795 was born out of the protests by the *'ulama'* against the broad range of abuses the populace suffered at the hands of the beys.

The agreement of 15 July 1795 had fourteen stipulations; each addressed a particular grievance the *'ulama'*, speaking for themselves or representing the general population, had against the amirs.[14] In sum, they reveal the broad range of religious assets which the amirs had diverted from their religious purposes.

In items 1-3 the beys agreed to pay the salaries (*jawamik*) owed to Muslims from the *mal al-miri*, to distribute the food allowance (*jaraya*) to those who deserved it, and to resume soup distribution from al-Azhar's *waqf*.[15] The third item demonstrates to what extent the beys had interferred with the *awqaf* of the religious institutions, particularly the sizable income of al-Azhar, the center of Islamic instruction in Egypt.

In item 4 the beys agreed not to impose any new illegal (*mazalim*) taxes on the populace. This was of course the heart of the peoples' protests, for the Qazdughli amirs had for decades decreed new and excessive taxes on all segments of the population. Many of the new taxes demanded of the peasants and *multazims* affected the *'ulama'* directly, for many, including

---

[13] Al-Jabarti, *'Aja'ib al-Athar*, Vol. I, 419.

[14] Witnesses to the agreement were the *muftis*, the Shaykh al-Wafa'iyya and the Shaykh al-Bakri, the shaykhs of the *riwaqs* of al-Azhar, the amirs Ibrahim Bey, Murad Bey and Ayyub Bey the *daftardar*, and the *ikhtiyariyya* of the seven regiments.

[15] For examples of the various sums set aside for the *'ulama'*, religious institutions, and the pilgrimage from the general budget, see Stanford J. Shaw, *The Budget of Ottoman Egypt, 1005-1006/1596-1597* (The Hague-Paris: Mouton, 1968), 122; 154-168; 202-203. See also Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt: 1517-1798* (Princeton: Princeton University Press, 1962), 184-271.

shaykh al-balad at that time. Yusuf Bey, who had become supervisor (*nazir*) of his master's *waqf*, also withhheld the allowance for garments and daily food for the students of the complex which Muhammad Bey had erected only a year before his death.[9] Isma'il Bey also tried to calm that situation by promising the *'ulama'* that the allowances for garments and food would be distributed. Jabarti remarks that parts of the agreement were met, but that the rest were never carried out.[10] Following Yusuf Bey's murder in 1777 and the flight of Isma'il Bey from Cairo that same year, Ibrahim Bey became supervisor of al-Azhar's numerous *awqaf*. The *'ulama'* resented the interference of the amirs in their affairs, and frequently had to protest the non-payment by the amirs of the grains, stipends, and expenses for their salaries and the upkeep of their institutions.

In the next two decades Ibrahim Bey and Murad Bey initiated policies that undermined Egypt's rich agricultural base, bankrupted the merchant communities, alienated both Christians and Muslims, enfeebled Ottoman institutions in Egypt, and provoked two military expeditions against the beys. In their sweeping search for revenues the beys did not overlook the considerable wealth of the religious communities, whether *dhimmi* or Muslim. The income of *awqaf* was seized, disbursements for the upkeep of institutions, salaries for teachers in *madrasas*, *imams*, *khatibs* and other personnel of the mosques, and allowances for the students were not paid by the amirs who usurped their monies and grains. The agricultural produce of *rizqa* lands was also taken by the beys. The fate of the generous *waqf* created by Muhammad Bey Abu al-Dhahab in 1774 in favor of his mosque-*madrasa-takiyya* can illustrate what the religious establishment endured at the hands of Muhammad Bey's mamluks and can serve as background to the detailed agreement signed between the beys and the *'ulama'* in 1795.[11]

In 1774 Muhammad Bey, then the *shaykh al-balad*, had endowed a large complex for worship and study. This complex included a *takiyya* to house students; a library supported the classes offered in the mosque-*madrasa* by a distinguished faculty. The *'ulama'*, students and service personnel of this complex were given generous allowances for food and clothing in addition to their daily stipends. But hardly had the body of Muhammad Bey been laid to rest in a corner of his mosque than his mamluks began to seize the assets of his large *waqf*. The assault was led by Yusuf Bey, who claimed the supervision of his master's endowment,[12] but

---

[9] The daily stipends for shaykhs, readers and students of Muhammad Bey's *madrasa* alone were 2,510 *nisf fiddas* daily and 2860 *ardabbs* of wheat annually. See Daniel Crecelius, "The *Waqfiyah* of Muhammad Bey Abu al-Dhahab: I," *Journal of the American Research Center in Egypt* XV (1978), 85-105; "II," XVI (1979), 125-146.

[10] Al-Jabarti, *'Aja'ib al-Athar*, Vol. II, 12.

[11] Daniel Crecelius, "The *Waqf* of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in Historical Perspective," *International Journal of Middle East Studies* 23 (February, 1991), 89-102.

[12] See Shari'a Court Archives (Cairo), Taqarir al-Nazar series, 16, 40, 9 (2 Jumada Akhir 1191 AH/8 July 1777 AD).

Azbakiyya Pond to show its anger with the beys and support for the *'ulama'*, inducing Ibrahim Bey, who could see the crowd from his own nearby residence on the pond, to try to defuse another crisis provoked by his *kushdash* Murad Bey. He sent Ayyub Bey the *daftardar* to speak with the leaders of the protest demonstration, but when Ayyub Bey tried to defend the levy of excessive taxes the *'ulama'* rebuked him, saying, "An amir is an amir by giving, not by taking."[4] The dispute ended the next day when Ibrahim Bey assembled in his residence the leading *'ulama'* and sufi shaykhs, the governor, the *qadi 'askar*, and the *ikhtiyariyya* of the Ottoman regiments to find a solution to the crisis An agreement was eventually drawn up and sent to Murad Bey, who signed it after Ibrahim Bey warned his *kushdash* that he would stand with the people in this dispute.[5] This agreement was described in some detail by al-Khashshab and al-Jabarti; the latter frequently reported the contents of written documents brought before the councils of the governors or the beys. The full text of this agreement has been found in a register of the Bab al-'Ali court, permitting us not only to understand the complete nature of the dispute between the *'ulama'* and the mamluk beys, but also to test the veracity of the reporting of this agreement by al-Khashshab and al-Jabarti.[6]

Popular protests led by the *'ulama'*, negotiations between the *'ulama'* and the beys, and written agreements between the two groups had become frequent in the tumultuous years following the death of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in 1775, for his successors unleashed a harsh tyranny on Egypt that ultimately provoked military expeditions by the Ottomans in 1786 and by the French in 1798. The demand for excessive taxes and the withholding of payments for salaries, services and the activities of the religious institutions provoked frequent popular protests; these disputes were usually mediated by the higher *'ulama'*.[7] In mid-1777, for instance, the Amir Yusuf Bey, a mamluk of the deceased Muhammad Bey Abu al-Dhahab, had involved himself in a dispute with the Maghribi students over a house they had inherited in *waqf*.[8] His interference in the affairs of the well organized and numerous Maghribi community provoked a serious riot in the Azhar district which had to be mediated by Isma'il Bey, the

[4] Al-Jabarti, *'Aja'ib al-Athar*, Vol. II, 258.

[5] Very slight differences exist between the accounts of al-Jabarti and al-Khashshab. Al-Khashshab, for instance, makes no reference to the year of the crisis, placing it between the plague of 1791 and the arrival of Napoleon in 1798. It is obvious that one writer relied on the account of the other, for the two accounts are essentially the same.

[6] See Dar al-Watha'iq al-Qawmiyya (Cairo), Mahkamat al-Bab al-'Ali, Sijill 318, page 1, item 1 (27 Dhu al-Hijja 1209/15 July 1795). See the appendix for the full text of this agreement.

[7] See Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, "The Political and Economic Functions of the 'Ulama in the 18th Century," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 16 (1973), 130-154.

[8] See al-Jabarti, *'Aja'ib al-Athar*, Vol. II, 11-12.

An Agreement between the *'Ulama'* and the Mamluk Amirs in 1795: A Test of the Accuracy of Two Contemporary Chronicles[1]

Daniel Crecelius
California State University,
Los Angeles

Hamza 'Abd al-'Aziz Badr
South Valley University
Sohag

The contemporary historians 'Abd al-Rahman ibn Hasan al-Jabarti[2] and Isma'il al-Khashshab[3] both relate a series of negotiations in 1795 surrounding a protest led by the influential Shaykh al-Azhar 'Abdallah al-Sharqawi against the excessive taxes that Muhammad Bey al-Alfi, a retainer of Murad Bey, imposed on a village in the district of Bilbays, Sharqiyya Province, in which Shaykh al-Sharqawi himself held a tax farm (*iltizam*). Al-Alfi's action by itself could not have sparked the widespread protests that erupted in Cairo, which experienced three days of popular demonstrations, including the closure of the markets surrounding al-Azhar mosque on the periphery of the commercial zone and the holding of public meetings at al-Azhar. On the third day a large crowd assembled around the residence of the Shaykh al-Sadat on

---

[1] This article was prepared while Dr. Crecelius held a grant from the American Research Center in Egypt in 1996. The granting agency is not responsible for opinions expressed in this article.

[2] Al-Jabarti, the most famous Egyptian historian of the last 500 years, is justifiably renowned for his massive history of the period 1688-1822. References are to the Bulaq edition of his *'Aja'ib al-Athar fi al-Tarajim wa al-Akhbar* of 1888 in four large volumes. The reader can also consult a recent English translation of this work wherein the original page numbers of the Bulaq edition are clearly indicated. See Thomas Philipp and Moshe Perlmann (eds.), *Al-Jabarti's Chronicle of Egypt* (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1994).

[3] Isma'il al-Khashshab (d. 1815), a shaykh, poet, and historian. was a close friend of al-Jabarti, who included a sympathetic biography of him in *'Aja'ib al-Athar*. Al-Khashshab composed two short works of history, *Akhbar Ahl al-Qarn al-Thani 'Ashar* and *Khulasat ma yurad min Akhbar al-Amir Murad*. The latter contains an account of this crisis and the agreement that came out of the negotiations which is almost identical to the report of the agreement found in al-Jabarti. See *Khulasat ma yurad min Akhbar al-Amir Murad*, annotated and translated by Hamza 'Abd al-'Aziz Badr and Daniel Crecelius (Cairo: Maktabat al-'Arabi, 1992), folios 25a-26b.

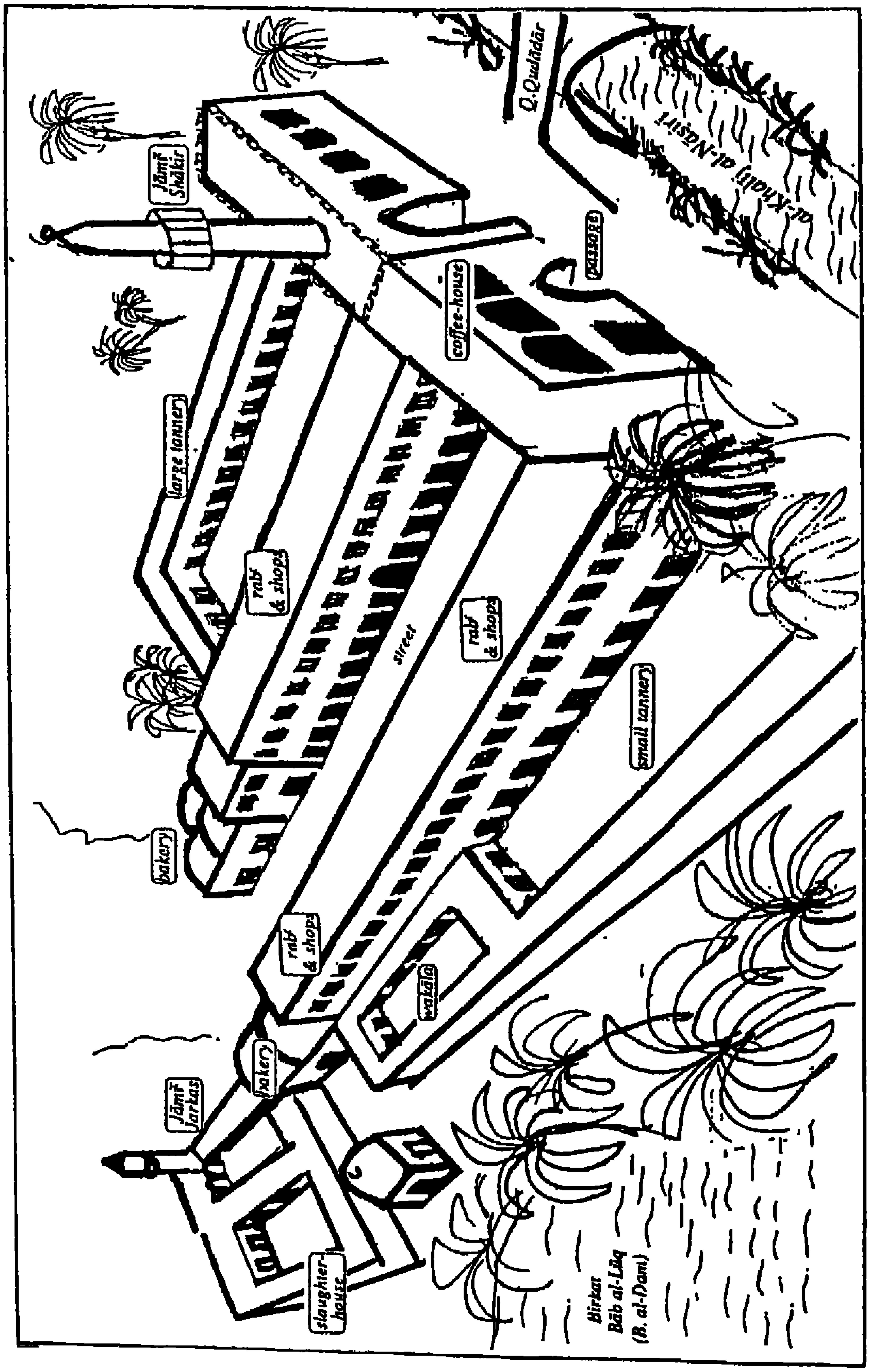

Schematic Reconstruction of the Tannery Complex According to its Waqfiyya

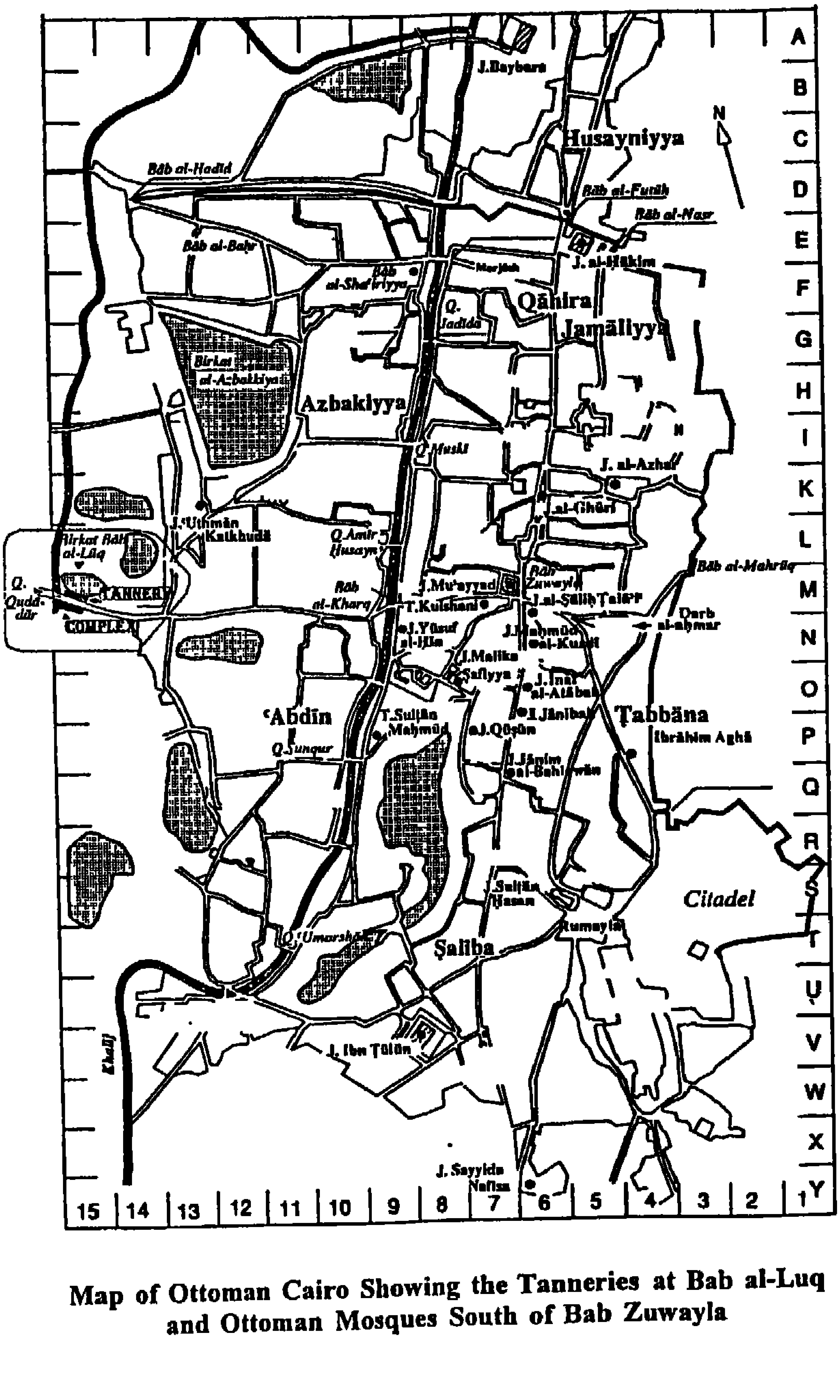

Map of Ottoman Cairo Showing the Tanneries at Bab al-Luq and Ottoman Mosques South of Bab Zuwayla

period, as a number of extant mosques demonstrate: al-Salih Tala'i' 556/1160 (No. 116), Mahmud al-Kurdi 797/1395, Inal al-Atabiki (No. 118) 794-5/1392-93, Faraj Ibn Barquq (No. 203) 811/1408, Janibak (No. 119) 830/1426-27 and farther south Janim al-Bahlawan (No. 129) 883/1478. All of these buildings still stand today. It was in this neighborhood that Ridwan Bey chose to establish his residence and commercial structures.

Compared with the size of the Mamluk metropolis, Ottoman Cairo's area did not extend visibly before Muhammad 'Ali's reign. There was rather an adjustment in its urban development. Some quarters such as Bulaq, the southern shores of the *khalij* around the Birkat al-Fil and its western bank around the pond of Azbakiyya thrived, while others, such as the northern outskirts with Husayniyya, Raydaniyya and Birkat al-Ratli, receded. Fustat and the island of Rawda seem to have received little attention, as they are rarely mentioned in *waqf* documents of this period and no important building activity is recorded there. The northern cemetery, where great religious complexes were built during the Circassian Mamluk period, lost its appeal under the Ottomans, who were not interested in creating funerary complexes. The preference was obviously oriented towards the southwestern quarters of al-Qahira.[13] The road to the port of Bulaq, the major trade route of Cairo, which used to be formerly on the same latitude as Bab al-Sha'iriyya, along the street of Bab al-Bahr, seems to have been deviated in the Ottoman period to a southern axis, coming from Bab Zuwayla and passing across Bab al-Luq. The abundance of water bodies in the southwestern quarters of Cairo with the two canals, the Khalij Misri and the Khalij Nasiri, and the various ponds they fed, may have played a role in this shift. One could also interpret the shift the other way round: once the road to Syria lost its importance after the fall of the Mamluk empire in favor of the road to Bulaq, which connected Cairo to Istanbul, and once the northern cemetery lost its meaning as royal cemetery and center of important religious institutions, the building activity moved naturally into another direction, towards the southwest.

In any case, the transfer of the tanneries and the slaughterhouse from the urban area of Habbaniyya to the outskirts of Bab al-Luq indicates an increasing sense of hygiene and urban organization during the Ottoman period.

[13] A. Raymond, *Le Caire* (Paris, 1993), 221.

A second bakery with a mill, a stable and a silo was situated opposite the first, on the eastern side of the tannery for goat hides.

A question that can not be easily answered is how the plan for this industrial complex was conceived, whether it was sent from Istanbul or designed in Cairo. In any case the choice of the site near a pond and near the canal shows that the designer was familiar with Cairo's geography and had also taken into account the necessity of a water supply in the tannery craft.

André Raymond has observed simultaneous initiatives in several cities of the Ottoman Empire to transfer the tanneries from the urban center to marginal areas.[10] He interprets this phenomenon as a sign of urban growth.

There is no doubt that the area southwest of Bab Zuwayla witnessed an important building activity during the 16th century. Shortly after the Ottoman conquest Shaykh Ibrahim al-Kulshani built in 926-31/1519-24 a religious complex (No. 332) on Taht al-Rab' Street facing the mosque of al-Mu'ayyad. This street was already thriving and full of Mamluk commercial structures so that the shaykh had problems with the acquisition of an estate there.[11] Farther to the southwest, at Habbaniyya, were the old slaughterhouse, the tanneries and the markets for offal and for leather goods. In this neighborhood only the mosque of Qadi Yahya (No. 204), built in 856/1452 and farther east that of Qusun (No. 202), built in 730/1329-30, survive from the Mamluk period.

Half a century after Kulshani built his *takiyya*, Iskandar Pasha established in 1567 a religious complex with a mosque and a *takiyya*, no longer extant, west of Taht al-Rab', along the *khalij* near the bridge of Qantarat Bab al-Kharq. Its *waqf* deed states that there were ruined buildings in the area that had to be demolished.[12] In 1025/1616, the Egyptian Shaykh al-Burdayni built his own small mosque (No. 201) near the mosque of 'Uthman Agha and Malika Safiyya. On the west side of Habbaniyya along the *khalij* shore Yusuf Agha al-Hin built another mosque (No. 196) in 1035/1625, and in 1164/1750 the *takiyya* of Sultan Mahmud (No. 308) was erected.

The area southeast of Bab Zuwayla, however, was already densely built in the Mamluk

---

[10] A. Raymond, "Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'Epoque Ottomane: Un 'Indicateur' de Croissance Urbaine," *Revue d'Histoire Maghrébine*, No. 7-8 (1977), 192-200.

[11] On this building and the topography of the area, see D. Behrens-Abouseif, "The Takiyyat Ibrahim al-Kulshani in Cairo," *Muqarnas* V (1988), 34-60.

[12] G. Winkelhane and K. Schwarz, *Der Osmanische Statthalter Iskender Pascha (gest. 1571) und seine Stiftungen in Ägypten und am Bosphorus* (Bamberg, 1985), 142.

The project planned by 'Uthman Agha and Dawud Agha took place in two different areas: Dawudiyya and Bab al-Luq. The building of the tanneries at the outskirts of Bab al-Luq is of particular interest because it is more than just a tannery building; it is rather a whole industrial complex, including a slaughterhouse, dwellings and shops, designed according to one global plan. The advantage of the new location was its proximity to the Khalij Nasiri and the Birkat al-Luq, later called Birkat al-Dam, which allowed an easy drainage of the waste water of the tanneries. Water was vital for such an industry, as the presence of 12 wells in the tannery complex shows; ten were in the northern building, one in the southern and one in the slaughterhouse.

The description of the complex in the court register is so detailed that it allows a fairly faithful reconstruction. Its location can also be established on the map of the *Description de l'Egypte* (M/14), in the area occupied today by the Ministry of Awqaf.

On both sides of the street leading from Bab Zuwayla to Bulaq, across the Khalij Misri, towards the Khalij Nasiri facing the bridge of Qantarat Qudadar across the latter, along an east-west axis, two tanneries were erected facing each other symmetrically. Each building had a facade with 15 shops surmounted by a *rab'* of 16 apartments. Both buildings had an entrance leading to a courtyard. The courtyard of the northern building included the tannery of goat hides and was surrounded by 46 doors leading to the workshops, a mill, and a stable. The courtyard included ten wells, cisterns and drain pits.

The southern building, which was a tannery for cow hides, was smaller than the first, its courtyard being surrounded by only 19 doors leading to the workshops and to a stable; it also included a mill and a well.

Farther west, bridging the street, and overlooking the Khalij Nasiri was a small building consisting of two shops and five stores surmounted by a coffee shop overlooking the Khalij Nasiri. The building included a passage leading from the street to the shore of the Khalij Nasiri.

East of the tannery for cow hides was a *wakala* consisting of nine stores at the ground level surmounted by a *rab'* of eight apartments. The *wakala* had a courtyard surrounded by twelve stores surmounted by four apartments.

On the eastern side of the *wakala* were a bakery and a shop adjoining the mosque of Jami' Jarkas located farther east (*D.E.*: M/15). This mosque exists today near the Ministry of Awqaf. I was not able to find its foundation date.

Adjoining the *wakala* on its northern side was the slaughterhouse which did not overlook the street, but could be reached from an entry way near the bakery. It included a courtyard with a well which also supplied the ablution fountain of the Jarkas mosque. The slaughterhouse was surrounded by fields and overlooked the pond of Bab al-Luq, later known as Birkat al-Dam.

'Umarshah, on the southwestern side of Birkat al-Fil (*Description de l'Egypte*, henceforth *D.E.*: S,T/11) and included several estates described in the deed as being in a very dilapidated and unusable state. He pulled down the ruined buildings and erected instead dwellings of the *rab'* type, a coffee house and a large, luxurious residence with several horse stables. His own residence is mentioned as being in the Qusun quarter (*D.E.*: X/3), which is close to the old tanneries and the later Dawudiyya. In this quarter too, Dawud Agha acquired a number of estates where he erected a new mansion and a stable. He endowed these estates upon himself; at his death the *waqf* was to be used for charitable purposes.

One month later, in July 1601 his master 'Uthman Agha, while in Istanbul, endowed the entire tannery complex acquired for him by Dawud Agha and for a mosque to be built in Cairo to which a mausoleum for himself was to be adjoined. The *waqf* also included donations for Mecca and Medina and for the mausoleum of Bilal built by 'Uthman Agha in Damascus. Habbaniyya was thus to be upgraded with the elimination of the tanneries and their replacement by a new mosque with a mausoleum, adjoining elegant dwellings (*D.E.*: O,P/8). The mosque had not yet been built at the time when the deed was written. It was built later in 1019/1610 and is known today by the name of Malika Safiyya (Monument No. 200).

'Uthman Agha's buildings in Cairo, especially the mausoleum, implied that he planned to retire in Egypt. The residence erected by his deputy Dawud Agha west of Birkat al-Fil could have been intended for him. But 'Uthman Agha never came to Egypt; he was killed in January 1603 during an uprising against the imperial harem in Istanbul. At that time the Ottoman sultan was Muhammad (Mehmet) III, son of Murad III from his Venitian wife Safiyya, the powerful Ottoman first lady. After her husband's death in January 1595 Safiyya became extremely powerful and exercised great influence on Ottoman politics during the reign of her son Muhammad III. In March 1603 Safiyya brought a case to court in order to invalidate 'Uthman's endowment, with the argument that he had not been entitled to make a *waqf* as he was a slave and had not been manumitted.[8]

This was two months after the eunuch's death and almost two years after he had registered his own *waqf*. 'Uthman Agha's agent could not win the case for his deceased master, as his testimony stood against that of the first lady. Safiyya, having appropriated the estates of this *waqf*, reendowed them for the same purpose, but in her own name, without the mausoleum which 'Uthman Agha had planned for himself. It was perhaps higher justice that Safiyya was banished from the Topkapi Palace by her grandson Ahmad I who also ordered the work at her own mosque, the Yeni Jami in Istanbul, to be stopped, so that she died before seeing its completion![9]

---

[8] J.A. Williams, "The Monuments of Ottoman Cairo," *Colloque international su l'Histoire du Caire (27 Mars-5 Avril 1969)*, Cairo, n.d., 453-464.

[9] G. Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London: 1987), 340.

Bey, the famous *amir al-hajj*, upgraded the quarter around his palace, which he himself did not create, but which rather had a long Mamluk, and even pre-Mamluk, tradition. Similarly, the quarter of Tabbana, upgraded by Ibrahim Agha Mustahfizan in the 17th century, had existed as a Mamluk residential area since the late 13th century.[2] 'Uthman Katkhuda's buildings at Azbakiyya were also but an expansion of Azbak's foundation south of the Azbakiyya pond.[3]

There is, however, one quarter in Cairo, that has not so far received much attention, and which differs from the above mentioned neighborhood initiatives of the local aristocracy. It is the quarter of Dawudiyya established by members of the Ottoman court;[4] the toponym Dawudiyya refers to Dawud Agha. The quarter was founded in fact as a joint-venture by 'Uthman Agha and his deputy Dawud Agha, both of whom had been black eunuchs at the Sultan's palace in Istanbul. 'Uthman Agha was the chief eunuch of Dar al-Sa'ada and the supervisor of the *awqaf* of the Ottoman sultans. Dawud Agha was the supervisor of the Dashisha *awqaf*, which were constituted by Sultan Qaytbay for the Haramayn and later enlarged by Ottoman sultans. It is known that the black eunuchs who were in charge of the Haramayn endowments often came to retire in Cairo.[5] These did not belong of course to the local aristocracy, but were rather resident Ottomans.

In March 1600 (1008 AH) Dawud Agha received from the Sultan the permission to buy the old slaughterhouse at Habbaniyya and to build a mosque in its place. At the same time he bought land in the western outskirt near the pond of Bab al-Luq to build a new slaughter-house and a tannery complex. Dawud Agha made these transactions in the name and on behalf of 'Uthman Agha.[6]

One year later, in June 1601 (1009 AH), Dawud Agha registered new acquisitions at the court, this time in his own name.[7] These were located in a quarter called Qantarat

---

[2] A. Raymond, "Les Grands Waqfs et l'Organisation de l'Espace Urbain à Alep et au Caire à l'Epoque Ottomane," *Bulletin d'Etudes Orientales* XXXI (1979), 113-128.

[3] D. Behrens-Abouseif, *Azbakiyya and its Environs from Azbak to Isma'il* (Cairo: IFAO, 1985), 55ff.

[4] A brief reference to this foundation is in my *Egypt's Adjustment*, 172.

[5] On the imperial black eunuchs in Cairo, see Jane Hathaway, *The Politics of Households in Ottoman Egypt* (Cambridge, England: 1997), 139-164, and "The Role of the Kizlar Agasi in Seventeenth-Eighteenth Century Ottoman Egypt," *Studia Islamica* 75 (1992), 141-158.

[6] Dar al-Watha'iq (Cairo), Mahkamat al-Bab al-'Ali, No. 73, Sha'ban 1008 AH.

[7] Dar al-Watha'iq (Cairo), Mahkamat al-Bab al-'Ali, No. 361, Dhu 'l-Hijja 1009 AH.

An Industrial Complex in Ottoman Cairo: The Tanneries at Bab al-Luq

Doris Behrens-Abouseif
Frankfurt, Germany

Until the reign of Muhammad 'Ali the foundation of new quarters in Ottoman Cairo was a matter of private initiative rather than a government concern. Unlike Aleppo, Damascus or Tunis whose Ottoman governors initiated projects to promote or intensify urban activities, in Cairo there was no such policy. The governors were more interested in maintaining existing structures than in undertaking new projects.

Urban projects were rather due to the initiative of the local military aristocracy, whose growing power and wealth stimulated them to upgrade and refine their urban environment, i.e., the quarters where they lived with their households. By aristocracy I do not mean a specific group, but in general the mamluks and officers of the ojaks, who were settled permanently or semi-permanently in Cairo.

The governors established, however, important *waqfs* for religious and charitable institutions during the 16th and 17th centuries; these institutions were financed by commercial structures to serve the exchange of commodities between Egypt and Turkey. These estates included in these *waqfs*, however, were mostly scattered over the entire city rather than concentrated in one quarter, as was the case with the Ottoman foundations in Istanbul. The aristocracy did not begin to make important *waqfs* in Cairo before the 17th century. Their size and importance increased throughout the 17th and 18th centuries while the power of the governors as well as their control over the resources of the Egyptian province was declining.

The rarity of Cairene toponyms originating in the Ottoman period shows that urban projects were not pioneer projects opening up new areas, but that they rather were built within the confines of the pre-existing Mamluk city. Even when the military aristocracy emerged as sponsor of urban projects, its interest was oriented towards well established quarters. 'Abdin is one of the exceptional toponyms which originated under Ottoman rule. 'Abdin Bey was an *amir al-hajj* who in the 1630's built a new quarter on the western outskirt of the city, which included a mosque, dwellings and commercial structures.[1]

The Qasabat Ridwan, also constructed in the 17th century, is a different case. Ridwan

---

[1] The subject of neighborhood upgrading has been discussed in my book *Egypt's Adjustment to Ottoman Rule, Institutions, Waqf and Architecture* (Leiden, Köln, New York, 1995), 165ff.